الإسلام
عقيدة ونظام

تأليف

دكتور رشدي عزيز محمد
عميد كلية أصول الدين ـ بالمنصورة سابقا
واستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر
واستاذا معارا بجامعة قطر

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد ، أحمده على نعمائه التى لا تحصى وأصلى واسلم على سيدنا محمد خاتم انبيائه ورسله ، والذى اصطفاه ربه من بين خلقه ، وارسل على يديه أعظم نعمة ، وهى نعمة الاسلام ، ليكون دين الكون كله ، ودين الانسانية كلها من لدن آدم الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ٠

ولا غرو فهو عقيدة الى جانب انه نظام جاء لتنظيم كل جوانب الحياة على أروع صورة وأجلى بيـــان ، فهو نظام كامل لجوانب الحيـــاة ٠

هذا وقد اشتمل هذا الكتاب على قسمين :

أما القسم الأول : ففيه بيـــان لمعنى الثقافة الاسلامية وحاجة البشر اليها كما يشتمل على بيـــان معنى كل من الاسلام والايمان ، وقد ابنت فيه ان العقيدة أساس لبناء الاسلام المتكامل ٠

أما القسم الثانى : فقد أبنت فيه أن الاسلام الى جانب أنه بناء أساسه العقيدة ، فهو كذلك نظام ، حيث جاء بتعاليمه السمحة لتنظيم شئون الحياة كلها ، وضربت على ذلك أمثلة حيث أوردت نماذج من هذه النظم ، مثل : تنظيم الاســـلام للأسرة ، ثم النظام الادارى والسياسى وكيف جاء الاسلام بأروع الصور التى تنظم علاقة المسلمين بغيرهم فى السلم والحرب ، وكيف أنه وضع النظام المالى الذى يرفض كل لون من ألوان الانحراف فى هذه الناحية ويضمن المحافظة بمقتضى هذا النظام على أموال المسلمين ، بحيث يوظفها صاحبها بما يعود عليه وعلى غيره بالخير العميم ٠

وقد حرصت على أن تكون عباراتى سهلة ميسرة يفهمها كل قارىء

ليكون على الما م بدينه ونظمه التى متى سار المسلمون عليها سعدوا فى دينهم ودنياهم ٠

والله اســـال ان ينتفع المسلمون بما جاء فى هذا الكتاب ، انه نعم المولى ونعم النصير ٠

والله الموفق ،،،

المؤلف

تمهيد

من نافلة القول أن نقول فى هذا المجال : ان المسلمين فى عصرنا الحاضر أحوج ما يكونون الى من يأخذ بيدهم الى طريق الاسلام خاصة وان سحبا قاتمة من بريق الحضارة قد حالت بين الكثيرين منهم وبين تعاليم دينهم الحنيف . واحسب انه قد آن الأوان كى نستجيب لرغبات مثقفى المسلمين ومفكريهم فى وجوب التعريف (بالاسلام) كعقيدة ونظام ورسالة جامعة يلتقى حولها المسلمون فى كل أرجاء الدنيا .

فالأمة الاسلامية التى يشكل العرب فيها واسطة العقد وقاعدة الأساس تصحو اليوم على آمال جديدة وطموحات واسعة ، تستيقظ بعد سنوات طويلة من السبات العميق وتتلفت من حولها فتجد نفسها راكدة منطوية على نفسها بينما تجد امما كانت فى المؤخرة فأصبحت فى المقدمة ولذلك فهى الآن على مفترق الطرق تعمل جاهدة لتنفض عنها اوزار الكســـل والركود ولتتعرف على الطريق الذى يهىء لها حاضرا عزيزا ومستقبلا اعز واشرف .

وحين تكون أمة من الأمم كحالة امتنا اليوم فى نقطة البدء ، تكثر فى سوقها بضاعة المبادىء والدعوات ويخرج الداعون للأفكار كل يزين بضاعته ويقدمها على صورة تأخذ بالأبصار ، والأمة الواعية هى التى تحسن انتقاء الأفضل من هذه المبادىء ، فاذا ما اساءت الاختيار وعجزت عن التقويم السليم للآراء المعروضة جلبت على نفسها مصائب لا تنتهى ، فالخطأ فى نقطة البدء صعب التقويم والاصلاح .

ويجب أن لا يغيب عن اذهاننا أن أبواب الفكر فى عصرنا مفتوحة على الثقافات جميعها ، فوسائل الاعلام المختلفة ودور النشر والترجمات كل هذا سهل انتقال الآراء والأفكار ، فأصبح من المستحيل أن تغلق أمة على نفسها نوافذ المذاهب والأفكار الوافدة من شتى الأقطار والمجتمعات .

ومن هنا اشتدت الحاجة الى وجوب معرفة الاسلام كعقيدة ونظام

فهذه المعرفة بالاضافة الى كونها ضرورية للتعرف على ما لدينـــا من من مقومات الوجود والتقدم فانها ضرورية للتسليح بها تجاه الأفكار والعقائد الأخرى ، وحين يتعرف المسلم على حقيقة دينه وسعة جوانبه وضخامة ما يستطيع أن يقدمه للانسانية جمعاء يزداد ثقة بنفسه لثقته بعقيدته ويقوى أمله فى حاضر مجيد ومستقبل أمجد .

وهذه الدراسة المتواضعة للاسلام كعقيدة ونظـــام لا تبحث فى التوحيد أو الفقه او الحديث أو غيرها من العلوم الاسلامية كعلوم قائمة بذاتها فحسب ، وانما تستفيد من هذه العلوم جمعاء للتعرف على حقيقة الاسلام وروح الثقافة والحضارة الاسلامية وطبيعـــة هذا الدين ومبادئه المتميزة التى تأخذ بالانسان الى طريق الله وفى نفس الوقت تسمح له أن يتمتع بخير ما فى الدنيا (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ...) (١) .

لذلك فانه سيكون من واجبنا فى هذا الكتاب أن نتعرف قدر الطاقة على ثلاثة أمور :

١ ـ حقيقة الاسلام كعقيدة حية متجددة .
٢ ـ أنواع النشاط الانسانى فى السياسة والاقتصاد والأخـــلاق والتربيـــة .
٣ ـ أثر الاسلام كدين وحضارة وثقافة فى العرب والناس اجمعين .

ويبدو أنه من الواجب قبل تفصيل هذه المواضيع ان نجيب على عدة تساؤلات هامة وهى :

١ ـ هل هناك ثقافة ونظم اسلامية ؟
٢ ـ واذا كانت هذه الثقافة وتلك النظم موجودة فهل هناك حاجة الى هذه الدراسة فى هذا العصر ؟
٣ ـ واذا كانت الثقافة والنظم الاسلامية هى من العظمة والكفاية فما الذى يجعلها مهملة هذا الاهمال بين المسلمين ؟

---

(١) سورة القصص : ٧٧ .

قد يستغرب الكثيرون حين نتساءل عن وجود الثقافة والنظم الاسلامية ، وقد يكون الجواب على هذا التساؤل بديهيا وهو أن هناك ثقافة ونظما اسلامية ، وخاصة وأننا سنعرض لهذا الموضوع بالتفصيل فى هذا الكتاب ٠

لكن ذلك لا يمنعنا من أن نلقى نظرة سريعة على حالة العرب قبل الاسلام وبعده لندرك بجلاء أهمية هذه الدراسة للثقافة والعقيدة والنظم الاسلامية ، فلقد جاء الاسلام وليس للعرب شخصية فكرية متميزة ، صحيح أنهم كانوا يملكون النظرة البسيطة وأن لديهم أصولا طيبة لمكارم الأخلاق وبداهة رائعة فى الشعر والخطابة الا أنه كان ينقصهم أهم ما يكون الأمم ويعطيها شخصيتها والشعور بذاتها والثقة بنفسها وهو الرسالة والعقيدة التى تلتقى حولها الطاقات وتتوحد الآراء فتسير منطلقة وقد حددت أهدافها وتبينت حقيقة وجودها ٠

جاء الاسلام ليعطى العرب حياتهم وسر وجودهم فأمكن لهذه الامكانيات الفطرية أن تنطلق وتبدع ٠

لذلك نجد حياة العرب فى الجاهلية ضحلة سبخة ، بينما نرى حياتهم مع الاسلام غنية وارفة ، لقد وضع العرب أيديهم على سر وجودهم فاستطاعوا أن يحققوا الكثير وأن يغنوا الانسانية بالمبدأ والحضارة والتاريخ المشرق ، وظهرت بظهور الاسلام ثقافات جديدة ، وعلوم مبدعة ، وفنون ومعارف فى جميع نواحى الحياة ٠ لذا فقد نشأت الحاجة لتجديد التعرف على القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ فظهرت علوم التفسير والحديث والسير وعلم الرجال ونشأت الحاجة الى التقنين والتشريع فظهرت علوم الفقه والأصول وطمع المسلمون الى مزيد من التعرف على أحوال الكون فظهرت العلوم التجريبية والمجردة كالرياضيات والفلك والحياة وأرادوا الاستفادة مما عند الأمم الأخرى فاستجدت دراسة علوم الفلسفة والأديان والعقائد ٠٠٠ وشعروا بأن لغة العرب رابطة متينة بينهم لأنها لغة القرآن فبرزت الحاجة الى علوم اللغة العربية بشتى فروعها ٠

وهكذا لم يكتمل القرن الرابع الهجرى حتى كانت الأمة الاسلامية

اغنى الأمم علما وفكرا واكثرها كفاية وكفاءة واقواها عدة وشخصية ، وقد قدم المسلمون للانسانية اضخم تراث علمى وادبى وكان الأفراد الذين جمعهم درب الثقافة الانسـانية الوارف اكثر من ان تضمهم مؤلفـات ، فبرزت كتب طبقات الرجال واختص كل نوع من الكتب بطبقات معينة من المفكرين ، فهذه معاجم رجال الحديث وهذه معاجم رجال الأدب وهذه طبقات الأطباء والحكماء وهكذا وجد ما لم يجتمع لأمة من الامم لا فى ماضيها ولا فى حاضرها .

وقد خلف آلاف الآلاف من المفكرين والعلماء ، آلاف الآلاف من الذخائر والنفائس التى زخرت بها آلاف الآلاف من المكتبات التى كانت تغطى العالم الاسلامى من مشارق الصين الى الأطلسى ومن تركستان وغرناطة الى عدن ودلهى بشكل يبهر العقول ويحير الألباب . ولقد دامت هذه الثقافة الاسلامية مدة طويلة وكانت اساسا للثقافة والحضارة الغربية المستقاة من تراث مفكرى الاسلام حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى/الثانى عشر للهجرة ، وكانت بذلك بداية النهضة والتقدم فى اوربا والعالم الغربى كله .

وهنا تبرز الحاجة للاجابة على السؤال التالى ، فقد يقول قائل : اننا نسلم بهذا الذى تقولون لكنه يضيف بأن الاسلام وما انبثق عنه من ثقافة قد آتت اكلهـا وانتهت مهمتهـا – لأنها كانت تمثـل عصرا معينـا ومرحلة حضارية خاصة ، فما وجه الحاجة الى ذلك كله الآن ؟

ونحن نقول : ان الحاجة الى معرفة الثقافة الاسـلامية – وفى مقدمتها معرفة الاسلام كعقيدة ونظام – حاجة متجددة مع تطور الفكر الانسانى وتبدو ضرورتها والحاجة اليها فى نطاق العرب والمسلمين والانسانية جمعاء .

فأما حاجة العرب اليها : فلأن الاسلام هو الذى يميز الشخصية العربية ، بل انه هو الذى يعطى العرب شخصيتهم وتمييزهم ، والا فما معنى العربى والعروبة لولا الاسلام ؟ واذا نظرنا الى الموضوع من الزاوية القومية وجدنا انفسـنا ملزمين بالتمسك بالاسـلام ونظمه وثقافته . فالقومية لا تنفصل عن مضمونها ، والقومية ليست مجرد لباس او شكل

أو شعار خارجى ، وانما هى حقيقة ومضمون ، واذا كان للعرب رسالة تميزهم عن غيرهم فليست هذه الرسالة الا الاسلام ، والعروبة لا تتميز بمجرد الشـــعارات الفارغة والادعاء ، وان اى محاولة لتجريد فكرة العروبة عن الاســـلام هى محاولة لتجريد العروبة من روحها وحياتها والابقاء على هيكل عار اجوف لا خير فيه ولا فائدة منه · ولعل سبب حياة الحيرة والقلق التى يحياها العرب اليوم ان عددا من القادة وعددا من الشعوب العربية تبدو تائهة عن هذه الحقيقة فهى تتلمس كيانها وشخصيتها من خلال نظريات ومذاهب غريبة على العرب ناســـية ان الشخصية تنبع من الذات لا من الغير لأنها حصيلة تاريخ ماض وحاضر واقع ومستقبل مأمول ، هذا بالاضافة الى أن العرب بالاسلام يصبحون من الأمم ذات الرسالات والمبادىء ·· وفرق بين امة ضائعة تائهة تأخذ من هنا وهناك لترقع ثوبا ، لا يبدو فيه الأصالة والطرافة وبين امـة رائدة قائدة ، تفاخر برسالة وتحمل مبدأ وعقيدة ·

وأما حاجة المسلمين الى هذه المعرفة : فلأنها هى التى تستطيع ان توحد هذه الشعوب التى تضم اجناسا والوانا متعددة ، وتتكلم لغـات مختلفة ، ومع هذا فانها تحن الى هذه المعرفة وتحس احساسا عميقا بأن لا وسيلة لنصرتها وانقاذها من الضياع وابعاد الأيدى التى تنوشها من هنا وهناك الا بهـذه الثقافة النابعة من الاســـلام · فالمسلمون دون الاسلام مفرقون ضائعون فاقدون لكل مقومات الحياة والاحترام · وهم بالاسلام أمة واحدة وكيان قوى واثق من نفسه شاعر بانسانيته وانسانية الرسالة التى يحملها وافضليتها · والاسلام هو الذى يجعل من المسلمين القوة الثالثة فى العالم ·· القوة التى تستطيع أن توازن بين الكتل المتصارعة ، وقد يصبحون القوة الأولى فى العالم التى تهوى اليهـا النفوس والأفئدة اذا أدركوا قيمة رسالتهم الوسطى التى تجمع بين قوة المادة وضرورتها وبين اهمية الروح فى السيطرة على المادة المنطلقة كيلا تضل بها الطريق وتتجاذبها نوازع الشر وشهوات الانفس ·

ولا تقل حاجة الانسانية للاسلام ونظمه وثقافته عن حاجة العرب والمسلمين : فالمذاهب التى تسود العالم الآن لا تنظر الا للجانب المادى من الحياة ، ومن هنا كانت المصلحة والأنانية والاستغلال هى الأخلاق السائدة فى تنظيم المجتمعات البشرية ، وحين تتخلى الانسانية عن المثل

والقيم الاخلاقية تصبح الحضارة والآلة والمخترعات وسائل اضرار وينقلب الانسان الى وحش كاسر .

ان الاستعمار وامتصاص دم الشعوب واستغلال خيراتها وطاقاتها والرفاهية على حسابها ، كل هذه الجرائم تصبح فضائل فى ظل حضارة زائفة تخلو من الروح والخلق ، والاسلام هو الذى يملك تسخير المادة والحضارة لخير الانسانية ، وهو الذى يستطيع ان ينقذ الشعوب من المصير الذى تساق اليه بسبب انطلاق عقال المصلحة والانانية والاستغلال . والاسلام هو الذى يستطيع ان يكشف زيف الحضارة الغربية المادية وما تنطوى عليه من متناقضات ومفارقات .

ان الحضارة لا تعنى البريق الظاهر منها فحسب ، واى فضيلة لحضارة تسمح لأفرادها ان يسرقوا الشعوب ويلتهموا خيراتها ؟ والكثيرون يتلمسون سبيل الخلاص ، فالعالم الذى لم يتحرر بعد يجب ان يمد له الاسلام طريقة للخلاص ، والعالم الذى يستغل يجب ان يقدم له الاسلام سبيل الهداية والرشاد .

والمسلمون والعرب هم المهيئون للأخذ بيد العالم وقد اخذوا بيده يوما ما فعرف الناس الاستقرار فى ظل الكرامة الوافرة والانسانية الراشدة .

اننا نثق بأن رسالة الاسلام متجددة ودائمة وأن الاسلام هو الرسالة الأخيرة للانسانية وأن مهمة الأمة الاسلامية لم تنته بعد . والا فهل انتهى الاستغلال والاستعمار واسترقاق الشعوب لبعضها ؟ وهل تحرر الانسان من الخوف على الحياة والرزق ؟ وهل قضى على الشرك الذى يخل بكرامة الانسان ؟

ان مهمة الأمة الاسلامية مهمة قيادية توجيهية وصدق الله العظيم القائل : (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ...) (٢) . والقائل : (وكذلك جعلناكم امة

---

(٢) سورة آل عمران : ١١٠ .

وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ...) (٣) .

وقد يتساءل البعض فيقول : وهل يملك الاسلام وهو عصب الثقافة الاسلامية ما ندعيه له وهو دين ، وما يعرفه الناس عن الدين انه مجرد عقيدة بين الانسان وربه تمارس عن طريق طقوس وعبادات يؤديها ؟

وجوابنا : نعم . فالاسلام عقيدة ونظام : فهو عقيدة تربط الانسان بخالقه فيأتمر بأمره وينتهى بنهيه ، ثم هو نظام لأنه لم يترك شأنا من شئون الفرد والأسرة والمجتمع الا ونظمه ووضع له قواعد ومبادىء انه ينظم حياة الفرد فى علاقته بينه وبين نفسه وبين أسرته ومجتمعه وينظم شئون المجتمع فيضع له نظمه وطريقة الحكم والتشريع وكيفية ترتيب علاقاته مع الدول والمجتمعات الأخرى ... الخ .

بقى علينا أن نتوقع سؤالا آخر يقول : مادام الاسلام على الصورة المشرفة التى تذكرها ، فلماذا لم ينل حظه من العناية من قبل الشعوب الاسلامية ؟

والجواب : ان الأسباب كثيرة لهذا الموقف من اهمها : ما اصاب الدولة الاسلامية من تفتت ووهن هيأ للاستعمار مجالا ليفعل فعله فى اضعاف المسلمين ، وقد استيقظت الشعوب الاسلامية مبهورة بحضارة المستعمر وقوته وكانت مواقف مفكرى المسلمين أحد ثلاثة :

(أ) فمن المفكرين من استسلم للحضارة الغربية وظن أن لا طريق لاستعادة قوتنا الا بواسطتها فظهرت الدعوة الى تقليد الغرب بأفكاره ، ونظرياته وعلومه أو بعبارة أخرى : اقتباس الحضارة الغربية بجميع حسناتها ومساوئها وقد وجد هذا التيار فى كثير من البلاد العربية والاسلامية وقامت على اساسه نظريات ومذاهب سياسية واقتصادية واجتماعية .

---

(٣) سورة البقرة : ١٤٣ .

(ب) ومنهم من وجد انه لا قبل له بهذه الحضارة الغربية القوية فظن انه يحمى نفسه اذا اغلق الأبواب دونها وعاش على ما لديه دون أن يفتح بابا لتطور او تجديد أو اقتباس . الا ان هؤلاء سيجدون عاجلا او آجلا ان طبيعة الأشياء تأبى هذا الموقف وأنهم اما أن يقبلوا باقتباس المفيد واجراء شىء من التطور والتجديد والا فان تيار التاريخ سيخلفهم وسيتلفتون حولهم فى يوم فلا يجدون نصيرا ولا قريبا .

(جـ) ومن المفكرين من واجه الحضارة الغربية مواجهة الواثق بنفسه المتمكن من شخصه فميز بين الثقافة كمذهب ورأى وروح تتميز به الأمة عن غيرها ، وبين شئون الحضارة والعمران والمدنية وهذا هو الموقف السليم المتفق مع طبيعة الأحداث وحقائق التاريخ وقد اوجدت هذه الفئة من المفكرين تيارا قويا يدعو الى مواجهة الحضارة الغربية بشجاعة وايمان مترفعا عن التقليد غير خاضع للمظاهر . هذا التيار يحاول ان يأخذ طريقا مبتكرا بين الايمان المنبثق عن الاعتقاد بالأنبياء والرسل وبين العلم الذى ليس ملكا لبلد او شعب وانما هو للناس جميعا ، كما يحاول ان يأخذ من الدين الدوافع الخيرة ومن الغرب الآلات والوسائل الحديثة ويعامل الحضارة الغربية كمواد خام .

والحق ان هذا التيار هو الطريق الأمثل امام الشعوب الاسلامية فنحن بحاجة الى شعوب تشعر بانها المرجع للعالم كله لأنها تؤسس حضارة قوية قائمة على الايمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل فى جانب ، والقوة والانتاج والرفاهية والابتكار فى جانب آخر ، ونحن بحاجة الى شعوب تأخذ من الغرب ما تحتاجه البلاد وتفتقر اليه علميا دون طابع شرقى او غربى وليس هذا الا العلوم التطبيقية التجريبية .

ان شعوبا من هذا النوع لن تنظر الى الغرب كامام أو زعيم والى نفسها كمقلد وتلميذ ، لأن هذه الشعوب تعلم أن الغرب انما تفوق عليها بفضل ممارسته وتجربته كما تفوقت عليه سابقا ، ولئن أصبحنا الآن نتعلم من الغرب الكثير فهو يحتاج الى ان يتعلم منا كما تعلم منا سابقا

وربما اكثر مما نتعلم منه . ان الذى يدعو اليه هذا التيار هو محاولة الجمع بين حسنات الشرق والغرب وقوة الروح والمادة واخراج منهج يجدر بالغرب أن يقلده لأنه يوازن بين حاجات النفس والجسد والروح والمادة بين العقل والفرد والمجتمع ... وهذا هو الاسلام .

ان المنهج الذى سيكون رائدنا فى هذا الكتاب هو اننا يجب أن نشعر فى كل لحظة اننا أصحاب عقيدة ورسالة ، وأن هذه العقيدة والرسالة لن تعطى ثمرتها الا اذا فهمها أصحابها وحملوها للناس ، وهذا المنهج يحدونا الى ان نلقى الضوء قبل الدخول فيما نحن بصدده - على مفهوم الثقافة والمثقف ليتم المراد .

مفهوم الثقافة والمثقف

كلمة الثقافة كلمة عربية تعنى فى أصلها الحسى : تقويم الشىء المعوج وتسويته ، ويوصف الانسان الحاذق بأنه مثقف ، ويقال : ثقف فلان الشىء أى تعلمه بسرعة وحذقه ـ كما يقال : فلان ثقف : اذا كان ضابطا لما يحويه قائما به .

وإذا كانت هذه الكلمة قد ترجمت فى الثلاثينات الى اللغــات الأوربية فاكتسبت بذلك مزيد معنى ـ الا أنه يمكن ان نجمل هذه المعانى قديمها وحديثها بقولنا :

اولا : ان يلم المثقف بكثير من علوم عصره من جغرافيا وتاريخ وقانون وعلوم ، ورياضيات وأدب ودين ... الخ الماما يمكنــه من متابعة محاضرة عامة او حديث اذاعى عنها ، ولا يمكن بل ولا يشترط ان يعرفها جميعا معرفة المختص .

ثانيا : معرفة ما يجرى فى محيطه وعصره ومتابعة ذلك ، وهذا يشمل الحوادث والتغيرات السياسية العالمية والمحلية ، والتغيرات الاجتماعية والمكتشفات التقنية (التكنولوجية) والتطورات الفكرية ... الخ .

ثالثا : أن تكون معرفتــه بكل ذلك معرفة حقيقية لا مجــرد حفظ للكلمات والتعابير والحروف ، وعلامة تلك المعرفة الحقيقية أن صاحبها لا يقبل كل ما يقرأ ويسمع ويردده كما هو ، بل تكون له عقلية نافذة يقبل به ويرفض ، ويعبر عما عرف بلغته ، ويربط بين الجديد الذى عرف والقديم الذى خزن .

رابعا : أن تتحول المعرفة عنده الى سلوك ، فالشخص المثقف انسان مهذب يعرف كيف يعامل الناس برفق ولطف وهو انسان عملى يشارك بفكره وجهده فى حل المشكلات التى تواجه مجتمعه أو المجتمع الانسانى ويسعى دائما لتحســين حال المجتمع

فالانسان المثقف اذن : ليس مجرد شخص تخصصى فى علم من العلوم ويجهل ما سوى ذلك وليس مجرد شخص محشو الرأس بمعارف غير مهضومة ولا متناسقة . وليس مجرد انسان عليم اللسان جاهلى السلوك ، وانما هو انسان هذبته المعرفة وصقلته التجربة .

هذا هو المثقف بصفة عامة فما ميزة المثقف المسلم أو المسلم المثقف ؟ ولكى نجيب عن ذلك يحسن ان نقول شيئا عن معنى الاسلام :

كلمة الاسـلام كما هو معروف تعنى : الاستسلام والخضوع لالـه واحد هو خالق الكون ومدبره . والاستسلام له يعنى : طاعة امره ، واجتناب نهيه والعمل على تنفيذ شريعته التى هى فى صالح البشر جميعا فى اى زمان واى مكان .

والاسلام بهذا المعنى هو :

(أ) **دين الكون كله** : اى ان كل المخلوقات مسلمة لله مستسلمة لأمره فالملائكة مسلمون لانهم كما قال الله تعالى عنهم : (لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون) (٤) . والسموات والأرض وكل ما فيها مسلم . وفى هذا يقول الله تعالى : (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون) (٥) .

(ب) **ودين الانسانية كلها** : لانه الدين الذى جاء به كل الأنبياء من لدن آدم الى محمد ﷺ ، يقول الله تعالى : (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسـلمين) (٦) . ويقول جل شانه : (ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) (٧) .

---

(٤) سورة التحريم : ٦ .
(٥) سورة آل عمران : ٨٣ .
(٦) سورة فصلت : ٣٣ .
(٧) سورة الحج : ٧٨ .

(جـ) **وهو الدين الخاتم** الذي جاء به محمد ﷺ للبشرية كلها ، (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) (٨) ، ففيه يجدون كل مقومات نهضتهم والارتقاء بهم سلوكا وارادة ومبادىء وقيما وبشرية مهذبة .

فالمثقف المسلم اذن هو الذى تتحقق فيه الشروط الأربعة التى ذكرناها سابقا بالاضافة الى ما يلى :

١ - أن يحسن قراءة القرآن الكريم ، ويعرف قدرا من سيرة الرسول ﷺ ، وتاريخ الاسلام من بعده ، ويعلم القدر اللازم من أحكام الاسلام الخاصة والعامة ، ويدرك ايضا اهمية القيم والمبادىء والمثل الاسلامية فى عصره .

٢ - معرفة أحوال المسلمين فى العالم .

٣ - أن يتأسى فى سلوكه بالمصطفى ﷺ .

وبعد : فقد حق علينا أن نصحب القارىء الكريم ليعيش فى رحاب العقيدة الاسلامية والتى نبدأ الكلام عنها باعطاء فكرة موجزة عن التصور الصحيح للاسلام . وهو ما نستهل به القسم الأول من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

---

(٨) سورة سبأ : ٢٨ .

القسم الأول

العقيـــــــــدة الاســــــــلامية

التصور الصحيح للاسلام

مما لا شك فيه ان على كل مسلم أن يتصور الاسلام تصورا صحيحا فالتصور الصحيح للاسلام من شأنه أن ينقذ المســـلمين من كثير من الانحرافات التى وقعوا فيها قديما وحديثا ، فالخطأ فى تصور الاســلام قد ادى ببعض المسلمين الى ان يهتموا بجانب فيه دون سائر الجوانب ودفع بآخرين منهم الى أن يجعلوا ما هو فرعى منه فى منزلة الأساسى بينما اهتم آخرون بما هو أساسى مهملين كل شىء سواه وحصروا الدين فيه دون ما عداه ٠

فمن المسلمين ـ انطلاقا من هذا التصور الخاطىء للاسلام ـ من ظن ان الدين هو الأخلاق الحسنة فقط أو أن (الدين المعاملة) على معنى أنه لو حسنت المسلم وكان طيبا فى معاملته لاخوانه وللناس من حوله فلا بأس عليه فيما قد يفعله بعـــد ذلك ٠ وانطلاقا من هذا التصور الخاطىء ، لأى البعض راحوا يبررون وقوعهم فى بعض المعاصى أو ارتكابهم لبعض المحرمات حيث التمسوا لأنفسهم العذر فى تقصيرهم فى آداء بعض فرائض الدين وواجباته مدعين أن القصد من العبادات انما هو حسن الخلق ، وراح هؤلاء يهونون من شأن وقوعهم فى المعاصي بقولهم : ان الله واسع المغفرة ، وأن شفاعة النبى ﷺ ستشملهم ٠٠٠ الخ ٠

وعلى العكس من ذلك اهتم بعض المسلمين بالعقيدة والتوحيد ، أو بالعبادة والطاعة ولكنهم لم يقرنوا ذلك بثمرة العقيدة والعبادة التى هى المعاملة الطيبة والأخلاق الحسنة ولذلك تجد فى بعض هؤلاء غلظة وجفوة ، وتعاليا وقسوة ، بل قد تجد نفرا منهم مع حرصهم على العبادة الظاهرة لا يجدون بأسا من الكذب أو الغش ٠٠٠ الخ ـ وقد يزين لهم الشيطان أعمالهم فيبررون معاصيهم بأن هذه ضرورات لا غنى للمرء عنها فى هذا الزمان أو أن طبيعة عملهم تضطرهم الى ذلك ، وقد يجتنب بعضهم المعاصي والمحرمات الظاهرة ولكنهم يقترفون أنواعـــا من الذنوب والآثام التى لا تعرف الا عند المعاملة والتى قد تخفى على الكثيرين ٠

وليس من شك فى أن اخلاق الطائفة الأولى ليست هى الأخلاق الحسنة وأن عقيدة الطائفة الثانية أو عبادتها ليست هى العقيدة الخالصة ولا عبادتهم هى العبادة الصحيحة ـ لأن حسن الخلق مرتبط بصـــدق الايمان ـ كما أن العقيدة الخالصة والعبادة الصحيحة لابد وأن تثمر الاستقامة فى القول والعمل ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن هذه الانحرافات وغيرها انما نشأت من التصور الناقص للاسلام ٠

أما التصور الصحيح والكامل لبناء الاسلام المتكامل فيبدو بوضوح فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو تصور ينفى كل هذه الانحرافات نفيا تاما ٠ فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وحج البيت وصوم رمضان ٠

وفى الحديث المعروف الذى سأل فيه جبريل عليه السلام النبى ﷺ عن ماهية الاسلام والايمان والاحسان ، أجاب النبى ﷺ قائلا : (الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ٠٠) ، قال : فأخبرنى عن الايمان ، قال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ٠٠٠) قال : فأخبرنى عن الاحسان ، قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) (٢) ٠

وحديث جبريل ـ كما يقول ابن تيمية فى كتاب (الايمان) : (يبين أن الاسلام المبنى على خمس هو الاســلام نفسه ، ليس المبنى غير المبنى عليه ، بل جعل النبى ﷺ الدين ثلاث درجات : أعلاها

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى وأحمد ٠

(٢) أخرجه الشيخان وهو فى أول كتاب الايمان من صحيح مسلم ٠

الاحســان وأوسطها الايمان ويليه الاسلام ، فكل محسن مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مؤمن محسنا ، ولا كل مسلم مؤمنا) (٣) .

وبناء على ذلك فان معنى قول النبى ﷺ : (بنى الاسلام على خمس) أن الانسان لا يوصف بأنه مسلم الا اذا أقر بهذه الأركان الخمسة واعتقد وجوبها وأداها .

فمن لم ينطق بالشهادتين ويؤمن بمقتضاهما ، ومن لم يقر بوجوب سائر الأركان الأربعة ويؤديها (ما كان واجبا عليه منها) فليس بمسلم أو ان اسلامه يكون ناقصا ، وهو يخرج من الاسلام الى الكفر أن انكر وجوب ركن من هذه الاركان أوشك فى وجوبه وذلك باتفاق جميع علماء الاسلام ، وكذلك اذا لم ينطق بالشهادتين مع القدرة على ذلك (٤) ، أما اذا ترك ركنا من هذه الأربعة ففى تكفيره أقوال لعلماء الاسلام : فمنهم من كفره ، ومنهم من لم يكفره مادام مقرا بوجوبها وان كان يفسق بذلك ، ومنهم من قال : انه لا يكفر الا بترك الصلاة ، وهذه رواية أحمد (وهو قول كثير من السلف وطائفة من أصحاب مالك والشافعى وطائفة من أصحاب أحمد) كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : ومن العلماء من قال : ان المسلم يكفر بترك الصلاة وترك الزكاة فقط . ومنهم من يكفره اذا ترك الصلاة والزكاة : (اذا قاتل الامام عليها دون ترك الصيام والحج) (٥) .

وقد اتفق علماء الأمة على ان المسلم لا يكمل اسلامه الا اذا أقر بهذه الأركان الخمسة واداها كما اتفقوا على كفر من جحد أو أنكر شيئا من هذه الأركان بعد بلوغ الحجة ، واما من لم تقم عليه الحجة لجهل أو لعذر فانه يستتاب وتقام الحجة عليه فان أصر كفر حينئذ ولا يحكم بكفره قبل ذلك .

---

(٣) كتاب الايمان لابن تيمية ، ص ٤ ، طبع المكتب الاسلامى بدمشق ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

(٤) كتاب الايمان الأوسط ، مجموع فتاوى ابن تيمية ٦٠٩/٧ ، ط. الرياض سنة ١٣٨٢ هـ .

(٥) أنظر صحيح مسلم ٣١/١ - ٣٤ ، ط. المكتب التجارى ببيروت .

هذا : والايمان بهذه الأركان وأداء فرائضها - ولو بغير زيادة الا أن يتطوع الانسان - يكفى لدخول المسلم الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الكثيرة (٦) وهذا لا يتعارض مع وجوب الامتناع عن المحرمات التى اتفق على تحريمها وأداء الواجبات التى أجمعت الأمة على قبولها والدليل على ذلك حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الايمان عن رسول الله ﷺ قال :

(أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله) .

ولذلك كان اقام الصلاة وايتاء الزكاة من الأمور التى تعصم دم المسلم وكان الامتناع عنها سببا فى قتاله وقتله ، ففى حديث أبى هريرة قال : (لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب ، قال عمر بن الخطاب لأبى بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله) ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه - فقال عمر : فوالله ما هو الا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق) (٧) .

ولما كانت أركان الاسلام الخمسة هى الأركان الأساسية فى بناء هذا الدين الحنيف فان الايمان هو الذى يدعم هذه الأركان ويربطها برباط وثيق ، وأما الاحسان فهو الذى يجعل البناء راسخا قويا لا يتصدع وشامخا ثابتا لا يهتز مهما أصابه من عواصف أو زلازل .

---

(٦) أنظر : المدخل الى الثقافة الاسلامية ، للدكتور محمد رشاد سالم ، ص ١٧٢ - ١٧٤ ، ط. مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع .

(٧) صحيح مسلم ٣٨/١ .

واذا كان الاسلام بناء يقوم على اركان خمسة فان افضل انواع هذا البناء واعظمها شأنا هو الايمان ، بل ان الايمان هو أساس هذا البناء لأنه لا يقوم على هذه الأركان الخمسة فقط بل يمتاز بوجود أساس قوى له وهذا الأساس يتكون من عناصر رئيسية هى الاعتقاد الجازم فى الله تعالى والايمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وما يستتبع ذلك من جميع أنواع البر والتقوى وهذا ما نسميه بالعقيدة الاسلامية ٠

العقيـــدة الاســـلامية

كلمة العقيدة مأخوذة من العقد ، وهو الجمع بين أطراف الشىء ويستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة كعقد البناء وعقد الحبل ، ثم يستعار للمعانى نحو عقد البيع والعهد وغيرهما كأنك ربطت أجزاء التصرف أى الايجاب والقبول ببعض وقد يقال : لفلان عقيدة ولكن ما معنى أن يقال لفلان عقيدة ؟ هل يمكن أن نصف شخصا بالغنى ولا مال عنده ؟ اننا لا نستطيع ذلك ٠ لأن الغنى المقصود فى السؤال لا يتحقق بدون مال ، كذلك لا نستطيع أن نقول : لفلان عقيدة وليس عنده ما تتحقق به هذه العقيدة ، ان العقيدة الاسلامية لا تتحقق الا بوجود عناصرها ثم ان العقيدة الصحيحة هى أهم ما يطلب من المرء لأن العمل انما يتبع الاعتقاد ، وعلى قدر ما تصح عقيدة المســـلم وتقوى تستقيم أعماله وتزكوا أخلاقه ٠

ولذلك كان الاسلام عقيدة لأنه يربط الانسان بخالقه من حيث الايمان به ايمانا يحتمه الاسلام على المسلم بأركان أو عناصر أساسية لا يتم حقيقة كونه مسلما مؤمنا الا بها وهذه العناصر أو الأركان هى :

- الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، وسنتحدث عن هذه الأركان بشىء من الايجاز ٠

لما كان أسمى هذه العناصر هو الايمان بالله جل وعلا فانا سنبدأ به أولا لأن - الايمان ببقية العناصر والأركان منبثق عنه فاذا آمن الانسان بالله الواحد سهل عليه الايمان بالرسل والملائكة والكتب ، ومن ثم بالقدر وباليوم الآخر وما فيه من بعث وجزاء ٠٠٠ الخ ٠

أسس العقيدة الاسلامية

الايمان بالله تعالى

وهو أن تؤمن بوجود اله واحد تفرد بالخلق والتدبير والتصرف والملك وتنزه عن المشاركة والمماثلة ، وتفرد باستحقاق العبادة والتقديس ، فلا خالق لهذا الكون الفسيح سواه ، ولا مدبر لذلك النظام البديع غيره ، سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ويكفى أن ينظر الانسان الى هذا الكون الفسيح ، وأن يستعرض ما فيه من الكائنات ، واذا فعل ذلك حصل له علم ضرورى بأن هذه الكائنات لم توجد عبثا ولا صدفة ، بل لابد لها من موجد أوجدها ، ضرورة أن كل شىء له علة توجده ، أو صانع يصنعه أضف الى ذلك أن الايمان بوجود الله سبحانه انما هو فطرة فى النفس كما أنه يحصل للانسان نتيجة لما وهبه الله من مواهب عقلية ، وثمرة لقانون السير والنظر فى هذا الكون البديع .

وهنا تبرز لنا روعة الاسلام الذى انفرد من بين الأديان بالأمر باستخدام العقل فى الشئون الدينية ، وخاصة فى الاستدلال على وجود الخالق جل وعلا حيث جاءت الآيات الكثيرة فى القرآن الكريم تدعو الى الايمان بالله ايمانا يرتكز على العقل والفطرة ، وجعلت منهما سبيل المؤمنين فى تدعيم ايمانهم . وهذا يكفى للرد على ما ادعاه « الأب تيرى » ومن دار فى فلكه حين قال : « حرم النبى محمد صراحة أى استخدام للعقل فى المشكلة الدينية لأن وجود الله لا يمكن البرهنة عليه والاجتهاد فيه ، وانطلاق العقل ليس من التوجيهات الأساسية فى القرآن » . قال هذا فى محاضرات فى (الفلسفة الاسلامية والثقافية الفرنسية)(٨) .

---

(٨) عن كتاب (روح الدين الاسلامى) تأليف الاستاذ عفيف طبارة – الطبعة السادسة عشرة ص ٦٦ .

وهذا القول من الأب تيرى انما هو محض افتراء على رسول الله ﷺ وعلى القرآن الكريم . فقد امتلأ القرآن بالأدلة التى تدحض زعمه هذا ، ومن له صلة بالقرآن يعرف جيدا بطلان هذا الزعم . وسنسوق طرفا من هذه الأدلة كى يحكم القارىء المنصف على مدى روعة هذه الأدلة وقوتها ، ويعرف كيف أن الاسلام قد راعى تطور العقل البشرى الذى وصل فى عصرنا الحاضر الى الكشف عن العديد من الأسرار التى أودعها الله فى هذا الكون والتى تشهد بأن هناك خالقا حكيما « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

وما أجمل هذه الأبيات التى جادت بها قريحة الشاعر العظيم أبى العتاهية حين خالط الايمان شغاف قلبه فهاج وجدانه بها . اسمعه يقول :

ألا اننا كلنا بائد ... وأى بنى آدم خالد
وبدءهم كان من ربهم ... وكل الى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الاله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة ... وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

طريقة القرآن فى معرفة الله تعالى

لقد وجه القرآن الكريم الدعوة الى الانسان ودفعه دفعا قويا الى توجيه نظره الى خلق هذا الكون ، بما ورد فيه من الآيات التى تدعو الى التفكر فيما حواه من أسرار حتى يقوى ايمانه ، ويبعد عن نفسه ما قد يساورهما من شكوك .

ولنستمع معا الى قول الخالق عز وجل : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (٩) . ويقول عز من قائل : أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والآرض

---

(٩) سورة يونس : ١٠١ .

وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) (١٠) .

فالقرآن – من خلال هاتين الآيتين – يقول فى وضوح أنه اذا استمر الالحاد بعد النظر فى هذا الكون ، وما حواه من حكم وأسرار تبهر النظر عند التأمل فيها وتدل على وجود الخالق ، فليست هناك أدلة أقوى من هذه ، وبالتالى فلن يؤثر فى الملاحدة الجاحدين اى دليل آخر . والمؤمنون هم الذين يستدلون على وجود الله بخلق هذا الكون . وفى هذا يقول الله تعـــالى : (ان فى الســـموات والأرض لآيـــات للمؤمنين) (١١) ، ويقول : (خلق الله السموات والأرض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين) (١٢ واذا كان لنا أن نستشهد – فى هـــذا المجال – بأقوال العلماء من غير المسلمين فاننا نسوق طرفا مما قاله الدكتور (ماريت ستانلى كونجدن) عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية ، انه يقول : (ان جميع ما فى الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته ، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية فاننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادى الله وعظمته) (١٣) .

ان الايمان بالله تعالى على هذه الصورة الرائعة هو الذى يميز بين الاسلام وبين المذاهب المادية والطبيعية الملحدة تلك التى لا تعترف بما وراء المادة ، والتى لا تعترف بغير المحسوس .

وقد عرفت البشرية وما تزال مجتمعات تقوم على عدم الاعتراف بالله ، لذا فقد كان من الضرورى أن نعرض هنا بالعقل والمنطق لموضوع الايمان بالله مستنيرين بما جاء فى هذا الشأن من النصوص الشرعية ، حتى يكون المجتمع الاسـلامى أقدر على مجابهة هـذه المذاهب الملحدة .

---

(١٠) سورة الأعراف : ١٨٥ .

(١١) سورة الجاثية : ٣ .

(١٢) سورة العنكبوت : ٤٤ .

(١٣) انظر كتاب : (الله يتجلى فى عصر العلم) ، ص ٢٢ ، تأليف جون كلوفر مونسما ، ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

اضف الى ذلك أننا نعرف بعض الأديان التى تؤمن بوجود قوى أسمى من قوة الانسان ، لكنها تشرك مع الله اله آخر ، أو اثنين فالديانات الفارسية تقول بوجود الهين : أحدهما يختص بالخير ، والآخر يختص بالشر ، والنصرانية التى نعرفها عن طريق الكنيسة تقول بالتثليث ، أى بوجود ثلاثة آلهة هى : الأب ، والابن ، وروح القدس .

كما أن هناك أديانا تؤمن بوجود اله واحد لكنها تجسم هذا الاله وتجسده وتجعله شبيها للانسان كالديانة اليهودية .

أما الاسـلام فانه يعتمـد على الايمـان باله واحد ويجعـل كل مؤمن يعتقد اعتقادا جازما فى هذا الاله الواحد الذى لا تدركه حواس البشر (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وهذا الاله الواحد هو الذى خلق الكون وما فيه ومن فيه وجعـله مسخرا للانسان بما كرمه به من عقل ، وأمره كما أمر الكون جميعا بعبادته والخضوع له فى كل شئونه وأحواله (وان من شىء الا يسبح بحمده) هذا هو أساس الايمان بالله فى دين الاسلام .

ان معرفة الله تعالى : اما أن تتوجه الى حقيقة الله واما أن تتوجه الى حقيقة الله واما ان تتوجه الى آثاره ومخلوقاته . أما المعرفة الأولى فمستحيلة ، لأن وسائل الانسان للتعرف على الأشياء قاصرة عن التعرف على حقيقة الله تعالى لأن الانسان يتعرف على الحقائق بحواسه وعقله ، وبالملاحظة والتجربة ، وكل ذلك قاصر عن بلوغ معرفة حقيقة ذاته تعالى . واذا لم تستطع حواسنا بلوغ ذلك فليس معنى هذا انكار وجوده ، لاننا لم نكن نعرف عوالم كثيرة كعالم الافلاك أو عالم الجراثيم مثلا مع أنها موجودة ولم يمنع جهلنا بها أن تكون موجودة وأن يترتب على وجودها نتائج كثيرة .

وهكذا الأمر فى معرفتنا للـــــه تعالى ، فاننا اذا لم نعرفه بحواسنا ، ولم ندرك ذاته فان آثاره قائمة فى كل مجال ، وان شيئا من التأمل فيها ليقودنا حتما الى معرفة ذلك والايمان به .

وإذا كانت هنـــاك – فى مجال معرفة اللـــه تعالى – طرقا فلسفية ، وأخرى كلامية لا يعنينا البحث فيهما الآن ، فان الذى يعنينا هنا الطريقة التى وجهنا القرآن الكريم اليها فى معرفة الله تعالى واثبات وجوده وهى الطريقة الصحيحة فى هذا المجال . حيث وجه القرآن أذهان الناس وحواسهم ، وذلك بالتأكيد على النظر فى الكون وما فيه من ابداع فى الخلق والتنظيم معتمدا فى ذلك كله – كما سبق – على الفطرة السليمة ، الفطرة الانسانية التى تستشعر الضعف أمام القوة الهائلة التى تشهدها أو تحسها فى الطبيعة . وقد تكون هذه الفطرة نائمة فتستيقظ على ضرر يصيب المرء ، أو منفعة كبيرة تحصل له ، أو تغيرا خطيرا يراه فى الطبيعة ، أو تأمل واع لمخلوقات الله فى الكون . ولنستمع معا الى القرآن وهو ينبهنا على هذا المعنى فيقول عز من قائل : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (١٤) .

ويخاطب القرآن هذه الفطرة منبها لها فيقول : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) (١٥) ، ويقول أيضا : (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا او قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) (١٦) .

هذه الفطرة السليمة هى التى تتوجه الى الكون بروح منفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وابداع فتؤمن بأن من ورائه مبدعا خالقا عظيما . وقد بين القرآن هذا الذى يحدث بقوله سبحانه : (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) (١٧) وبقوله : (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من

---

(١٤) سورة الروم : ٣٠ .
(١٥) سورة الطور : ٣٥ – ٣٦ .
(١٦) سورة يونس : ١٢ .
(١٧) سورة آل عمران : ١٩٠ .

السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (١٨) ، ويقول عز من قائل : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون) (١٩) ٠

فالليل والنهار والشمس والقمر آيات على وجود الله ، لأن اختلاف الليل والنهار هو من تأثير دوران الأرض حول نفســـها ، وهذا الدوران من الآيات الباهرة التى تدل على وجود الله ، وذلك لما يتراءى للناظر من الدقة فى دورانها بحيث لا تخطىء ثانية من الثوانى ٠

ان ساعة من معدن تزن جرامات معدودة تدور فتخطىء فى اليوم بضع ثوان ومع ذلك نقول عنها : ما اضبطها ٠ فما بالكم لو قيس أمر هذه الســـاعة بهذه الكرة الأرضية التى جرمها ملايين ملايين الملايين من الأطنان تدور فلا تخطىء حتى ولا أعشار ثوان ٠ ولولا هذا الدوران المنتظم لفرغت البحار والمحيطات من مائها ، ولو دارت الأرض أسرع مما تدور لتناثرت المنازل وتفكك ما على الأرض ، ولو دارت الأرض ابطأ مما تدور لهلك من عليها من حر ومن برد (٢٠) ٠

ان القرآن الكريم يشير الى دقة دوران الأرض حين يقول : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء ٠٠٠) (٢١) ٠

فالله سبحانه يصور لنا فى هذه الآية حركة الأرض ودورانها

---

(١٨) سورة البقرة : ١٦٤ ٠
(١٩) سورة فصلت : ٣٧ ٠
(٢٠) انظر كتاب : (روح الدين الاسلامى) ، عفيف طبارة ، ص ٧٠ ، وانظر كتاب : (مع الله فى السماء) للدكتور أحمد زكى ٠
(٢١) سورة النمل : ٨٨ ٠

بمرور الجبال التى هى ابرز ما على الأرض وهذا يستتبع دوران الكرة الأرضية لأن الجبال ملتصقة بها .

كما بين لنا القرآن أن الشمس هى الآية الكبرى على وجود الله لأن الله سخرها لحيـــاة جميع الكائنات الأرضية ، فمن أين تأتى بوقودها ؟ ان كانت تنفق من مختزن فى باطنها اذن لانخفضت درجة حرارتها عاما بعد عام ومعنى هذا : أن عمر الشمس لن يمتد كثيرا . ولكن اذا نظرنا الى الماضى البعيد رأينا أن الشمس اعطت الأرض من الحرارة بمقدار لا يزيد ولا ينقص فى الحدود التى يعيش فيها النبات والحيوان والانسان ، لابد اذن من شىء يعطى للشمس من الحرارة ما تفقد منها ، ويستمر فى امدادها بمقدار معين لا يزيد فيحرق ، ولا ينقص فيجمد .

وها هو القمر ، سخره الله تعالى لنا لحساب الزمن ، وجعله منيرا فى الليل وما يستتبع ذلك من فائدة للكائنات الحية . ألا يدل هذا على وجود القصد والارادة الالهية من وراء خلقه ؟ (٢٢) .

أضف الى ذلك أننا لو لاحظنا ملاحظة علمية متدبرة عــالم الفلك وما فيه من نجوم تدور حول نفسها ، أو سيارة حول غيرها ، وقدرنا عدد هذه النجوم وأحجامها وأبعادها لاستطعنا أن نفهم قوله تعالى : (فلا أقســم بمواقع النجوم . وانه لقســم لو تعلــمون عظيم) (٢٣) فأعداد النجوم تصل فى الضخامة الى حد لا يستطيع العقل البشرى أن يتصوره ، وأحجام النجوم هائلة جدا لا تستطيع مقاييسنا التى نستعملها فى كوكبنا الأرضى أن تحيط بها ، وان مقارنة سريعة بين حجم الأرض وحجم افلاك اخرى كالشمس والجوزاء - وهى تتجاوز حجم الأرض بملايين المرات - لتدل على صدق ما نقول . أما أبعاد النجوم والمســـــافات التى تفصل فيما بينها فانها تصل من العظمة الى حد لا نستطيع أن نقدره الا بوحدة قياسية جديدة تتناسب مع ضخامة هذه الأبعاد .

---

(٢٢) روح الدين الاسلامى ، ص ٧٠ - ٧١ .
(٢٣) سورة الواقعة : ٧٥ - ٧٦ .

فقد اصطلح على أن تكون الثانية الضوئية ـ أى المســافة التى يقطعها الضوء فى ثانية واحدة ـ وحدة القياس فى ابعاد النجوم ، واذا علمنا أن الضوء يقطع فى ثانية واحدة (١٨٦) الف ميل ، وعلمنا ان البعد بين بعض النجوم يصل الى ملايين السنين الضوئية ، فاننا ندرك مقدار ضخامة هذا الكون وعظمته أليس هذا من أقوى البراهين على بطلان مزاعــم الماديين الذين يزعمون ان الكون وجــــد اتفاقا وصدفة ؟

يقول العلامة ا٠ كريسى موريسون : (ان استعراض عجائب الطبيعة ليدل دلالة قاطعة على أن هناك تصميما وقصدا فى كل شىء وان ثمة برنامجا ينفذ بحذافيره طبقا لمشيئة الخالق عز وجل) (٢٤)٠

تأمل هذا واستمع الى ما يقوله العلم فى هذا الشأن : ان العلم يقول : ان الأرض كرة معلقة فى الفضاء تدور حول نفسها فيكون فى ذلك تتابع الليل والنهار ، وبالتالى فان دوران الأرض له تأثير على تحركات الرياح التى بدورها تنقل بخار الماء من المحيطات الى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف ويتحول الى مطر ، والمطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض جرداء خالية من كل أثر للحياة ، هذا بالاضافة الى ما وضعه الله فى التربة من العناصر التى يمتصها النبات ويتمثلها ويحولها الى أنواع مختلفة من الغذاء يفتقر اليها الحيوان وهكذا ٠

هذه حقائق علمية عن سر الحياة على هــذه الأرض تبين فى جلاء وجود التصميم فى الطبيعة والعلاقة المنتظمة بين عناصرها بعد ان تبين لنــا وجود التصميم فى عالم الســماء ٠ وهى دلائل واضحة على وجوده سبحانه وتعالى يمكن لكل عامل عند التأمل ان يدركها كما هو مطلوب فى هذه الآيــة : (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى ٠٠٠٠٠٠٠ لآيات لقوم يعقلون) ٠

---

(٢٤) نقلاعن كتاب : (الانسان لا يقوم وحده) ، ترجمة الأستاذ محمد صالح الفلكى ، تحت عنوان : (العلم يدعو الى الايمان) ، ص ١٨٦ ٠

واذا انتقلنا الى الحياة فى الكائنات الحية واختلافها عن بعضها ، وأجناسها واشكالها المتعددة ، فاننا نضيف الى معرفتنا باعجاز الخالق معرفة جديدة كما يمكن لنا ان نتصور معنى الآية الكريمة التى يقول الله تعالى فيها :

(ان الله فالق الحب والنـوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون) (٢٥) فالحيـوانات التى لا يقع لعدد اجناسها حصر ، والتى تخرج من النطفة ، واشكال النبات التى لا يتصور عددها ، والتى تخرج من ارض واحدة ، وتسقى بماء واحد ، كل ذلك دليل واضح على التدبير والقصد والنظام فى هـذا الخلق . وصدق الله القائل : (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) (٢٦) .

واذا كان لنا أن نلخص ما قاله العلم فى هذا الشأن فانا نقول : ان الكائنات الحية ـ من أبسط انواعها الى أعقد مخلوقاتها ـ تتكون من وحدات أساسية هى (الخلايا) والخلية هى الوحدة المتناهية فى الصغر التى تحتوى على مادة الحياة ، وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حى كبيرا كان ام صغيرا ، وتؤدى كل خليـة وظائفها الحيوية العديدة بدرجة من الدقـة يتضاءل بجانبها اقصى ما وصل اليه الانسان من مهارة فى صناعة الساعات الدقيقة . ومادة الحياة التى تحتوى عليها الخلية هى التى يطلق عليها علميـا اسم (البروتوبلازم) .

يقول الدكتور (وليم سيفرتيز) فى تعريف هـذه المـادة : (ان المـادة الحيـة المعروفـة باسم البروتوبلازم هى خليط معقـد جـدا من المـاء والأملاح والسكريات والدهون والبروتينات . وفى هذه المـادة الحية غير المتجانسة تحدث تلك العمليات التى تؤلف فى مجموعها الحياة . وتتألف كل النباتات والحيوانات من البروتوبلازم .

---

(٢٥) سورة الأنعام : ٩٥ .
(٢٦) سورة الرعد : ٤ .

وبرتوبلازم النباتات والحيوانات واحد تقريبا لكنه ليس نفس الشىء تماما وهذه الفروق أساسية وحيوية ، والا لما نمت بيضة الضفدعة فصارت ضفدعة ... وهذه الفروق كبيرة ولكنها مخفية عنا . فمن ابرز الحقائق فى علم الحياة أن كل انواع البرتوربلازم مهما كان مصدرها خافية تبدو متشـــابهة الى حـد كبير وتشـبه بياض البيضـة وفيـه نقط دقيقـــة منتشرة (٢٧) .

ونحن من جانبنا نقول تعليقا على هذا القول : من الذى أوجد تلك المادة الحية فى الكائنات ؟ ثم من الذى قدر وأوجد تلك القوانين العـــديدة فى وراثة الصفات وفى نمو النبـات ؟ ثم من أين جاءت النباتات الأولى ؟ وان شئت فقل : كيف خلق النبات الأول ؟

اننا لا نستطيع أن نصل بعقلنا ومنطقنا السـليم الى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها ، أو نشأت هكذا بمحض المصادفة . ولابد لنا من البحث عن خالق مبدع ويعتبر التسليم بوجود الخالق المبدع أمرا بديهيا تفرضه علينا عقولنا .

أما الانسان : فانه أكثر هذه الكائنات اعجازا فى الخلق ، ومن اكثرها دلالة على قدرة الله تعالى ووجوده ، يقول الله تعالى : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) (٢٨) .

ان الدلائل على وجود الله فى الأنفس أكثر من أن تحصى ، وكلما اتسع نطاق العلم تضافرت الأدلة على أن لهذا الانسان البديع الصنع الها قادرا حكيما (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) والا فأى ناحية فى الانسان ليست مثار دهشة وعجب ؟ فأطواره فى الرحم آيـة من من آيات الله ، وخلق الأنثى بجانب الذكر آية على وجود الله ، وهكذا

---

(٢٧) أنظر : (روح الدين الاسلامى) ص ٧٤ ، وانظر كتاب (العلم يزحف) تأليف جيمس استوكلى ، ترجمة الدكتور محمد الشحات .

(٢٨) سورة الروم : ٢٠ .

ولو اننا حاولنا التعرف على طبيعة اختلاف التكوين الجسمى والجنسى وسبب تنوع الاستعدادات الوراثية والمكتسبة فيه لوجدنا انها تعود - كما يقول العلم - الى الخلايا الجينية وهى التى تحدد ما نراه فى البشر من أجناس مختلفة والوان متعددة وفروق كثيرة . والى هـذا يشير القرآن الكريم بقوله : (وفى انفسكم افلا تبصرون) . ويقول عز من قائل : (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) (٢٩) .

وهذه الآيات وغيرها كثير دعانا فيها القرآن الكريم الى أن نتأمل انفسنا وما حولنا من عجائب الكون واسراره ، وكلها تلفتنا الى ان الله قد خلق السموات بغير عمد ، وسخر الشمس والقمر لمنافع الخلق ، وخلق الأرض صالحة للاستقرار عليها ، وخلق الجبال لتثبيت الأرض ، وخلق الأنهار لتسقى الزرع والحيوان والانسان (وجعلنا من المـاء كل شىء حى) وأنه سبحانه خلق من كل زوجين اثنين وأنه عاقب بين الليل والنهار وجعل فى الأرض بقاعا متلاصقة مع اختلافها فى الطبيعة والخواص وأنه خلق أنواع الحبوب المختلفة للغذاء كما خلق النخيل صنوانا وغير صنوان وجميعها تسقى بماء واحد لا تفاوت فيه ومع ذلك تختلف الثمار والحبوب فى اللون والطعم والرائحة والشكل والخواص .

اقرأ معى قول الله تبارك وتعالى - فى سورة النبأ ٦ - ١٦ - : (الم نجعل الأرض مهادا) (٣٠) والجبال أوتادا (٣١) وخلقناكم

---

(٢٩) سورة المؤمنون : ٧٨ .

(٣٠) مهادا : فراشا موطأ كالمهد لتمكينكم من الاستقرار عليها والتقلب فى أنحائها والانتفاع بما أودعناهلكم فيها .

(٣١) أى كالأوتاد للأرض فأرسيناها بالجبال لئلا تميد وتضطرب كما يرسى البيت بالأوتاد لئلا تعصف به الرياح - جمع وتد - بفتح التاء وكسرها .

ازواجا (٣٢) وجعلنا نومكم سباتا (٣٣) وجعلنا الليل لباسا (٣٤) وجعلنا النهار معاشا (٣٥) وبنينا فوقكم سبعا شدادا (٣٦) وجعلنا سراجا (٣٧) وهاجـــا (٣٨) وأنزلنـــا من المعصرات (٣٩) ماء ثجاجا (٤٠) لنخرج به حبا ونباتا ٠٠ وجنات الفافا (٤١) ٠

واقرأ من سورة الواقعة من ٥٦ ـ ٧٤ : (نحن خلقناكم فلولا تصـــدقون أفرأيتم ما تمنـون (٤٢) ـ أأنتم تخلقـونه أم نحـن الخالقون ٠٠ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين (٤٣) ، على ان نبدل امثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، افرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشـــاء لجعلنـــاه حطاما فظلتم تفكهون (٤٤) انـا

---

(٣٢) مزدوجين ذكر وأنثى ليأتى التناسل وحفظ النوع وتنظيمْ أمر المعاش أو أصنافا فى اللون والصورة ، واللغة ، والقوى ، والمواهب ، والطبائع لاقتضاء الحكمة هذا الاختلاف بين بنى الانسان ٠

(٣٣) أى قطعا لأعمالكم وهو اشارة الى ما قاله تعالى فى صفة الليـل (لتسكنوا فيه) لتستريحوا فيه من عناء العمل طول النهار ـ من السبت وهو القطع ٠ يقال : سبت الشىء أى قطعه ٠ وسبت شعره أى حلقه ٠ ويمكن أن يكون معناه : وجعلنا نومكم خفيفا غير ممتد حتى لا يختل أمر معاشكم ٠ فيكون من السبت بمعنى السكون والراحة ٠

(٣٤) سترا لكم بما يغشاكم من ظلمته كما يغشى اللباس لابسه ويستره ٠

(٣٥) وقت معاش لكم تتقلبون فيه لتحصيل ما تعيشون به ٠

(٣٦) سبع سموات قويات محكمات لا يتطرق اليهن فطور ولا شقوق على مر الدهور الى أن يأتى أمر الله ٠

(٣٧) مصباحا زاهرا مضيئا وهو الشمس ٠

(٣٨) من الوهج والحرارة من بعيـد ـ ومنه توهجت النار وتوقدت الشمس ـ جامعة بين الاضاءة والحرارة ٠

(٣٩) السحائب التى آن لها أن تمطر لامتلائها بالماء ٠

(٤٠) أى منصبا بكثرة يقال : ثج الماء من باب رد اذا انصب بكثرة ٠

(٤١) بساتين ملتفة الشجر لتقارب أغصانها ٠

(٤٢) يقال : أمنى النطفة ومناها : أى قذفها ٠

(٤٣) أى بمغلوبين ومعناه : لسنا عاجزين عن اهلاككم ٠

(٤٤) أصل التفكه التنقل بصنوف الفاكهة ثم استعير للتنقل بالحديث وهو ها هنا ما يكون بعد هلاك الزرع ٠

لمغرمون ، بل نحن محرمون ، افرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم انزلتمـــوه من المزن (٤٥) أم نحن المنزلون ، لو نشـــاء جعلناه اجاجا (٤٦) فلولا تشكرون أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم) .

يسوق الله تبارك وتعالى فى هذه الآيات البينات دلائل على خلقه وقدرته : أربعة أدلة يسوقها لذوى العقول فيقول :

أخبرونى ؟ ما تقذفون من النطف فى الأرحام ؟ أأنتم تقدرونه وتصورونه بشرا سويا بل أنحن لا غيرنا المقدرون المصورون له .

أخبرونى ؟ البذر الذى تلقونه فى الأرض : أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يشتد ويقوم على ساقه ، بل أنحن المنبتون له ؟

اخبرونى ؟ الماء الذى تشربونه أأنتم انزلتموه من السحاب أم نحن الذين أنزلناه - لو نشاء لجعلناه ملحا زعاقا لا يطاق لشـدة مرارته ، افلا تشكرون الله على نعمه بتوحيده والاقرار بما يجب له من كمال ؟

اخبرونى ؟ النار التى تستخرجونها من الشجر الرطب - أأنتم خلقتم شجرتها بل أنحن الخالقون لها بقدرتنا ؟ .. نحن جعلنا لكم تذكرة لنار جهنم لتعتبروا وجعلناها منفعة للمحتاجين ينتفعون بها فى سفرهم واقامتهم وسائر شئونهم فنزهوا ربكم عما يقوله الجاحدون لوجوده جلت قدرته .

واقرأ معى قوله تعالى فى سورة البقـــرة آية ١٦٣ - ١٦٤ : (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها

---

(٤٥) المزن : السحاب .
(٤٦) ملحا : زعاقا .

وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

لما نزلت الآية الأولى (والهكم اله واحد ...) قال المشركون ، ـ ولهم حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما ـ كيف يسع الناس اله واحد ؟ وما الحجة والبرهان على أن ذلك كذلك ؟ فأنزل الله عند ذلك : (ان فى خلق السموات والأرض ...) الخ احتجاجا لنبيه ﷺ على المشركين بما يقنعهم بأنه سبحانه واحد فى ذاته لا قسيم له . واحد فى صفاته لا شبيه له ـ واحد فى أفعاله لا شريك له : لكن : لمن ؟ لمن يعقل مواضع الحجج ويفهم عن الله أدلة وحدانيته ـ فهذه الحجج التى ساقها سبحانه من خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار الى آخر ما ساق فى هذه الآية الكريمة انما وضعت معتبرا لذوى العقول والتمييز دون غيرهم من المكابرين الجاحدين (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) فالذين يؤمنون بآيات الله لا يسعهم الا أن يخروا لها سجدا حين يرفعون بصرهم الى السماء ويتأملون ما فيها من نجوم وكواكب ـ أو حين ينظرون الى الأرض وما تخرجه لنا من حبوب وفواكه أو حين ينظرون الى تقليب الرياح شمالا وجنوبا ودبورا حارة وباردة ـ عاصفة ولينة : بالرحمة تارة وبالعذاب أخرى ـ وما أشد ما سحرت هذه الآيات ملوك البيان والوجد فاستمع الى صاحب ذوق يقول :

أشـــتاقه فاذا أبـــدا أطرقت من اجـــلاله
لا خيفـة بل هيبـــة وصيانة لجمالـــــه
فالموت فى ادبـــــاره والعيش فى اقبالـــه
واصد عنـــه اذا بـــدا واروم طيف خيالـــه

ولما كان ذكر الالهية والفردانية يفيد القهر والتجبر ويفيد الغلبة والعلو عقبهما ربنا بذكر الرحمن الرحيم ترويحـا للقلوب واشـــعارا للنفوس بأنه ما خلقنا الا لرحمته واحسانه . (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) (سورة الملك : ١) .

ان سنة الله مسطرة فى كتاب الطبيعة الأكبر وهو كتاب منشور للعالمين ، فاقرأه بقلب واع فانه لا يضل من قرأه بتأمل المفكرين .

اقرا معى قوله تعالى فى سورة نوح آية ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا) .

سبحانك ربى تخلق من تراب حياة ومن الحيـــاة ترابا ... (والله انبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا) أجيال تخفى وأجيال تظهر وهكذا طوفان الحياة لابد فيه من هدم يتبعه بناء ومن بناء يتبعه هدم ـ كل يدور مع عجلة الزمان ـ ثم تسقطه العجلة من حسابها ويتعلق بها من يشاء الله وهكذا تدور العجلة فتلقى كل يوم بما تلقى ليتعلق بها غيرهم ، يختفى جوهر الحياة من كل كائن حى فيعود الى الأرض حطاما ثم يخرجنا ربى اخراجا ، وهكذا كل يســـير على أسس رسمتها لنا روعة الحياة وتبارك الله احســـن الخالقين : يخلق من التراب حياة ومن الحياة ترابا (ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا) ؟ .

اقرأ فى سورة النحل آية ٧٩ : (الم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أرأيت كيف كون الله الطير تكوينا جعله وثيق الصلة بخاصية الطيران وحياة الهواء ؟ أرأيت كيف زود الله اجسام الطير بأجهزة بها يستطيع الطيران فيميزها بأوعية دموية خاصة تحول دون ما عســـاه يحصل بسبب كثرة الحركة الى مختلف الجهات فى جو السماء ؟ ان فى ذلك لايات لقوم يؤمنون .

اترك الطير فى جو السماء ثم انظر الى الماء فاقرا فى سورةالملك آية ٣٠ : (قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟) أرأيت ان ذهب منا فى الأرض الماء بحيث لا تناله الدلاء فمن يخرجه يجرى على وجه الأرض لنشرب ونتطهر ونسقى الزرع والنبات والشجر .

قالوا فى الحكايات ذات المغزى : ان هذه الآية الكريمة قرئت عند بعض المتجبرين فى الأرض فقال تأتينا به الفأس والمكتل فذهب ماء عينه فجاءت معجزة ٠

ان القرآن الكريم حين يذكر لك هذه الآيات البينات ويطلب منك أن تنظر اليها وأن تفكر فيها انما يريد منك أن تفتح لعقلك نوافذ تطهر بها حناياه من وسواس الفتان الشيطان الرجيم فلا تجعل مع الله اله آخر فتقعد مذموما مخذولا ٠

واقرأ فى سورة الأنعام آية ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ : (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم (٤٧) الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون)٠

واقرأ فى سورة الأنعام أيضا : وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا (٤٨) له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) ٠

واقرأ فى سورة الاسراء آيــة ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ : (قل لو كان معه آلهه كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا ، أسمعت تسبيح غير العقلاء ؟

تسبيح العقلاء بلسان المقال ، وتسبيح غيرهم بلسان الحال وهو دلالتهــا بامكانها وحدوثها وتغير شئونها وبديع صنعهــا على وجود مبدعها ووحدته وقدرته وتنزهه عن لوازم الامكان ــ كما ــ يدل الأثر

---

(٤٧) الفتنة من الفتن وهو ادخال الذهب النار لتعلم جودته من رداءته ، ثم استعمل فى معان : كالمعذرة والاختبار والكفر والاثم والضلال والبلبلة والمصيبة أى : ان لم تكن مقدرتهم عن كفرهم الا التبرى عن الشرك والشركاء فى ذلك اليوم فقد كذبوا فى الآخرة كما اعتادوا الكذب فى الدنيا ٠

(٤٨) أى اختلقوا وافتروا له بنين وبنات ٠

على المؤثر ... ودلالة الحال هذه لا يفقهها الا ، ذو البصائر ، الذين نور الله أذهانهم بنور الايمان وفتح عقولهم بمفتاح المعرفة (٤٩) .

واقرأ فى سورة الأنعام آيــة ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ : (وعنده مفاتيح الغيب (٥٠) . لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين) .

وهو الذى يتوفاكم (٥١) بالليل ويعلم ما جرحتم (٥٢) بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون .

وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظه حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون .

ثم ردوا الى الله مولاهم الحق — الا له الحكم وهو اسرع ... الحاسبين — قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا (٥٣) وخفية لئن انجانا من هذه لنوكنن من الشاكرين .

قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ، قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو

---

(٤٩) مفتاح جمع مفتح كمنبر وهو آلة الفتح وتسمى المفتاح — أو — جمع مفتح كمسجد وهو الخزانة التى تحفظ فيها الأشياء .

(٥٠) الغيب ما استأثر الله بعلمه وهو مجاز عن علمه تعالى كل شىء ما غاب وما لم يغب — والمراد أنه صاحب القدرة الكاملة على كل الممكنات .

(٥١) أصل التوفى أخذ الشىء وافيا يقال : توفيت الشىء واستوفيته بمعنى وهو كقوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ...) فهو سبحانه يقبض أرواحنا ليلا ثم يرسلها .

(٥٢) ما كسبتم بجوارحكم من الخير والشر .

(٥٣) معلنين الضراعة والذلة ومسرين فى أنفسكم اياها .

يلبسكم (٥٤) شيعا ويذيق بعضكم (٥٥) بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون .

أرأيت قدرة الله الكاملة فى علم ما غاب علمه عن خلقه ... فلم يطلعوا عليه ولم يدركوه : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو) يقول ابن عباس رضى الله عنه : هن خمس : « ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (٥٦) ويعلم تبارك وتعالى جميع ما يعلمه كل الناس لا يخفى عليه شىء : ذكر سبحانه ما تشاهد بالحس أحواله وكثرة ما فيه من المدن ، والقرى ، والجبال ، والتلال ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان ، وذكر سبحانه ما أحاطه الحس بأحواله مع كثرة ما فيه من العجائب والغرائب والحقائق التى لا يعلمها الا هو فانظر الى كمال علمه تبارك وتعالى : لا تسقط ورقة فى الصحارى والبرارى ولا رطب ولا يابس الا فى مكتوب مرسوم عدده ومبلغه والوقت الذى يوجد فيه ، والحال التى يفنى فيها .

وانظر كيف يعطل الله تبارك وتعالى حواسك عن بعض الأعمال أثناء النوم ، وكيف يعلم ما تعلمه يدك ، أو تكسبه رجلك أو يقوله فمك فى السر والعلن ، وكيف يرسل عليك حفظة يحفظون عليك عملك ، ورزقك ، وأجلك الى أن ينزل الله أمره ، وكيف ينجيك من كرب البر والبحر ومن هم الضلال وخوف الهلاك وعذاب السماء وخسف الأرض .

ان الآيات الدالة على كمال قدرة الله تبارك وتعالى كثيرة لا

---

(٥٤) يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء كل فرقة تتبع اماما .. وشيعا جمع شيعة وهم الأتباع والأنصار وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة .

(٥٥) يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل ، والبأس الشديد وهذا ما ابتلى الناس به فى سائر العصور .

(٥٦) سورة لقمان : ٣٤ .

تخفى على من له قلب فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ٠

ان أكثر ما دعا اليه القرآن الكريم هو النظر والتفكير فى خلق الله وصنعه فان ذلك مما يوجب الاعتراف القلبى بأن هذا الكون المنسق البديع المترابط السائر بحكم نظام واحد لا يعتريه انتكاس ولا خلل انما هو من خالق ، مدبر ، مهيمن ٠٠ متصرف فيه بالقدرة النافذة ، والحكمة البالغة ، والعلم الشامل ، وعجيب أمر الانسان انه يقتتل من اجل الدين ، ويدعو اليه ويضحى بحياته فى سبيله ، لكنه لا يتبعه عملا ، وقانون الله فى خلقه انه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ولنا فى رسول الله اسوة حسنة فكانت سيرته ﷺ تفسيرا بليغا للقرآن الكريم ٠٠ وكان يذوب عندما يدعوه ربه الى التفكير فى هذا الكون وفيما فيه من آيات دالة على كمال قدرته تبارك وتعالى : جاءه مرة بلال يؤذنه بصلاة الصبح فرآه يبكى فسأله عن سبب بكائه فقال : « ويحك يا بلال وما يمنعنى ان ابكى وقد أنزل الله على هذه الليلة (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ٠٠٠ أو تفكر ؟ وكيف تفكر ؟ روحك كليمك عندما تفكر فكن روحا : وقلبك قطبك عندما تدور عليه فى أرجاء السموات والأرض فكن قطبا ٠ وعقلك هامانك عندما يفكر فلا تكن من المتجبرين ونفسك فرعونك عندما تشتهى فلا تكن من الغافلين : فكن روحا يشف حتى يخف لرحلة فى عالم الاستدلال لتحصيل ربح المؤمنين ٠٠ ويغوص فى بحر الفكر ليعود بجوهر اليقين ٠ فتدرك عناية رب العالمين : كن روحا وكن قطبا ، واحذر عقلك أن ينحرف ، عن الايمان بالغيب ، فكتابنا الذى لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب : عقل الانسان فى كون ربى أشبه بذبابة على جبل لا ترى الا فى حيز ضيق محدود — أما باقى الجبل من هنا ومن هناك فلا تراه وعلمه عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » ٠

والعجز عن ادراك حقيقة الذات الأقدس مدبر الكون بذلك النظام الثابت — المطرد : العجز عن ادراك حقيقته عقيدة من عقائد الايمان بالله وبرهان على سمو الألوهية ، وليس فى ذلك حط من قيمة الانسان

ولا تنقيص من كرامة العقل مادام ذلك الهدى من الدين ، وذلك مصداق قوله ﷺ : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

قال المشركون مرة للنبى ﷺ : انسب لنا ربك فأنزل الله تبارك وتعالى : (قل : هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحـــد) ، وفى رواية قالوا صف لنا ربك « أزبرجد هو أم ياقوت » ، « أم ذهب أم فضة » قال ﷺ : ان ربى ليس من شىء لأنه خلق الأشياء فنزلت : قل هو الله احد ، فقالوا : هو واحد وانت واحد ، فقال : ليس كمثله شىء ، قالوا : زدنا من الصفة قال : الله الصمد فقالوا وما الصمد ؟ قال الذى يصمد الخلق اليه فى الحوائج ، فقالوا :زدنا ، فقال : لم يلد كما ولدت مريم ، ولم يولد كما ولد عيسى ، ولم يكن له كفوا أحد أى نظيرا من خلقه ، ولشرف هذه السورة سميت بأسماء كثيرة أشهرها (الاخلاص) لأنها تخلص من الشر أو من النار ويقال لها (سورة الجمال) فمن كمالات الجميل كونه عديم النظير وهل لله تبارك وتعالى نظير ؟ ويقال لها : سورة الأساس لقوله ﷺ : اسست السموات السبع والأرضون السبع على « قل هو الله أحد » وهذا مصداق قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » فالتوحيد سبب عمارة العالم والتعدد سبب خرابه .

روى أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى عن بريدة رضى الله عنه قال : سمع النبى ﷺ رجلا يدعو وهو يقول : « اللهم انى اسألك بأنى اشهد بأنك أنت الله لا اله الا أنت ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه : انا نجد فى انفسنا ما يتعاظم احدنا أن يتكلم به قال : « أوجدتموه ؟ قالوا نعم ، قال : ذلك صريح الايمان » .

وعن ابن مسعود : قالوا : يا رسول الله « ان احدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممه ـ جذوة تلتهب ـ أو يخر من

السماء الى الأرض احب اليه من أن يتكلم به ، قال : ذلك محض الايمان » اى أصل الايمان ، وذلك يعنى أن عليك ان تؤمن بربك وقوانين ربك عن طريق العلم والتفكير لا عن طريق الجهل والتقليد .

وايماننا بالله تبارك وتعالى وطاعتنا له انما ذلك لمصلحتنا نحن لا يعود عليه سبحانه منه شيء : وفى الحديث القدسى : (يا عبادى لو أن أولكم ، وآخركم ، وانسكم ، وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبدى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا) .

ومع كل هذا فالله تبارك وتعالى يفرح بتوبتنا ورجوعنا اليـه اكثر من فرحة الرجل عندما يجد ضالته الضائعة : روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لله اشد فرحا بتوبة احدكم من أحدكم بضالته اذا وجدها » .

وحدانية الله تعالى

قبل ان نشير الى دعوة الاسلام الى توحيد الله تعالى يجدر بنا أن نعطى لمحة سريعة عن عقائد العرب قبل الاسلام ليكون القارىء على بينة من الأمر .

قبل الاسلام كانت عبادة الأصنام منتشرة انتشارا واسعا فى جزيرة العرب ، وفى هذا يقول ابن الكلبى صاحب كتاب « الأصنام » : (كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه فاذا أراد احدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله ان يتمسح به واذا قدم من سفر كان أول ما يصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به أيضا) (٥٧) .

ويذكر المؤرخون فى مقدمة هذه الأصنام تلك التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم : سواع ، ويغوث ، ونثر ، وود ، ومناة ، واللات ، والعزى ... الخ .

ومن العرب من كان يعبد الأجرام السماوية لاسيما الشمس والقمر ، ومنهم من كان يعبد الملائكة والجن ، ومنهم من كان يعبد الأسلاف ، وفيما أمر به الرسول ﷺ العرب من تسوية قبورهم ونهيه عن اتخاذها مساجد ومواضع للصلاة دليل على أنهم كانوا يعبدون ارواح هذه القبور ويؤمنون بأثرها . أضف الى ذلك انهم كانوا يرون أن لها قدرة على الظهور للانسان بأشكال مختلفة وأنها قد تحل فى بعض الحيوانات ، ومن أجل ذلك ظهرت عقيدة التشاؤم والتفاءل والخوف من بعض الحيوانات .

ومن العرب طائفة أنكروا الخالق ، وهم الدهريون الذين أشار القرآن اليهم فى قوله تعالى : (وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) (٥٨) . الى جانب ذلك كان من العرب

---

(٥٧) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ٣٣ ، الطبعة الثانية .
(٥٨) سورة الجاثية : ٢٤ .

جماعة ليست من اليهود أو النصارى ، وهذه اعتقدت بوجود اله واحد عبدته وهم المعرفون باسم : الحنفاء ووصفوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، وتشير بعض الروايات الى أن من هؤلاء من قرأ الكتب السماوية وفهمها ، وأنهم ابتعدوا عن شرب الخمر والأعمال المنكرة .

وقبل الاسلام كانت توجد ديانات فى جزيرة العرب وهى المعروفة باسم : المجوسية والصابئة ، واليهودية والمسيحية . ـ أما المجوسية ـ فهى عبادة النار ، وقد تسربت هذه العبادة من الفرس .

وأما الصابئة : فهم صنفان صابئة حنفاء ، وصابئة مشركون ، والمشركون منهم هم عبدة الكواكب قيل : سموا بذلك (الصابئة) لخروجهم على دين قومهم ، ومحاولتهم أخذ ما يروقهم من كل دين .

ويتبين من القرآن الكريم ، ومن الشعر المنسوب الى الجاهلية انه كان من أهل مكة من يعتقد بوجود اله واحد خلق السموات والأرض ، ولكنهم مع ذلك كانوا مشركين لاعتقادهم بأن اللـه هو الذى شـاء فجعلهم مشركين ، وأن عبادتهم للأصنام وسيلة تقربهم الى الله .

وهؤلاء هم الذين ورد ذكرهم فيما حكاه اللـه عنهم بقوله : (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) .

ومن خلال هذا العرض الموجز نستطيع أن ندرك فى جلاء أن التوحيد عند الجاهلين قد خالطه الشرك ، حيث جعلوا لله شركاء وتقربوا الى الأصنام واعتبروا الملائكة بنات اللـه فجعلوا لله بنين وبنات ، واعتقدوا بالقربات والشفاعات .

وجاء الاسلام فحارب كل هذه المعتقدات الزائفة فطهر التوحيد من كل نوع من أنواع الشرك .

التوحيد فى الاسلام

أبطل الاسلام ـ الذى جاء فى صورته الكاملة على يد محمد ﷺ ـ ما كان عليه العرب من عبادة غير الله وقرر التوحيد المطلق لله فى الذات والصفات والتوجه له سبحانه بالعبادة وحده (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » (٥٩) ٠

وعلى هذا فالقاعدة الأولى فى الاسلام هى التوحيد الذى يجب أن يؤمن به قلب المسلم وينطق به لسانه ، وشهادة المؤمن بقوله : (لا اله الا الله) هى : اعترافه بلسانه مع اعتقاده بقلبه عن علم ويقين أن لا معبود بحق الا الله ، والشهادة بهذا هى الشـهادة بوجود الله تعالى وبوحدانيته ٠

أضف الى ذلك أن للعقائد سلطانا على الأعمال البدنية فما يكون فى الأعمال من صلاح أو فساد فانما مرجعه فساد العقيدة أو صلاحها ، فالتوحيد الخالص من الشوائب والصادر من القلب يتصف صاحبه بجميع الفضائل ويشعر بالحرية والاستقلال ، وأن لا سلطان لأحد عليه الا الله لأن كلمة التوحيد قد رسخت فى أعماقه : أن لا معبود ولا محى ولا مميت ولا رازق ولا نافع ولا ضار الا الله ، ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن دعاء غيره وذلك فى قوله تعالى : (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) (٦٠) ويأمر الله رسوله محمدا بأن يخاطب قومه بقوله : (قل افرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أم أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله ٠٠٠) (٦١) ٠

هذا وقد تحدى الله جل وعلا الكفار وبين عجز الآلهـــة التى يعبدونها وعجزهم هم من باب أولى عن أن يخلقوا أحقر المخلوقات

---

(٥٩) سورة البقرة : ١٦٣ ٠
(٦٠) سورة الأعراف : ١٩٤ ٠
(٦١) سورة الزمر : ٣٨ ٠

وهو الذباب فقال : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز) (٦٢) .

ويستشهد ابن كثير فى تفسيره للآيتين بالحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : قال الله عز وجل (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة) .

ويذكر ابن كثير أن الأصنام والأنداد التى يعبدها الكفار عاجزة عن خلق ذباب واحد ، بل عاجزة عن مقاومته والدفاع عن نفسها لو سلبها شيئا من الأشياء : قال تعالى : (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس : الطالب الصنم والمطلوب الذباب ، وقال السدى وغيره : الطالب العابد والمطلوب الصنم .

ثم ان المؤمن الموحد يستفيد من اعتقاده أن لا رازق الا الله صفة العفة والأنفة فلا يذل الا لله لأن الله سبحانه يقول : (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) (٦٣) .

كما يتصف بالشجاعة وعدم هيبة الموت لأن الذى يملكه هو الله وحده وبذلك ترتفع نفسه الى العزة والاستشهاد فى سبيل الله لأنه يؤمن بقول الحق تبارك وتعالى : (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا) (٦٤) .

ومن اجل ذلك حارب الاسلام كل انواع الشرك لأن تعدد الآلهة يجعل البشر عبيدا لتلك الآلهة المزعومة ، ويلقى عليهم من الأعباء ما هو فوق طاقتهم منتقديم النذور والقرابين الى غير ذلك ، ولذلك نرى القرآن الكريم يخاطب المشركين على لسان يوسف عليه السلام

---

(٦٢) سورة الحج : ٧٣ - ٧٤ .
(٦٣) سورة العنكبوت : ٦٢ .
(٦٤) سورة آل عمران : ١٤٥ .

قائلا : (الارباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه) (٦٥) ٠

وعند التأمل فى الكون وما حواه من النظام والدقة ووحدة الهدف الذى يجمع بين اجزائه يجد الانسان نفسه منساقا الى الايمان بوحدانية الله تعالى ويشعر بهذه الحقيقة الرائعة التى نطق بها القرآن الكريم فى قوله تعالى : (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ، لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما تصفون) (٦٦) ٠

يقول الشيخ محمد عبده فى (رسالة التوحيد) فى كلامه حول هذه الآية وذلك حين يفترض تعدد الآلهة والنتيجة المترتبة على ذلك : (لتخالفت (أى الآلهة) علومهم وارادتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل ان يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لأن وجود كل ممكن لابد ان يتعلق به الايجاد حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم ان يكون للشىء وجودات متعددة وهو محال لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شانه وهو الله واحد فى ذاته وصفاته لا شريك له فى وجوده ولا فى افعاله) ٠

والقرآن الكريم لم يقف عند بيان ان الفساد يعترى الكون من جراء تعدد الآلهة فحسب بل يأتى بما يصف بعض مظاهر هذا الفساد وصفا يفحم كل مكابر ويرتفع بالانسان الى أعلى مراتب الاقناع وذلك حين يقول : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) (٦٧) ٠

هذا قول مجمل فى عقيدة الألوهية أو الايمان بوجود الله

(٦٥) سورة يوسف : ٣٩ ـ ٤٠ ٠
(٦٦) سورة الأنبياء : ٢١ ، ٢٢ ٠
(٦٧) سورة المؤمنون : ٩١ ٠

تعالى وبوحدانيته ، بقى علينا لكى يتم المراد ان نعرض بانجاز لمسألة صفات الله تعالى .

مسألة صفات الله تعالى

لا نريد هنا أن نتناول صفات الله تعالى من الناحية الكلاميـة البحتة ولا ان نعرضها بالطريقة التى عرضها بها علماء الكلام وما تبع ذلك من خلافات بين الفرق الكلامية فلذلك مكانه من كتب علم الكلام . وانما نريد ان نعرض مسألة الصفات بصورة واضحة يخرج القارىء من خلالها بنتيجة لا خفاء فيها خاصة وان الايمان بأسماء الله الحسنى وصفاته عز وجل يرتبط ارتباطا وثيقا بالايمان بوجود الله سبحانه وتعالى وبوحدانيته .

لقد كانت مسألة صفات الله كما كان غيرها من مسائل علم الكلام مثار جدل طويل بين المتكلمين ، عبر عنه احد علمائنا قائلا :

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وهؤلاء المتكلمون ـ على اختلاف فيما بينهم ـ كانوا يتبعون النظر العقلى والادلة العقلية وانهم لذلك لجئوا الى التأويل رغبة فى تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، ويكفى ان نشير على سبيل المثال الى أن المعتزلة أولوا استواء الله على العرش فقالوا : ان المقصود بذلك هو الاستيلاء ، وهكذا فعلوا كما فعل غيرهم من نفاة الصفات فى سائر صفات الله تعالى اذ انكروا بعضها اصلا مثل صفة الكلام وأولوا البعض الآخر : اى صرفوها عن معناها الحقيقى كقولهم ان معنى السـمع والبصر هو العلم .

يقول الدكتور محمد رشاد سالم فى كتابه : (المدخل الى الثقافة الاسلامية) : وفهم مسألة صفات الله على الوجه الصحيح يرتبط بأمور عـدة :

الأول منها : ان الايمان بصفات الله متوقف على الايمان باعجاز

القرآن ومقتضى ذلك أنه ما من كلمة فى كتاب الله الا وقد وضعت فى موضعها الصحيح بحيث لا يمكن استبدالها بكلمة غيرها ، فلو ان الله تبارك وتعالى عنى بالسمع — مثلا مجرد العلم لما قال غير ما يعنى ولكنه لما قال عز وجل : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) (٦٨) .

فلا ريب ان معنى السمع هنا يختلف عن مجرد العلم .

وكذلك فى قوله : (وكلم الله موسى تكليما) (٦٩) لا يجوز أن يقال — كما قال بعض المعتزلة — ان الله خلق كلاما فى شجرة فسمعه موسى .

الأمر الثانى : أن معرفة الله سبحانه وعبادته عز وجل على الوجه الصحيح لا يتحققان الا اذا عرفنا اسماءه وصفاته وآمنا بها ايمانا كاملا فمعرفتنا بأن الله هو — الناصر — تؤكد لنا انه هو الذى ينصر عبــاده المؤمنين اذا صدقوا واخلصوا فى جهادهم . وقد ضمن لهم سبحانه النصر حينذاك . وايماننا بأن الله هو « الرازق » و « الرزاق » يدفعنا — مع السعى والكدح فى سبيل الرزق — الى الاعتقاد بأن الله هو الذى يجزينا على ما بذلناه من جهد وعمل بأن يرزقنا ما قدره لنا من المال او صنوف رزقه التى جعلنا مستخلفين فيها .

واعتقادنا بأن الله هو المحيى والمميت يؤكد لنا بأننا سوف نموت عند حلول الأجل الذى كتبه الله مهما توقينا الموت وحاولنا الفرار منه وهذا كفيل بأن يجعلنا لا نخشى غير الله ولا نخضع لسواه حتى لو هددنا الناس بالموت لأنهم لن يغيروا ما قدره الله لنا ولا يعنى ذلك بالطبع ان نفرط فى حياتنا او نعرض انفسنا للموت لغير سبب من الأسباب المشروعة مثل الجهاد فى سبيل الله .

وأمر ثالث يتعلق بمسألة الصفات وهو ان معرفتنا بصفات الله

---

(٦٨) سورة المجادلة : ١ .

(٦٩) سورة النساء : ١٦٤ .

سبحانه انما نستمدها من الفاظ اللغة التى نتكلم بها ، وهذه الألفاظ انما تدل على موجودات مخلوقه ، وهذه المدلولات تختلف كل الاختلاف عن مدلولات الألفاظ التى نطلقها فى وصف الله عز وجل فنحن نصف الله بأنه عالم ونصف الانسان بأنه عالم مع علمنا بأن علم الله يختلف كل الاختلاف عن علم الانسان ، وكذلك نصفه سبحانه بأنه حى ونصف الانسان وغيره من الأحياء بأنه حى ، وحياته تبارك وتعالى غير حياة الأحياء المختلفة .

وهكذا ، كما اننا اذا قلنا ان رائد الفضاء كان يمشى على سطح القمر فاننا نستعمل كلمة (يمشى) مع علمنا اليوم بأن المشى على سطح القمر غير المشى على سطح الأرض لاختلاف الضغط الجوى ، ولكننا لا نجد فى الفاظ اللغة لفظا آخر للتعبير عن تلك الحركة التى حدثت على سطح القمر والتى تشبه المشى على الأرض .

وكذلك يستشهد اهل السنة والجماعة بعبارة قالها ابن عباس رضى الله عنهما وهى (ليس فى الجنة مما فى دنياكم الا الأسماء) ومعنى ذلك اننا نعلم من الكتاب والسنة ان فى الجنة عسلا ولبنا وخمرا وغير ذلك ، ولكن هذه الأشياء جميعها وان اشتركت فى الأسماء مع اشياء اخرى فى حياتنا الدنيا الا انها تختلف عنها اختلاف تاما فى حقيقتها وكنهها .

ولذلك كانت القاعدة الأساسية التى يعتمد عليها اهل السنة والجماعة فى معرفة صفات الله سبحانه وتعالى مستمدة من قوله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) (٧٠) فمع اثباتنا لصفات الله عز وجل التى وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم فنحن ننزهه عن مماثلة اى شىء او مخلوق ، من المخلوقات فهو سبحانه يتكلم ولكننا لا نعلم كيف يتكلم لأنه (ليس كمثله شىء) وهو يستوى على العرش ولكن (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة كما قال مالك ابن انس رحمه الله .

(٧٠) سورة الشورى : ١١ .

وقد رفض النفاة قبول بعض الصفات خوفا من التشبيه بزعمهم وقبلوا بعض الصفات ، فقال المعتزلة : (ان الله عالم بذاته حى بذاته قادر بذاتــه) وهذا يتضمن قبولا لصفات العلم والحياة والقدرة ، ونحــن نعلم ان الحياة تقتضى النمو والاحساس والحركة وغير ذلك مما يميز الحى عن الميت فهـــل يجوز أن نفهم من قولنـــا أن الله حى انه تنزه وتعالى عن ذلك ـ ينمو او ان له حواسا او غير ذلك من صفات الأحياء من المخلوقات ؟

اننا اذا سرنا مع نفى الصـــفات الى النهاية ننتهى الى نفس النتيجة التى انتهت اليها فرقة الاسماعيلية التى قالت اننا لا نقول ان الله موجود الا اضطرارا ، وانــه لا يجوز أن نصف الله بأية صفة خوفا من الاشتراك والتشابه مع المخلوقات (٧١) وهـــذا الموقف هــو عكس موقف المشبهة أو المجسمة الذين اثبتوا المعنى الحرفى الظاهر للصفات فقال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى له صورة وأن وجهه وجه شاب (٧٢) ولذلك قال اهل السنة : ان المعطلة (الذين ينكرون الصفات) يعبدون عـدما وأن المجسمة يعبدون صنما ٠

وأمر رابع فى مسالة الصفات يرتبط بالتأويل فاننا اذا اجــزنا تأويل نصوص الكتاب والسنة حسب الآراء الشخصية نكون بذلك قد جعلنا عقيدتنا خاضعة للآراء والأهواء الشخصية فبعض المعتزلة ـ كما سبق ان رأينـــا ـ أول كلمة استوى بمعنى استولى (٧٣) وبعضهم قال انهـا بمعنى ملك أو قهر ، وقالت فرقة منهم بل معنى ذلك قصـــد واقبل على خلق العرش وقالت فرقة أخرى يحتمل خمسة عشر وجهـا

---

(٧١) انظر كتاب « راحة العقل » لحميد الدين الكرمانى ص ٥٥ ، وانظر كتاب « منتخبات اسماعيلية » تحقيق الدكتور عادل العوا ص ٩٥ — ٩٦ ، وكتاب « طائفة الاسماعيلية » للدكتور محمد كامل حسين ص ١٥٧ ، ط٠ مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

(٧٢) انظر مقالات الاسلاميين للأشعرى (ط٠ ريتر استانبول سنة ١٩٢٩ م) ٢٠٧/١ — ٢٠٩ ٠ وانظر الملل والنحل للشهرستانى (ط٠ الأنجلو ، القاهرة ١٩٥٦ م) ص ٩٦ — ٩٩ ٠ والفرق بين الفرق ص ١٣٨ ، ١٤١ ٠

(٧٣) مقالات الاسلاميين ١٥٧/١ ٠

كلهـا لا يعلم ايهـا المراد (٧٤) وقال بعض الناس الاستواء هو القعود والتمكن (٧٥) .

والعقيدة من الأمور الثابتة فى الدين والتى لا تؤخذ الا عن طريق الوحى ولا يجوز ان تفهم النصوص المتعلقة بها الا كما فهمها صحابـة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم من السلف الصالح وهـو الفهم الصحيح الموافق لمعانى لغـة العرب ، ولذلك كان منهج اهـل السنة فيها هو ان (يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله نفيا واثباتا ، فيثبت لله ما اثبته لنفسه وينفى عنه ما نفـاه عن نفسه . وقد علم ان طريق سلف الأمـة وائمتها : اثبات ما اثبته من الصـــفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل (٧٦) وفتح باب التأويل يؤدى الى الغاء الشريعة كلها ونحن نـرى ونسمع العجائب اليوم من الذين يريديون تأويل حقائق الشريعة وتحريفها بدعـــوى التطور حتى جعلت بعض البلاد الاسلامية ميراث الذكر كميراث الأنثى مدعية ان المرأة تعمل وهى فى حاجة الى المال مثل الرجل مع معارضة هذا القول لقوله تعالى : (للذكر مثل حظ الأنثيين) (٧٧) ومع العلم بأن الرجل مازال مسئولا عن الانفاق على اسرته فى كل بلدان العالم .

ان منهج اهل السنة والجماعة فى مسالة صفات الله قد استمد من كتاب الله وسنة نبيه . وقد استنبطوا منهما ما فيـه الرد على الفرق المبتدعة ، مع ملاحظة ان كتاب الله يوجه المؤمنين الى التعرف على صفات الله سبحانه بواسطة النظر فى الآيات النفسية والكونية ، كما سبق وبعبارة اخرى بواسطة نظر الانسان — الى نفسه والى ما يحيط به من مخلوقات الله المنبثة فى الكون .

وخير مثال على ذلك ما نجده فى آيات سورة الواقعة حيث يقول الله عز وجل : (افرايتم ما تمنون ، أانتم تخلقونه ام نحن الخالقون .

---

(٧٤) مختصر الصواعق المرسلة ٣٣٠/٢ .

(٧٥) مقالات الاسلاميين ٢١١/١ .

(٧٦) العقيدة التدمرية لابن تيمية ص ٤ ، ط. المنار ، القاهرة .

(٧٧) سورة النساء : ١١ .

نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبـــدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقـد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . افرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون . لو نشـــاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون ، بل نحن محرمون . افرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحـن المنزلون . لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون . افرأيتم النار التى تورون . أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتـاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم) (٧٨) .

ففى هذه الآيات نجد ان الله سبحانه يعرفنا ببعض صفاته العلية عن طريق النظر الى آياتـه النفسية والكونية والاعتبار بما فيها من دلائل على تـلك الصفات فنحن اذا تأملنـا فى طريقة خلق الانسان التى تبـدأ بالمنى الذى يقذف فى أرحام النساء (وما يعقب ذلك من أطوار) علمنـا أنه سبحانه هو الخالق ، واذا اعتبرنا بتقدير الله تبـارك وتعالى لآجالنـا وكتابته لها عرفنـا انـه هو المحيى المميت ، واذا تفكرنا فيما ترشدنا اليه الآيات من كيفية انبات النبات بعد نزول المـاء العذب من السماء ، وهو الذى يشربه الناس ويسقون به زرعهم وانعامهم ، ونظرنا الى النار التى نوقدها من الحطب الذى كان شجرا أخضر وهى النار التى تذكرنا بنـار الآخرة . علمنا أن الله تعالى هو المنعم الوهاب الرزاق وهو القادر العظيم وهو الرحمن الرحيم الحكيم وأن اليه الرجعى (٧٩) .

هذه نظرة سريعة فى الدلالة العقلية الصحيحة على وجـــود الله وقدرته ولابـد لنا بعد ذلك من ان نستعرض أهم النتائج التى تترتب على الايمان بالله القادر الخالق الذى يعنى بالكون ويرعاه .

أما النتائج التى تترتب على الايمان بالله وتوحيده فانها كثيرة وهامة فى سلوك الأفراد والمجتمعات ومن أهمها :

---

(٧٨) سورة الواقعة : ٥٨ — ٧٤ .

(٧٩) انظر كتاب المدخل الى الثقافة الاسلامية تأليف د. محمد رشاد سالم ص ١٩٧ ، ٢٠٣ .

١ - تحرير الانسان من العبودية لغير الله والخضوع لسواه :

لذلك يقول القرآن (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا) (٨٠) وان يكون التحرر من الخضوع لغير الله كاملا والقرآن ينفى شبهة القداسة عن أى فرد من الناس حتى ولو كان رسولا نبيا (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) .

وقد خاطبه القرآن بقوله (ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) (٨١) .

فالملك كله له والأمر كله اليه .

٢ - تحرير النفس الانسانية من سيطرة الغير والخوف منه :

لأن أولئك الذين يخشونهم لا يملكون ضررا ولا نفعا - يقول الله تعالى (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذن من الظالمين ، وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) (٨٢) .

ويقول سبحانه : واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) (٨٣) .

واذا تحررت النفس من الخوف من الغير فانها تتحر من الذل والعبودية والخضوع لغير الله والانسان قد يذل لغيره خوفا على حياته

---

(٨٠) سورة آل عمران : ٦٤ .
(٨١) سورة آل عمران : ١٢٨ .
(٨٢) سورة يونس : ١٠٦ - ١٠٧ .
(٨٣) سورة الفرقان : ٣ .

او رزقه او جلبا للمنفعة ودفعا للمضرة وقد بين القرآن ان المنفعة والمضرة بيــد الله كما ان الحياة والموت والرزق بأمره (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) (٨٥) (وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا) ٠

ويقول سبحانه : (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ٠٠٠) (٨٦) ٠

والرزق ايضا كالموت والحياة هو بيد الله لا يخاف الانسان عليــه من احــد سواه (الله يبسط الرزق لمن يشــــاء من عباده ويقــدر له) (٨٧) ٠ (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها) (٨٨) ٠

٣ ـ ثم ان عقيدة التوحيد والايمان بالله تملأ النفس طمأنينة وسكينة وثقة بالله وترفع من القوى المعنوية للانسان وتدفع عنه اليأس والقنوط فالمؤمن متفائل ابدا ، واثق من نفســه ومن نصر الله الذى عن طريق الايمان به تطمئن القلوب يقول الله تعالى : (هو الــــذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) (٨٩) ويقول : (ان الذين آمنوا وعمــلوا الصالحــــات يهديهم ربهـــم بايمانهم) (٩٠) ٠

٤ ـ واخيرا فان هــذه العقيدة تجعل ضمير الانسان يقظا مراقبا للــه فى كل ما يعمل او يفكر لأنه يعلم ان الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وانه يعلم خائنـــــة الأعين وما تخفى الصــــدور ٠

---

(٨٥) سورة النساء : ٧٨ ٠
(٨٦) سورة آل عمران : ١٥٤ ٠
(٨٧) سورة العنكبوت : ٦٢ ٠
(٨٨) سورة هود : ٦ ٠
(٨٩) سورة الفتح : ٤ ٠
(٩٠) سورة يونس : ٩ ٠

الايمـــان بالملائكـــة

جعل الاسلام الايمان بالملائكة أصلا من اصول الدين وركنا من اركان العقيدة ويبـدو هذا واضحا من قول الله عـز وجـل : (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله ···) (٩١) لأن الايمان بالملائـكة يوجب الاعتقاد بأن للانسان حياة روحية عليه ان ينشطها استجابة لعوامل الخير التى اوجدها الله فيـه ·

واذا كان القرآن قد ابان الانسان خلق من تراب وان الجن خلق من نار ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ابان ان الملائكة خلقت من نـور · فقد ورد عنه انه قال : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نـار) (٩٢) فهم اذن من عالملطيف غير محسوس · وعـدم رؤيتنـا للملائكة لا ينفى وجودهم ، فالعلم يكشف لنا كل يوم عن كائنات حيـة لم يكن لنا بهـا علم سابق ، وهذا يعنى انها كانت موجودة ولم تكن معدومة ، ولا يستطيع عالم ان يدعى انه قد احاط بكل شىء علمـا فالملائكة خلق من خلق الله ولكن شاء الله لنـا ان لا نراهم · واوجب علينا الايمان بهـم ·

وقد خلق الله الملائكة وفى طبيعتهم الطاعة وعدم العصيان ولذلك قال الله فيهم : (لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقال فيهـم : (ولله يسـجد ما فى السموات وما فى الارض من دابـة والملائكة وهـم لا يستكبرون · يخافون ربهـم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) (٩٣) وهذا يعنى ان طبيعة الملائكة تختلف عن البشر فى انها ليس لها قـوة الاختيار ·

---

(٩١) سورة البقرة : ٢٨٥ ·
(٩٢) الحديث رواه مسلم ·
(٩٣) سورة النحل : ٤٩ ، ٥٠ ·

اعمال الملائكة ووظيفتهم

كلف الله تعالى ملائكته باعمال متنوعة وابرز هذه الاعمـال تبليغ الوحى الالهى الى الرسـل الذين اصطفاهم الله من البشر يدل لذلك قول الله تعالى : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسـلا اولى اجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ان الله على كل شىء قدير) (٩٤) وجاء فى شانهم قوله تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من من عباده أن انذروا انـه لا اله الا أنافا تقون) (٩٥) وقد ورد فى القرآن ان الملك الذى اتى الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن اسمه جبريل (انا انزلناه فى ليـلة القدر • ليـلة القدر خير من الف شهر • تنزل الملائكة والروح فيهـا باذن ربهم من كل امر سلام هى حتى مطلع الفجر) فالروح هنـا عند اكثر العلماء هو جبريل • وقال ايضا : (قل من كان عدوا لجبريل فانه نـزله على قلبك باذن الله) (٩٦) •

هـذا وقد سمى القرآن جبريل بالـروح الأمين ، وروح القدس بالاضافة الى تسميته له بالروح كما سبق : (نزل به الروح الأمين • على قلبـك لتكون من المنذرين) (٩٧) ويقول القرآن فى شانه ايضا : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) (٩٨) •

ومن اعمالهم ايضا : تاييد رسل الله وتثبيتهم والتسرية عنهم فى شدتهم فالله سبحانه قد أيد عيسى بروح القدس وهو جبريل وذلك فى قوله تعالى : (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) (٩٩) •

ومن وظائفهم انهم يتنزلون على المؤمنين لمواساتهم وتبشيرهم •

---

(٩٤) سورة فاطر : ١ •

(٩٥) سورة النحل : ٢ •

(٩٦) سورة البقرة : ٩٧ •

(٩٧) سورة الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ •

(٩٨) سورة النحل : ١٠٢ •

(٩٩) سورة البقرة : ٨٧ •

يشـــهد لهذا قوله تعـالى : (ان الذين قالوا ربنـــا اللـــــــــه ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشـــروا بالجنـــة التى كنتم توعدون ۰ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ما تدعون) (١٠٠) ۰

ومعنى هذه الآية ـ والله اعلم ـ ان الملائكة تتنزل على المؤمنين فى الدنيا لتلهمهم الخير والصواب ، وتطمئنهم عند المـوت بـــأن لا يحزنوا على ما تركوا وراءهممن أهل وولـد ، وتبشرهم بالجنـــة التى وعدهم الله بهـا ۰

ومن وظائفهم ۰ انهم مدد الله الى عباده المؤمنين المجاهدين عند قتال الأعداء ليتحقق نصرهم عليهم ۰ وفى هذا يقول القـرآن : (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائـــــكة مردفين ۰ وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله) (١٠١) ۰

ومن وظائفهم ۰ انهم يقبضون أرواح الناس عند الموت مؤمنين وغير مؤمنين (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليـــكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) (١٠٢) ويقول فى شأن توفى الملائكة للظالمين : (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) (١٠٣) ۰

ومن وظائفهم ۰ انهم يشفعون للناس شفاعة متوقفة على اذن الله لهم بها وفى هـذا يقول الله تعالى : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعـد أن يأذن الله لمن يشـــــــاء ويرضى) (١٠٤) ۰

ومن وظائفهم ۰ انهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون الله لهـم.

---

(١٠٠)سورة فصلت : ٣٠ ، ٣١ ۰
(١٠١) سورة الأنفال : ٩ ، ١٠ ۰
(١٠٢) سورة النحل : ٣٢ ۰
(١٠٣) سورة النحل : ٢٨ ۰
(١٠٤) سورة النجم : ٢٦ ۰

كى يهديهم الى طريق الفوز والنجاة وفى هذا جاء قـــوله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنـــا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفـــر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عـــذاب الجحيم • ربنا وادخلهـــم جنات عـــدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك انت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئـــذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) (١٠٥) •

ومن وظائفهم • ان الله كلفهم بكتابة أعمال الانسان ليحاسب عليها فى يوم الحساب • وهذا الصنف من الملائكة هو المشار اليه فى القرآن بقوله تعالى : (وان عليكم لحافظين • كراما كاتبين • يعلمون ما تفعلون) (١٠٦) ويقول أيضا فى شأن هؤلاء : (ولقد خلقنـــا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد • اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد • ما يلفظ من قول الا لديـــه رقيب عتيد) (١٠٧) •

وهذه الآيات تشير الى الملكين اللذين يسجلان أعمال الانسان قاعدين عن يمينـــه وشـــماله فما يلفظ من قول او يعمـــل من عمل الا ويراقبانه وكل منهما (عتيد) اى مهيأ لكتابة ما يقوم به من خير او شر • وكفى بذلك رادعا للانسان عن اقتراف السيئات والذنوب • متى علم ان هناك ملائكة تلازمه وتحصى عليه اعماله •

اضف الى ما سبق من وظائف الملائكة حملة العرش وخازن النار وخازن الجنة والموكلون بالسحاب والرياح الخ مما أفاض القرآن فى ذكره • مما من شأنه أن يوقفنا على الغاية التى يهدف اليها الاسلام من وراء حديثـــه عن خلق الملائكة وطبيعتهم ووظيفتهم والتى تتلخص فى انتشال الانسان من أدران المـــادة الى السمو الروحى •

---

(١٠٥) سورة غافر : ٧ - ٩ •
(١٠٦) سورة الانفطار : ١٠ •
(١٠٧) سورة ق : ١٦ - ١٨ •

الايمـان بالكتب الالهيـة

من اركان الايمان ان تعتقد ان الله سبحانه انزل على رسـله كتبـا تشتمل على ما فيـه صلاحهم فى دنيـاهم واخراهم . وعلى المسـلم ان يؤمن بالقرآن كآخر كتاب نزل من عند الله على محمـد صلى الله عليه وسلم وبما سبقه من الكتب التى انزلت على الرسـل السابقين .

يقول الله تعالى : (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احـد من رسـله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) (١٠٨) .

وها هو القرآن الكريم يذكر من هذه الكتب المنزلة . التوراة وهو كتاب موسى . والانجيل وهو كتاب عيسى ، والزبور وهو كتاب داوود وصحف ابراهيم وموسى . ومن روعة الاسلام انه جاء مصدقا للديانات السماوية السابقة فى صـورتها الحقيقية والزم المسلمين بتصديقهـا تصديقا كليا . اما فى صورتها الحاضرة فالاسلام يصدق منها ما بقى على صورته الأصلية ويبرأ مما طرأ عليها من تحـريف واضافات . ويصحح ما طرأ عليها من بدع وخرافات .

ولنستمع الى قول الله تعالى فى هذا الشأن : (وانزلنـا اليك الكتاب بالحق مصدقا لمـا بين يديـه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (١٠٩) وهذا يعنى ان القرآن جاء مصـدقا لمـا سبقه من الكتب الالهية كالتوراة والانجيل ورقيبا عليها ، وشاهدا بما بين من حقيقة امرها ويأمر الله محمدا صلى اله عليه وسلم فى هذه الآيـة ان يحكم بين اليهود والنصارى بما انزله اليه فى القـرآن من الأحكام ، ونهاه عن ان يتبع اهواءهم .

---

(١٠٨) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(١٠٩) سورة المائدة : ٤٨ .

والحق أن الكتب الالهية السابقة قد تناولتها أيدى اتباعها بالتبديل والتحريف مما كان سببا فى الاختلافات الدينية الكبيرة التى طال عليها الزمن مما اوقع البشرية فى خطر المروق من دين الله والارتماء فى أحضان الوثنية وصنوف الالحاد . حتى أصبح العالم فى حاجة ماسة الى وحى من عند الله يجنب البشر مواطن الضلال ، ويديهم الى طريق الله . فارسل الله خاتم الأنبياء والمرسلين وانزل عليه القرآن يفرق به بين الحق والباطل ، ويبين للناس ما أشكل عليهم . يقول الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم فى هـذا الشأن : (تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم . وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمـة لقوم يؤمنون) (١١٠) .

قيمة التوراة فى القرآن :

ينبغى ان نعلم ان القرآن قد جـاء شاهدا على أن الله سـبحانه انزل التوراة والانجيل قبل أن ينزل القرآن هداية للناس . ولقد سجل القرآن هـذه الشهادة فى قوله تعالى : (الله لا اله الا هو الحى القيوم . نـزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل . من قبل هـدى للناس وانزل الفرقان ...) (١١١) .

ومع هذا تعرض القرآن لنقد التوراة التى حرفها اتباعها ، واثبت أن هؤلاء الأتباع قد بدلوا وغيروا فيما اشتملت عليه من تعاليم بدليل قوله تعالى : (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) (١١٢) والتحريف الذى قام به قوم من اليهود اتخذ صورا متعددة وذلك اما بتأويل كلام التوراة وحمله على غير معناه الذى وضع له ، واما باخفاء القول وكتمانه ، أ وبالزيادة أو النقص فيـه ، أو ما نسى من الأوامـر والأحكام بسبب طـول الزمن الخ ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك : (ونسوا حظا مما ذكروا به) أى نسوا طائفة من أصل كتاب الله .

---

(١١٠) سورة النحل : ٦٣ ، ٦٤ .
(١١١) سورة آل عمران : ٢ ، ٣ ، ٤ .
(١١٢) سورة النساء : ٤٦ .

وقال القرآن عنهم فى هذا الشأن ايضا : (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم) (١١٣) وهذه شهادة من القرآن على ان ما عند اليهود هو جزء من الكتاب وليس الكتاب كله ٠ كما يبين القرآن ان اليهود قد عبثوا بكتاب ربهم واخفوا كثيرا من اصول دينهم فى قول الله تعالى : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ٠ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (١١٤) ٠

والجدير بالذكر ان من المسائل التى كان اليهود يخفونها من التوراة هى صفات الرسول محمد ﷺ والبشارات به حيث حرفوها بالحمل على معان ليست هى التى جاءت من عند الله ٠ كما أنهم اخفوا ما يتعلق بالحساب والجزاء الأخروى الذى هو من أهم دعائم الدين ، ولذلك لو ذهبت تبحث فى توراتهم عن الحساب فى الآخرة فلن تجد لذلك ذكرا ٠

هذا : وكلمة (توراة) تعنى فى العبرانية (الشريعة) والقرآن لم يحدد اسفار التوراة ٠ غير أن بعض الموارد منه والتى بها اسم موسى مقترنا بالتوراة يشير ان المراد من هذه الكلمة (الأسفار الخمسة) التى نزلت على موسى على راى قدماء العبرانيين وهى : التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية ٠ ثم اطلق العبرانيون مدلول هذه الكلمة فيما بعد على جميع أسفار (العهد القديم) ٠

قيمة الأناجيل فى القرآن :

يجمع مؤرخو النصرانية على كثرة الأناجيل بعد المسيح ٠ ولكن الكنيسة فى اوائل القرن الرابع للميلاد ارادت أن تختار – من بين هذه الكثرة العظيمة من الأناجيل – الأناجيل الأربعة الآتية : انجيل متى ، وانجيل مرقس ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا ٠ غير أن

---

(١١٣) سورة آل عمران : ٢٣ ٠
(١١٤) سورة المائدة : ١٥ ٠

القرآن لا يقر بعض ما فى هـذه الأناجيـل ، ولا يعترف بأنهـا من عند الله . ذلك ان القرآن صرح بأن الله نزل على رسوله عيسى عليه السلام انجيلا ، وهذا الانجيل الواحد هو بلا شك غير الأناجيل التى كتبت بعده ودليلنا هذا قول الله تعالى وهو يتحدث عن اليهـود : (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصـــدقا لمـا بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور) (١١٥) .

ويصرح القرآن بأن النصارى قد نسوا طائفة من اصل كتـــاب الله وذلك فى قوله : (ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثـــاقهم فنسوا خطا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يـوم القيامة وسوف ينبؤهم الله بما كانوا يصنعون)(١١٦) وما النقـد الشديد الذى وجهه القرآن الى العقيدة المسيحية الحاضرة الا دليـل على ما نقول : (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشـــرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصـــار لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحـد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم) (١١٧) .

---

(١١٥) سورة المائدة : ٤٦ .
(١١٦) سورة المائدة : ١٤ .
(١١٧) سورة المائدة : ٧٢ ، ٧٣ .

الايمـــان بالنبوات

لا جدال فى أن الايمان بالنبوة أو الصلة بين الله والانسان عن طريق الأنبياء من اهم ما يميز الاسلام عن الأديان الأخرى .

ثم ان الايمان بالنبوات يعتمد على الايمان بقيام الصلة بين الله وبين عباده بواسطة احد عباده الذين نسـمية نبيا او رسـولا وهناك أديان تؤمن بوجود الله ولكنها تنكر النبوات ولا ترى حاجة لوجود هذه الصلة بين الله والانسان ، وحجتهم فى ذلك ان ما اتى به الأنبياء اما موافق للعقل ففى العقل غنى عنه او مخالف فلا حاجة لنا به لأن العقل هو الذى يدلنا على حقائق الأمور .

ويرد على أصحاب هذا الرأى بأن من الصعب أن نتقبل وتدبيره المستمر للكون ، ثم انه من الضرورى الا يكون ما فى العقل مخالفا لما يأتى به الأنبياء ، فجميع الأمور التى نزلت بها الرســـالات السماوية يقرها العقل الصحيح المعتمد على تفكير علمى منظم ، هذا بالاضـــافة الى ان لكل من العقل والوحى ميدانه الخـــاص فى بعض المســـائل واذا امكن ان نتوصـــل بالمنطق التجـــريبى والرياضى الى حقائق علوم الكون والحياة فاننا لا نستطيع بغير الوحى أن نتوصل الى حقائق ما وراء المادة .

وسائل الصلة بين الله والرسل :

هذه الصلة تجملها الآية الكريمة التى وردت فى سورة الشورى وهى قوله تعالى : (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحى باذنه ما شاء انه على حكيم) (١١٨).

وهذا معناه ان الصلة بين الله والرسل تكون بوسائل متعددة لن نبحث فى تفصيلها هنا فليس هذا مجالها الا اننا سنلقى نظرة سريعة على اهم هذه الوسائل لناخذ فكرة عنها ، وغالبا ما يبدا الوحى بالرؤيا

---

(١١٨) الشورى : ٥١ .

الصادقة ، وفى قصص الأنبياء كثير من حوادث الرؤيا الصحيحة وقد قص علينا القرآن كيف أنها طريقة من طرق الوحى عندما حدثنا عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وكيف أمر ابراهيم فى المنام بذبح ابنه (فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى ارى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر) (١١٩) .

وقد تكون وسيلة الاتصال الالهام فى حالة اليقظة كما حدث مع الرسول الكريم محمد ﷺ اذا اتاه هذا الالهام وهو جالس بين المسلمين وفى هذا ورد عنه قوله : (هذا رسول رب العالمين ، نفث فى روعى انه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها) .

وقد يكون الاتصال بتكليم الله للرسول مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام مما قص علينا القرآن قصته : (فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى انا الله رب العالمين) (١٢٠) .

والواسطة الطبيعية فى حصول الوحى هو جبريل عليه السلام (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) (١٢١) وأحيانا كان جبريل ينزل مجسدا يراه المسلمون كما حدث فى حديث جبريل المشهور ، حين سأل رسول الله ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان وأشراط الساعة والذى روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومن الطبيعى حين يدعى انسان انه يتصل بالله ويحمل منه الى الناس رسالة ترتب عليهم تكاليف وواجبات ان يطالبه الناس بالدليل على صدقه ، ولم ير الاسلام فى هذا أمرا خارجا على المعقول ، حتى انه قص علينا أن ذلك حصل مع بعض الأنبياء بقوله : (واذ

---

(١١٩) سورة الصافات : ١٠٢ .
(١٢٠) سورة القصص : ٣٠ .
(١٢١) سورة الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥ .

قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى (١٢٢) .

المعجزات وأنواعها :

ومن هنا ظهرت الحاجـــة الى وجود ما يثبت النبوة وهى المعجزة وتعد المعجزات من أهم الوسائل التى اجراها الله على يد رسله ليقتنع الناس بأنهم لا يمثلون أنفسهم وانما يمثلون الله تعـالى والحقيقة ان الايمان بالرسل مرتبط بالايمان بالله وبالايمان بالغيب الذى يعتبر من أهم مميزات المسلم التقى :

(الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنـــون بالغيب) (١٢٣) .

وقد تحدث القرآن عن مجموعة من المعجزات منها المادى ومنها المعنوى :

والمعجزة فى الأساس امر خارق للعادة والقوانين التى يلاحظهـا الناس وتجرى عليها نواميس الكون ، يجريه الله على يدى مدعى النبوة تأييدا له فى دعواه ، وقد حاول البعض ان يعطى المعجـزة صورة الأمر العادى الا أننا نرى أن المعجزة اذا فقدت الصفة الخارقة فقدت معناها وكونها دلالة على صدق النبى فاذا قال مدعى النبوة ان دلالة صدقى أن تطلع الشمس من الغرب وهى تطلع عادة من الشرق كان ذلك دلالة وتأييدا ، أما اذا اخبر قومه ان الشمس تطلع من الشرق فما هو الأمر الجديد فى الموضوع .

ولقد كانت المعجزات ـ والمادية منها بصورة خاصة ـ مجالا لبحوث كثيرة وانكارا من بعض الذين يدعون الموضوعية ونريد أن نشير بهذه المناسبة الى أن الاسلام دين المعجزات التى يراها العقـل

---

(١٢٢) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(١٢٣) سورة البقرة : ١ ـ ٣ .

حيثما نظر وليس دين المعجزات التى تكف العقل عن الرؤيات ، وليس معنى ان يؤمن المسلم بامكان المعجزة أن ينكر النواميس الكونية ، وليست المعجزة بأعجب من خلق السموات والأرض وما فيها من كائنات وعجائب ، واذا آمنا بأن الله خلق العالم العجيب كله فلن يستحيل علينا أن نؤمن بخلق حادث مفرقيخرق به القوانين والعادات فخوارق العادات ممكنة لا استحالة فيها ، ومن قال باستحالتها لزمه الاثبات لأنه يدعى الاستحالة عقلا بغير دليل وليست المعجزة ضد العقل لكنها فوقه ، وهناك فارق بين ما هو ضد العقل ـ وما هو ضده يلغيه ـ وما هو فوقه يطلق له المدى ويوقفه حيث ينبغى أن يقف .

ومن المعجزات المادية : ناقة صالح التى قص القرآن خبرها بقوله : (قالوا انما أنت من المسحرين . ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) (١٢٤) .

ومنها معجزة عصا موسى التى حدثنا عنها القرآن بقوله : (قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشىء مبين . قال فأت به ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) (١٢٥) .

ومنها معجزات عيسى عليه السلام وقد حدثنا عنها القرآن بقوله : (انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) (١٢٦) .

ونلاحظ أن معظم الأمم التى جاءتها المعجزات لم تؤمن بل أصرت على كفرها والحادها ، وقد بين القرآن أن الهداية بيد الله وانه مهما

(١٢٤) سورة الشعراء : ١٥٣ ـ ١٥٦ .
(١٢٥) سورة الشعراء : ٢٩ ـ ٣٣ .
(١٢٦) سورة آل عمران : ٤٩ .

تكن قيمة المعجزة فان نفوسا كثيرة لن ترتدع او تؤمن (ولو فتحنـــا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون) (١٢٧) .

وهل هناك أبلغ من هذه المعجزة ؟ الا ان البعض سيقول انه خداع البصر أو السحر ، لذلك فانه تعالى يحدث الرسول بهذا المعنى فيقول : (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا) (١٢٨) .

اما المعجزات المعنوية والعقلية فأهمها : القرآن الكريم الذى نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، ونستطيع ان نلاحظ بهذه المناسـبة أن هذه المعجزة ترتبط ارتباطا وثيقا بالرسالة ، والمعجزات اما ذاتية تتعلق بماهية الرسالة أو خارجة عن جوهرها ، ومعجزة القرآن من النوع الأول لأنها معجزة عقلية تخاطب الفكر البشرى وتقوم على القناعة العقلية أكثر مما تقوم على قناعة الحواس التى هى أساس المعجزات المادية ، ولا شك أن البشرية كانت قد قطعت حتى بعثة الرسول محمد ﷺ شوطا كبيرا من الرقى العقلى فكان بالامكان أن تخاطب عقولهم مباشرة ، وخطاب العقل أكثر شمولا ودواما واستقرارا لذلك كان القرآن الكريم معجزة الرسول محمد ﷺ حتى أبد الدهر .

ولقد اختلف العلماء والباحثون فى حقيقة الاعجاز فى القرآن ويمكن أن تحدد آراء هؤلاء العلماء فى ثلاثة اتجاهات رئيسية :

أولهـــا : هناك من يرى بأن المعجز فى القرآن صياغة ألفاظه الخارقة للعادة وبلاغته الواضحـــة التى اعجزت العرب أن يأتوا بمثلها .

ثانيهـــا : ومنهم من يراه فيما ورد فى القرآن الكريم من الاعلام عن الغيوب وعن حوادث الأمم السابقة وتاريخها وعقائدها ،

---

(١٢٧) سورة الحجر : ١٤ ، ١٥ .

(١٢٨) سورة الاسراء : ٥٩ .

فقد اشار القرآن الى حوادث ستقع فى المستقبل ثم وقعت كما حدث مثال ذلك قوله تعالى : (الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) فقد حصل ان الفرس غلبت الروم فأخبر القرآن عن هـذه الواقعة وأنبأ أن الروم سينتصفون من خصومهم فى بضع سنين ، وقد تم ذلك فعلا وبما ان اى انسان لا يستطيع أن يعلم الغيب فلا شك أن الكتاب منزل من الله وفيه من الاعجاز ما فيه . ثم ان القرآن تحدث عن تاريخ الأمم السابقة وأديانها حديث العليم بكل صغيرة وكبيرة من احداثها وشئونها ، ولما كان الرســـول عليه الصلاة والسلام اميا لم يطلع على كتب الأقدمين ، بالاضافة الى ان هذه الكتب لا تشــير بدقة الى تلك الأمور ، فلابد أنه تعالى هو الذى أخبر نبيه بهـذه الأخبار .

ثالثهـــا : أن هناك كثيرا من العلماء الذين يرون بأن الاعجـــاز فى القرآن هو فيما ورد فيه من انظمة انسانية بالغة الرقى لم تعهد الانسانية مثلها قديما وحديثا فى ضمان مصلحة بنى الانسان العامة وتأمين حياتهم الخيرة بين البشر ، فقد ورد فى القرآن انظمة لحياة الانسان فى شتى الوان النشـاط البشرى اى من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الى غير ذلك مما سنراه فى الموضوعات القادمة .

واضاف هؤلاء العلماء أنه لما كانت هذه الأنظمة بعيـدة عن تصور اى انسان أو قدرته فى ذلك الحين وبعده فلابد ان يكون القرآن منزلا من الله تعالى مثبتا لرسالة رسوله ﷺ .

رابعهـــا : ان الانسان لا يرى فى القرآن تضاربا او تناقضا مع طوله وامتداده وصدق الله القائل فى ذلك : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

والواقع ان الاعجاز فى القرآن يشمل هذه النواحى جميعا فهو فى اللفظ العجيب والتركيب البلاغى البديع ، وهو فى اخباره عن

الغيوب وانباء الأمم السابقة وهو فى انظمته الرائعة السامية ولا نستطيع أن نقول بحصر الاعجاز فى جانب واحد .

فالقرآن لأنه معجزة الرسول الى الناس جميعا وفى مختلف أزمانهم وأمكنتهم لابد أن يحوى هذه الوجوه المتعددة فاذا آمن العربى به لاعجازه البلاغى فقد يؤمن به الرومى لاخباره عن الأمم السابقة كما قد يؤمن به الفارسى لأنظمته التى فيه ، ان القرآن معجزة كلمة ولفظا ونظاما ومادام حديثنا عن النبوة فان من الواجب ان نعرض لظاهرة هامة وهى ظاهرة تعدد الأنبياء والرسل وهل يؤمن المسلم بهم جميعا وما هو سبب هذا التعدد ؟ هذا ما سنشير اليه فى السطور التالية :

أسباب تعدد الرسل والرسالات :

لا جدال فى أن الاسلام حين يأمر الناس بالايمان بالرسل والرسالات السماوية جميعا فانه يعلن بذلك وحدة الأصل الذى يأخذ عنه الأنبياء والرسل ، كما يعلن وحدة رسالاتهم ووحدة الانسانية جميعا (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) (١٢٩) . (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) (١٣٠) .

ولكن لماذا تعددت الرسالات الالهية ؟؟ ونقول فى الجواب اننا نستطيع أن نذكر أسبابا ثلاثة هامة لهذا التعدد وهى :

١ — اختلاف الظروف والبيئات .
٢ — تطور عقول الناس وتجاربهم .
٣ — تحقيق التدرج فى التشريع .

---

(١٢٩) سورة البقرة : ١٣٦ .
(١٣٠) سورة البقرة : ٢٨٥ .

فمن المعلوم ان البيئات الانسانية ليست واحدة ، والظروف التى يمر بها الناس متغيرة ، ثم ان مدارك هؤلاء الناس وعقولهم فى تطور مستمر لنماء التجربة الانسانية وغنى الخبرة البشرية ولذلك كان لابد من ملاحظة هذه التغيرات . أضف الى ذلك أن التدرك فى التشريع أمر لازم لاحداث تأثيره وتطبيقه تطبيقا سليما وهكذا فان ما يناسب بعض الناس فى ظرف معين أو زمان ما قد لا يناسب الناس فى ظروف وأزمنة أخرى ، وهذا ما نلاحظه فى جميع نواحى النشاط الانسانى فليس معنى تعدد الرسالات الالهية أن هناك تناقضا بين هذه الرسالات وانما هى رعاية الخبير بحال البشرية الذى يقدم لها فى كل حين ما يناسب مداركها .

ان رسالات الأنبياء طب للعقول والنفوس تماما كطب الأجسام والأبدان فكما أن الطبيب يلاحظ فى اعطاء الدواء سن المريض وحالته ويمنعه من أن يتناول الدواء جرعة واحدة لأنه قد ينقلب سما مميتا ، فكذلك شأن النبوات والرسالات الالهية .

حكمة ارسال الرسل :

مما لا شك فيه أن العقل ــ وان كان يدرك بعض الأشياء ــ الا أن هناك أمورا الا يستقل بادراكها ، ولا يمكنه ان يحكم فيها بشىء ــ حتى على رأى المعتزلة القائلين بالحسن والقبح العقليين ــ فالأمور الأخروية وتفاصيل أحوالها وطرق الوصول اليها ، مما لا يمكن استقلال العقل بادراكها ، كذلك مقادير الحدود والعبادات وكونها فى أوقات مخصوصة ، وتحريم صوم يوم الفطر ووجوب صوم آخر شوال ــ وهما يومان متجاوران ــ كل ذلك يقصر العقل عن ادراكه، وكذلك السعادة الأبدية التى ينشدها الانسان من هذه الحياة لأنها غايته منها ولن تكون هذه السعادة فى هذه الحياة لأنها لا تخلو عن الهموم والأحزان ، أما تلك فلا يشوبها شىء من ذلك ، اذ هى دائمة لا تفنى ، فهذه السعادة لا يدركها العقل مهما أوتى من ذكاء وفطنة ، ولا يمكنه تحديد الطريق الموصلة اليها .

لهذا كله كان من فضل الله تعالى على عباده ان اصطفى لهم رسلا من خيرة خلقه يبينون للناس هذه الأمور ، وتلك الطـــرق حتى يتأهلون باتباعها الى تلك السعادة الأبدية(١٣١) .

اضف الى ذلك ان ارسال الرسل للناس يقطع الطريق على كل من يريد اقامة الحجة على الله فى الآخرة . اذ لو لم يرسل الله الرسل لا حتج البشر يوم الحساب . وهذا ما حكاه القرآن فى هذا الشـأن حين قال : (ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبـل ان نـذل ونخـزى) (١٣٢) لذلك اقتضت حكمته جل وعلا ان يرسل الى الناس رسلا (مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ويقول عز من قائل : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق)(١٣٣) .

حكم الايمان بالرسـل :

ان الايمان بالرسل ركن من اركان الايمان ، فيجب على كـل مؤمن ان يعتقد ان الله ارسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه وانهم موصوفون بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة وأنهـم معصومون عن الخطأ ، وان هؤلاء الرسل قد قاموا بتبليغ ما امروا بتبليغه ، وان يعتقد وجوب تصديقهم فى انهم يبلغون ذلك عن الله ، ويجب عليه الاقتداء بهم فى سيرهم ، وان يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الالهية بالمعجزات وها هو القرآن يدعو الى الايمان بالرسـل جميعا فيقول الله تعالى : (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفـــرق بين احـــــد منهم

---

(١٣١) مذكرات فى التوحيـــد لفضيلة الشيخ صـالح شرف ص ١٩٨ ، الطبعة الرابعة .

(١٣٢) سورة طه : ١٣٤ .

(١٣٣) سورة البقرة : ٢١٣ .

ونحن له مســـلمون) (١٣٤) وقال : (لا نفـــرق بين احـــد من رســـله) (١٣٥) ٠

واما الذى يؤمن ببعض المرسلين ويكفر ببعض فلا يقبل الله منه ذلك ، وفى هذا يقول الله تعالى : (ان الذين يكفرون بالله ورســله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفـر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا ٠ اولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) (١٣٦) ٠

فانظر كيف ان الاسلام قد وضع اساســا للوحدة والاخاء بين بنى البشر جميعا ٠ لانهم متى آمنوا بجميع المرسلين فقد سهل عليهم بعد ذلك ان يتفاهموا على ما قد يبقى بينهم من خلاف ٠ ومن السهل على كل عاقل ان يدرك ان مذهب الاسلام فى توحيد الأديان حـول رسالة محمد هو خير المذاهب ٠

ولقد شاء الله ان يرسل الى كل امة رسولا من انفسهم ليأخـذ بيدهم الى ما فيه خيرهم وسعادتهم (ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (١٣٧) ولم يحدد الله سـبحانه عدد الرسل الذين ارسلهم الى الناس وانما ذكر لنا بعضهم فقط ٠ وفى هذا يقول سبحانه (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لـم نقصصهم عليك) (١٣٨) ٠

اما الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن فهم خمســة وعشرون رســـولا ٠

وقد جمعهم احد علمائنا السابقين فى ابيات نذكر منها قوله :

---

(١٣٤) سورة البقرة : ١٣٦ ٠
(١٣٥) سورة البقرة : ٢٨٥ ٠
(١٣٦) سوره النساء : ١٥٠ ، ١٥١ ٠
(١٣٧) سورة النحل : ٣٦ ٠
(١٣٨) سورة النساء : ١٦٤ ٠

في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ، ويبقى سبعة وهموا
ادريس هود شعيب صـالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

والآيات الكريمة التى أشار اليها الناظم فى الأبيات والتى قال عنها : فى تلك جحتنا منهم ثمانية من بعد عشر ..) هى قوله تعالى : (وتلك حجتنا أتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشـــاء ان ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريتـه داود وسـليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين . واسماعيل واليسـع ويونس ولوطـا وكلا فضلنا على العـالمين) .

الايمان باليوم الآخر

ان الايمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار وصراط وميزان .... من اهم عناصر الايمان . ويقرر القرآن الكريم حقيقة البعث بعد الموت بالروح والجسد فى صورة واضحة وبأسلوب مقنع فى كثير من آياته ، وسنكتفى هنا فى بداية حديثنا عن الايمان باليوم الآخر وما فيه بذكر قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون)(١٣٩) .

ولقد وجه الله سبحانه الخطاب لهؤلاء الذين حسبوا البعث مخالفا للسنن المألوفة فقال :

« يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيى الموتى وانه على كل شىء قدير ، وان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »(١٤٠) .

وانت بمجرد قراءتك لهذين النصين الكريمين تدرك أن الله سبحانه يقيم دليلين على قدرته على البعث :

أولهما : خلق الانسان من سلالة من طين كما ورد فى النص

---

(١٣٩) سورة المؤمنون ١٢ - ١٦ .
(١٤٠) سورة الحج : ٥ - ٧ .

الأول أو من تراب كما ورد فى النص الثانى ، وهذا أمر يؤيده الواقع ويقره العلم الحديث فعند تحليل جزء من جسم الانسان نراه يتركب من نفس العناصر التى تتركب منها تربة الأرض . ثم يمر الانسان بالأطوار التى يمر بها الجنين فى بطن امه الى ان يصبح انسانا كاملا ثم ينتهى بالموت ثم يبعث يوم القيامة للحساب .

ثانيهما : دليل واقعى يلمسه الناس جميعا وهو الأرض الميتة التى لا اثر فيها لحياة ولا لنبات فينزل الله عليها الماء فتدب فيها الحياة وتعج بكل انواع النبات والخضرة .

وينص القرآن الكريم على ان عقيدة الايمان باليوم الآخر من اهم عناصر الايمان بعد الايمان بالله تعالى فيقول عز من قائل :

(ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ..)(١٤١) .

وفى الحديث المعروف الذى سأل فيه جبريل عليه السلام محمدا ﷺ عن ماهية الاسلام والايمان والاحسان ، اجاب النبى ﷺ قائلا :

(الاسلام : ان تشهد ان اله الا الله وان محمدا رسول الله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا .. قال : فأخبرنى عن الايمان . قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خير وشره .. قال : فأخبرنى عن الاحسان قال : ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ..)(١٤٢) .

هكذا تقرر النصوص الشرعية - فى وضوح وجلاء - حقيقة

---

(١٤١) سورة البقرة : ١٧٧ .

(١٤٢) الحديث اخرجه الشيخان ، وهو فى صحيح مسلم فى أول كتاب الايمان ، وقال ابن الأثير فى جامع الأصول ١٢٨/١ : ان الحديث رواه مسلم والنسائى والترمذى وأبو داود .

البعث والحياة الآخرى · وتبين ان الموت ليس هو النهاية النهـــائية للانسان ومصيره بحيث لا يعاد للحســاب والجزاء ، وانمـــا الموت انتقال من دار الدنيا الفانية الى دار الآخرة الباقية « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئون بمـا عملتم وذلك على الله يسير)(١٤٣) ·

(كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون (١٤٤) ·

(فلا اقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على ان نبـدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ، فذرهم يخوضـــوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأحداث سراعا كأنهم الى نصيب يوفضون ، خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الـذى كانوا يوعدون) (١٤٥) ·

ومع وضوح هذه النصوص فى اثبات عقيدة البعث ، ومــع ان العقل البشرى المجرد من النزعات والأهواء لا يستطيع ان ينكر هـذه الحقيقة ويرفض ان يسوى الموت بين شخصين عب احدهما من الرذائل والآثام حتى ثمل ، واطاع الآخر ربـه فى دنيـــاه ولم يعصـه ، بل يحكم بأنه لابد من وجود حياة أخرى ـ بعد الحياة الدنيا التى تنتهى بالموت ـ يعاد فيها الانسان ليحاسب على ما قدم فى حياته الأولى ·

مع هذا كله نجد من قبل القرآن ومن بعده وعلى امتداد تاريـخ الفكر البشرى من فسدت عقولهم وعميت بصائرهم عن ادراك هـذه الحقيقة فراحوا يتشككون فى مصير الانسان بعد الموت ســواء منهم من صدر فى تشككه هذا عن فكر خالص او كان صاحب عقيدة دينية سماوية أو غير سماوية ·

---

(١٤٣) سورة التغابن : ٧ ·
(١٤٤) سورة البقرة : ٢٨ ·
(١٤٥) سورة المعارج : ٤٠ ـ ٤٤ ·

ونظرا لاختلاف العقول وتعدد المشارب تعددت الاتجاهات حول بعث الانسان ومصيره(١٤٦) .

فمن هؤلاء من أنكر البعث مطلقا — روحا وجسدا — وهم الفلاسفة الماديون ومن لا يرون غير الطبيعة فى ايجاد العالم ، ومنهم من أنكر البعث الجسدى فقط واقر ببعث الروح ، وهم المجوس والثنوية والمانوية ومن دار فى فلكهم ، والفلاسفة الالهيون . ومن هؤلاء من ذهب الى القول بالتناسخ كأفلاطون .

ومنهم من اثبت البعث للروح والجسد معا .وهذه هى العقيدة التى اقرتها جميع الرسالات السماوية ، وهى عقيدة جمهور المسلمين وان كان قد حدث خلاف بين المتكلمين المسلمين فى ماهية النفس ، فمنهم من رأى انها عرض يفنى بفناء الجسد ثم يعيد الله خلقهما عند البعث ومنهم من رأى انها جسم لطيف أو جوهر فرد يبقى بعد فناء الجسد ثم يعاد اليه عند البعث .

ومن هؤلاء من تردد فى ان النفس جوهر فيبقى بعد الموت فيعاد ، ام هو المزاج فيفنى بفناء الجسد فلا يعاد(١٤٧) ، وهذا هو المنقول عن جالينوس ، ولذلك فقد توقف فى امر المعاد الروحانى ، اما الجسمانى فانه يذكره مطلقا لأنه يجزم بانعدام الجسد ولا يجوز عنده اعادة المعدوم .

ان الله جلت قدرته قد خلق فى كل الناس — منذ خلق الله

---

(١٤٦) ذكرت هذه الاتجاهات المختلفة بالتفصيل فى كل من : شرح المقاصد لسعد الدين التفتازانى جـ ٢ ص ٢١٠ ، وشرح المواقف للسيد الشريف الجرجانى جـ ٣ ص ٢٩٧ ، والأربعين فى أصول الدين للفخر الرازى ص ٢٨٧ ، وميزان العمل للغزالى من ص ١٣ — ١٥ ، ورسالة أضحوية فى أمر المعاد لابن سينا تحقيق الدكتور سليمان دنيا ص ٣٨ — ٤٠ .

(١٤٧) يذكر ابن حزم فى كتابه (الفصل فى الملل والنحل) جـ ٥ ص ٧٤ أن جالينوس يذهب الى أن النفس عرض من الأعراض هو مزاج متجمع متولد من تركيب أخلاط الجسد . واذا كان الأمر كما ذكر ابن حزم فان جالينوس يكون من الطبيعيين المنكرين للمعاد .

الناس — شعورا خفيا يشبه الالهام بأن وراء هذه الحياة حياة اخرى يتحقق فيها العدل الالهى وينال فيها كل انسان جزاءه على ما قدم فى دنياه . يقول نورمان فنسنت بيل :

« والواقع ان الشعور الغريزى بوجود عالم آخر بعد الموت هو من اقوى الأدلة على هذا الوجود . ان الله سبحانه اذا اراد أن يقنع البشر بأمر فانه يغرس فكرة الاقتناع به فى غرائزهم ، وان الشوق الى خلود الحياة — ولو فى عالم آخر — احساس شائع فى نفوس البشر بحيث لا يمكن النظر اليه باستخفاف عام ، وانما نهفو اليه بقوة ، وما نحس به فى اعماقنا لابد ان يكون انعكاسا لقاعدة أساسية فى الوجود البشرى . ان مثل هذه الحقائق العظمى لا نؤمن بها عن طريق الدليل والاثبات المادى ، وانما عن طريق العقيدة والالهام والمشاعر النفسية وان الالهام فى ذاته عامل مهم فى الفهم العلمى للحقيقة ، وان العلماء — كما قال برجسون — عندما يصلون الى نهاية علمية تحتاج الى اثبات انهم فى ومضة الهام يصلون الى الحقيقة . ان الأبحاث العلمية تؤيد ايماننا بوجود الالهام والعقيدة، وان آراء الماديين عن العالم فى طريقها الى الزوال (١٤٨) .

ان الفلاسفة الماديين يفسرون الانسان تفسيرا ماديا بحتا حيث ينكرون الروح ويرفضون أن تكون الطبيعة الانسانية مشتملة على نفس تغاير فى طبيعتها المادة المحسوسة وصفاتها ، لذلك فقد أجمع القدماء منهم والمحدثون على انكار عقيدة البعث بعد الموت مطلقا ، لأن الموت عندهم عدم محض ، واذا كان ذلك كذلك فليس هناك عود الى حياة بعد هذه الحياة وما الأمر فى نظرهم الا أرحام تدفع وأرض تبلع ، وليس هناك يوم آخر يعاد فيه الانسان ليحاسب على ما قدم فى دنياه (١٤٩) مادام أن الفكر والشعور والعواطف — عندهم —

---

(١٤٨) « روح الدين الاسلامى » للأستاذ عفيف طباره ص ١١٦ ، ١١٧ .
(١٤٩) ينظر فى هذا : ميزان العمل للغزالى ص ١٥ ، والمواقف
=

نتيجة المادة وحدها ، وانه كما تفرز الكبد الصفراء وكما تفرز الكلية البول ، فان الفكر والارادة والعواطف هى من افراز المخ ويتوقف مقدارها ونوعها على مقدار المخ وعمله ، وكل شىء فى الحياة مادة أو مظهر من مظاهرها وليس هناك شىء يسمى الروح انما كل هذا من نسيج الخيال .

ان الماديين يذهبون الى أن الانسان هو ذلك الهيكل المحسوس بماله من المزاج والقوى والأعراض وانه بزوال الحياة يفنى ولا يبقى منه الا المواد العنصرية ـ كما هو مذهب القدماء منهم ـ أو أن الانسان بكل مكوناته مادى مكتسب من الطبيعة وليس فيه من المواد ولا من القوى ماله صلة بعالم الروح ـ كما هو مذهب المحدثين .

وأود أن أشير هنا الى ان الفلاسفة الماديين صنفان : صنف ينكر الألوهية والأديان والرسل والكتب الى غير ذلك والمبدأ والمعاد ، ويرى أن الموجود هو المحسوس ، وأن مالا ينـاله الحس بجوهره ففرض وجوده محال(١٥٠) ، وأن العالم أزلى أبدى لا بداية لـه ولا نهاية ولم يزل العالم موجودا كذلك بنفسه وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة مـ نالحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا وهؤلاء هم الزنادقة(١٥١) وفى مقدمة هؤلاء الفيلسوف الاغريقى القديم (ديمقراطس) . وهذا الصنف من الفلاسفة الماديين هم الدهريون والذين قالوا : ما حكاه القرآن عنهم : (نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) .

ولم يكن غريبا ـ والشىء من معدنه لا يستغرب ـ أن يستمر هذا المذهب الديمقراطى المادى بنظرته الالحادية المادية الى الكون

=

جـ ٨ ص ٢٩٧ ، والمقاصد جـ ٢ ص ٢٠٠ ، ورسالة أضحوية فى أمر المعاد لابن سينا تحقيق الدكتور سليمان دنيا ص ٣٨ .

(١٥٠) النمط الرابع فى الوجود وعلله من كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا .

(١٥١) المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٤٠ .

والى الانسان حتى يصل الى العصر الحديث لتتلقفه العقول المــــادية الحديثة المعاصرة تلك التى اخذت على عاتقها مهمة تطويره من حيث الأسلوب وطريقــــة التعبير عنه حتى انتشر وشــمل معظم جوانب الحيـــاة .

ومهما يكن من الأمر (فقد اشتد دعاء المادية فى القرن الماضى فى العمل على نشر مذهبهم معتمدين على ما كشفته العلوم الطبيعية من خفايا القوى الكونية زعما منهم الى ان تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضى الى نضج القوى العقلية ويكون اثر ذلك على الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيا لا تشوبه شائبة .
وكمالا علميا يؤدى بالانســـــانية الى عهدها الذهبى المنتظر دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية ، وقد بذل دعاة المادية جهد الجبـــابرة فى نشر مبـــادئهم ، فأكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤدية لمذهبهم ، وعمدوا الى طبع المؤلفـــات – التى تؤيد مزاعمهم – طبعات رخيصة لتنتشر بين طبقات الشعب، وقد تم لهم بعض ما أرادوا من زعزعة عقائد المتدينين فى شــــئون ما فوق الطبيعة ، فكانت ثمرات هـــذه الجهود التى بذلهـــا دعاة المـــاديين : تدهـــور الآداب العـــامة التى ندع وصـــفها للدكتور (ليون ووتى) الــذى قال فى كتـــاب : (الى الــذين يأملون الى الأرواح المعطلة) ترجمة محمد فريد وجدى فى مجلة الأزهر . م ١٣ ص ٤٥٢ – ٤٥٣ .

(والمذهب المادى بنفثه فى صدر الانسان نظرياته التى تقرر له انه سيفنى بعد الموت ، يطلق فيه شهواته من قيودها ، ويوجـــد فيه نهما حيوانيا لتوفيتها هذا المرض الاجتماعى الخطير المؤلف من الهستيريا وعدم الشعور يعمل على ايقاع الانسانية فى انحـــلال لا علاج له ، والانسان فى هذا الحضيض من الانحلال يشــعر بكدر عظيم ويتألم متمنيا أن تكون له حياة أفضل مما هو عليه ، ولكنـــه لا يجـد العون الضرورى لانقـــاذه مما وقع فيـــه .. فالعقلية التى تساورنا اليوم سم ناقع يجتاح انسانيتنا ، وان تسرب هذا السم القاتل

يلوث كل ما بقى فى نفوسنا من جليل ونبيل وعظيم ، والقوانين البشرية تعجز عن كبح أى جماح انسانى مادامت الاخلاق قد فقدت سلطانها على القلوب ، فنحن اذن نغرق فى انحطاط ، فاذا لم نعمل على استرداد وجودنا فسنسير قدما الى هلا كنا لأن الشر يستدعى العقاب) .

ويصف الأديب الفرنسي (فيكتور هوجو) تأثير المذهب المادى فى النفسية الانسانية فى الكلمة التى القاها فى الجمعية التشريعية التى عقدت فى باريس فى ١٥ يناير من سنة ١٨٥٠ م . ونقلها عنه الدكتور (ووتى) فى كتابه : (هل الالحاد ممكن) وترجمها الأستاذ محمد فريد وجدى فى مجلة الأزهر .

فيقول : (توجد كارثة فى زماننا هذا ، وكنت أريد أن أقول : (شبه كارثة) الا وهى : الميل الى حصر كل اعتبار فى هذه الحياة وحدها . والحقيقة أنه باقناع الانسان بأن هذه الحياة الأرضية المادية هى الغرض الأسمى من الوجود ، والنهاية التى ليس بعدها مرمى ، تتضخم جميع متاعب العيش ، وتعظم سائر تكاليفه ، وتصبح فكرة العدم غير ممكنة الاحتمال ، وينقلب الأمل وهو ناموس الهى موصل الى الكمال ناموسا من اليأس موصلا الى النار ، وقس على ذلك جميع الشئون الاجتماعية .. فالذى يخفف الجهاد ويشرف العمل ، والذى يجعل الشخص قويا متسامحا عاقلا صبورا شجاعا جريئا ، وفى الوقت نفسه متواضعا وعظيما جديرا بالحرية هو ما يتراءى له على الدوام من حياة أبدية أكمل يتألق نورها خلال غياهب هذه الحياة فواجبنا جميعا ان نوجه الرؤوس نحو السماء وان نلفت جميع الأرواح الى حياة بعد هذه الحياة يتقرر فيها العدل ويجازى كل على ما كسبت يده (١٥٢) .

هكذا تبدو خطورة الفلسفة المادية الالحادية ــ كما نطق بها

---

(١٥٢) كتاب (روح الدين الاسلامى) للاستاذ عفيف طبارة ص ١١٧ ، ١١٨ .

الغربيون انفسهم ـ والتى زحفت بكل ما تنطوى عليه من اخطار الى العصر الحديث وعمل انصارها فى هذا العصر على اذاعتها ونشرها ٠

المادية تقضى على القيم

ان المادية حين يقرر انصارها أن الانسان كالحيوان بل أخس منه وأحقر وانه ذرة تافهة فى الكون كما قال (سارتر) زعيم الوجودية الملحدة ـ الموجود الذى يشعر بأنه قد وجد جذافا ، وانه يعرف انه عبث وزائد عن الحاجة ، الى غير ذلك من نعوت الخســــة والدناءة التى ينعتونه بها انما يقضون على القيم والأخلاق الانسانية ، اذ يصبح من السهل على الانسان مادامت هذه منزلته فى هذا الوجود ان يكون بهيميا يفعل ما شاء من المنكرات والقبائح ٠

على حين أن القرآن قد كرمه وشرفه وجعله خليفة الله فى الأرض (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (١٥٣) ٠

وغير خاف أن هذا التكريم الربانى يبنى ولا يهدم ، يدفع الانسان الى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل ويدفعه الى القيام بدوره فى هذا العالم ٠

والمادية حين ينكر انصارها عقيدة البعث والحساب تخول للانسان أن يفعل ما شاء حيث ينطلق على سجيته فيحقق كل رغبة للبدن وكل شهوة دون خوف من دين أو ضمير أو حساب ويستوى عنده الخير والشر والحق والباطل ، وبهذا تنهدم القيم ويتهاوى البناء الخلقى وبالجملة فان المذهب المادى يلقى بالانســـــان فى هوة اليأس والقنوط والقلق مما يدفعه الى التخريب للمادة والروح فى الحياة البشرية ٠

على حين ان القرآن الكريم حين قرر عقيدة الايمان باليوم الآخر

---

(١٥٣) سورة الاسراء : ٧٠ ٠

وما فيه ، قد وضع الأساس الصلب لبناء القيم والأخلاق الانسانية التى لا قوام للبناء الاجتماعى الا عليها حيث يعرف كل حقوقه وحقوق غيره عليه ويشعر بالتفاؤل والأمل فى المستقبل مما يدفعه الى البناء المادى والروحى رغبة فيما اعده الله فى الآخرة من نعيم للسعداء ورهبة مما أعد فى الآخرة من عذاب دائم للأشقياء (١٥٤) .

وها هو القرآن الكريم يقيم الفلسفة المادية والتى أنكر أنصارها اليوم الآخر فيقول : (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) (١٥٥) .

ويقول : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك الغافلون) (١٥٦) .

المادية اتجاه باطل

من خلال هذا العرض السريع للاتجاهات المادية ندرك فى جلاء مدى ما يشكله هذا الفكر المادى الباطل من خطر على عقيدة الاسلام وعلى المسلمين ، مما يحتم على المسلمين فى كل عصر ومصر أن يهبوا لمقاومته ودحره وبيان زيفه وتهافته .

ومهما تستر الكفر خلف أى ستار ، أو أطلق على نفسه من الأسماء ما شاء فهو ملة واحدة . هدفها الأساسى هدم الاسلام وما جاء به من مبادىء تسمو بالروح والجسد معا ولكن هيهات .

لقد اشتمل الاسلام – ضمن ما اشتمل – على عقيدة البعث بعد

---

(١٥٤) الانسان كما يصوره القرآن ص ٤١٠ ، ١١ ٤ .
(١٥٥) سورة يونس : ٧ .
(١٥٦) سورة الأعراف : ١٧٩ .

الموت ، وهى عقيدة تعد اصلا عظيما من أصول الصلاح والاصلاح فى العالم ومع ذلك فقد جحدها الماديون حين راحوا يفلسفون الكون والانسان بمنطق العقل وحده ومن هنا ضلوا وتخبطوا ولم يصلوا الى شىء ، وهذه نتيجة حتمية لكل من يستخدم العقل فى كل مجال دون قيود أو حدود ٠

ان مجال الغيب مردنا فيه الى الوحى المعصوم ، كما أن سعادة البشر تكمن فى السير حسب المنهج الذى رسمه القرآن وبينته السنة المطهرة ٠ وكل من يحاول السير على غير هذا المنهج لا شك سيتخبط ولن يصل الى شىء شأنه فى هذا شأن من يذهب لشراء آلة حديثة ويرفض أن يتسلم معها الدليل الذى وضعه مصممها ويصر على أن يضع هو الدليل الذى تسير عليه هذه الآلة وهو الجاهل تماما بما تحويه من اجهزة ولا يدرى شيئا عما يصلحها أو يتلفها ٠

ان (شارلز داروين) صاحب مذهب التطور الذى استغله الماديون المحدثون واتخذوا منه أساسا انطلقوا منه الى انكار وجود الله واليوم الآخر نراه يقع فى الحيرة والاضطراب والشكوك فيكتب فى سنة ١٨٩٧ م الى الأستاذ (فراديس) صاحب كتاب (صور من الشكوك) يقول جوابا على سؤاله : (اننى فى اشد أحوال التردد ، لم اكن قط ملحدا اذا كان معنى الالحاد انكار وجود الله ، وأرى على العموم – وبخاصة مع تقدم السن – أننى أحرى ان اسمى (لاأدريا) وأن هذا الاسم اقرب الى الصواب فى وصف تفكيرى ٠

وقال (داروين) أيضا فى خطاب كتبه الى طالب هولندى فى الثالث من ابريل سنة ١٨٧٣ م (٠٠٠ يبدو لى أن استحالة القول بأن هذا الكون العجاب العظيم وما انطوى عليه من شعورنا الواعى ، انما كان وليد المصادفة – هو أكثر سند للقول بوجود الله ، ولكنه سند لا أستطيع أن اقر قوة اقناعه ، كما لا استطيع أن اغضى عن المشكلة التى تنم عما يتخلل هذا العالم من الآلام (١٥٧) ٠

---

(١٥٧) الانسان فى القرآن : للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٣٩ ، ١٤٠ ٠

ان الانسان المنصف هو الذى يحسن استخدام حواسه ويتأمل بعقله فيما هو مبثوث حوله من آيات كونية تدل عند تأملها على خالقها منذ الوهلة الأولى (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) . (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا اله الا هو فأنى تؤفكون) (١٥٨) .

ثم ان الرسالات السماوية كلها – وختامها الاسلام – قد اقرت عقيدة البعث بعد الموت . ولو أن الناس جميعا قد استقرت فيهم هذه العقيدة وآمنوا بها ايمانا لا يخالطه شك لاستقامت أمورهم ولكثر فيهم الخير والاحسان وقل بينهم الشر والفساد .

لقد جاء فى القرآن الكريم فى شأن الاعتقاد بوجود الله الواحد الأحد ، وفى شأن البعث بعد الموت ما من شأنه أن يقنع الناس – كل الناس – بأن الله حق وأن البعث حق ، وأن على الناس أن يقصدوا بما يأتون أو يتركون من عمل وجه الله وثوابه فى الدار الآخرة .

ولكن من البشر من غلبت عليهم شقوتهم ، وغرتهم عقولهم الخربة وأعماهم شيطانهم فتشككوا فى وجود الله واليوم الآخر .

وهذا هو الذى حدث تماما من الماديين قدماء أو محدثين . ان هؤلاء وأولئك قد فسدت فطرهم وعميت بصائرهم وأبصارهم عن ادراك الحقيقة فراحوا يزعمون أن العالم مادة فقط ولا صلة له بالروح .

وهذا قدر مشترك بين انصار المادية المطلقة الذين انكروا وجود الخالق سبحانه ولم يؤمنوا الا بالمحسوس ، وبين الذين يعترفون بالخالق تعالى منهم ، ولكنهم ينكرون البعث لعدم اعترافهم بالجانب الروحى فى الانسان كما سبقت الاشارة الى ذلك ولقد اشار القرآن الى الفريقين حيث قال مشيرا الى منكرى الخالق والبعث وهم الذين قالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى (وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

---

(١٥٨) سورة فاطر : ٣ .

وما يهلكنا الا الدهر) كما أشار الى الصنف الثانى من هؤلاء وهم الذين انكروا البعث فقط بقوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) وهم جميعا بانكارهم للبعث والجزاء قد كفروا بالأديان السماوية التى اتفقت كلها على الايمان بالله واليوم الآخر وما فيه ٠

ومن هنا نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون أن المادية اتجاه باطل عقلا وشرعا ٠

(الرد على منكرى وجود الله)

أولا : من جهة العقل :

ان الذى يزعمه الماديون على اختلاف ألوانهم وتعدد مشـــاربهم من أن العالم ليس شيئا آخر غير المادة ولا صلة له بعالم الروح انمـــا هو هراء لا يصدر الا عن حماقة ساذجة وعقول خربة انه ادعاء باطـــل يكذبه الواقع ويرفضــه العقل الســـليم ٠ اذ كيف تكون الأفكار والارادة والعواطف نتيجة للمادة وحدها وهى كثيفة جامدة ؟ وكيف يكون دور المصادفة فى هذا المجال ؟

لقد كتب الاستاذ عفيفى عبد الفتاح طبارة فى كتابه (روح الدين الاسلامى)(١٥٩) كثيرا من أقوال الغربيين والمستشرقين فى هـــذا المجال ٠ وكلها اقوال تدحض القول بالمادة او المصادفة العمياء ٠ ومما كتبه فى هذا نقلا عن كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) قول الدكتور (ايرفانج وليام)(١٦٠) ٠

(اننى اعتقد فى وجوده سبحانه لأنى لا أستطيع أن اتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الألكترونات والبروتونات

---

(١٥٩) ص : ٨٧ ٠

(١٦٠) أستاذ العلوم الطبيعية فى جامعة ميتشيجان ، وأخصائى فى وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهرى ٠

الأولى ، أو الذرات الأولى ، أو الأحماض الأمينية الأولى أو البروتوبلازم الأول ، أو البذرة الأولى ، أو العقل الأول اننى اعتقد فى وجــود الله ، لأن وجوده القدسى هو التفسير المنطقى الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التى نشـاهدها)(١٦١) وقــول الدكتور (واين أولت) عضو الجمعية الجيولوجية الأمريكية : (أما النظريات التى ترمى الى تفسير الكون تفسيرا آليا ، فانها تعجز عن تفســـير كيف بدأ الكون ، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى الى محض المصادفة ، فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله ، بقصد اكمال الصورة والبعد بها عن التشويه ، ولكن حتى بغض النظر عن الاعتبارات الدينية عامة ، نجد ان فكرة وجود الله أقرب الى العقل والمنطق من فكرة الصدفة ولا شـك ، بل ان ذلك النظام البديع الذى يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود اله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء) (١٦٢) ٠

ثم يقول صاحب كتاب (روح الدين الاسلامى) فى ص ٨٨ :

(فنظرية المصادفة لا تقوم على أى دليـــل علمى مقبول ، ولا يقبلها أى عقل سليم) ، ولهذا نرى القرآن يخاطب هؤلاء المتشككين باسلوب اقناعى يبين فيه ان الكون لابد له من مسبب وهو الله سبحانه (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) (١٦٣) أى أفى وجود الله والوهيته وحده شك ؟ وهو خالق السموات والأرض ٠

ويلفت القرآن النظر الى الحـكمة المتمثلة فى خـلق المخلوقات والتى تدل على خالق فى نهاية العلم والحكمة فيقول : (صنع الله الذى أتقن كل شىء) وجاء فى القرآن فى وصف الله سبحانه : (الذى أحسن كل شىء خلقه) (١٦٤) ٠

---

(١٦١) عن كتاب : (الله يتجلى فى عصر العلم) ص ٦٦ ٠
(١٦٢) نفس المرجع ص ١٣٣ ، ١٣٤ ٠
(١٦٣) سورة ابراهيم : ٥ ٠
(١٦٤) سورة السجدة : ٧ ٠

فالمصادفة لا تخلق وجودا فيه علم وحكمة واتقان .

وعلى هذا : فكيف يكون الفكر الذى يشعر بشخصيته نتيجة لمادة لا تشعر بشخصيتها ؟ بل كيف تكون المادة علة للفكر والعقل ؟

كيف تكون الطبيعة - وهى لا تعقـل - علة لوجود الانســـان العاقل ، مع أن من المسلم به أن فاقد الشىء لا يعطيه ؟

وكيف يكون هذا الكون العجيب من حيث دقة صنعه وما اشتمل عليه من تدبير ونظام من صنع أجزاء المادة ؟

انه لمن المعروف بداهة أن اجزاء المادة وعناصرها الاصيلة فاقدة للفكر والتدبير ، فكيف يمكن أن تجتمع هذه الأجزاء وتلك العناصر وتتداول فيما بينها وتتفق على صنع تنوعات هذا العالم بهذا الشكل الذى نراه ؟

وكيف تكون هذه التنوعات قد حصلت بطريق المصادفة بمعنى أن أجزاء المادة وعناصرها العمياء تلاقت وتمازجت بطريق المصادفة ، على نسب صالحة بطريق المصادفة أيضا ، وفى مدد كافية بطريق المصادفة ، وفى أجواء متلائمة بطريق المصادفة ، وفى معزل عن الموانع بطريق المصادفة أيضا ؟ فكونت هذه التنوعات وخلقت الحياة وفيها ما فيها من دقة ونظام واحكام ؟

ان شـأن من يقـول بالمصادفة كشأن من يعطى صـبيا أعمى كيسا فيه ابر مرقمة من ١ الى ١٠ أو الى ١٠٠ أو الى ١٠٠٠ مثلا ويطلب منه أن يمد يده فى الكيس ليخرج الابرة رقم (١) ثم يقذفها لتأتى فى مكان محدد ، ثم يطلب منه أن يمد يده فى الكيس مرة ثانية ليخرج الابرة رقم (٢) ثم يقذفها لتدخل فى ثقب الابرة رقم (١) وهكذا - وبطريق المصادفة - يقذف الصبى الأعمى بكل ابرة يخرجها من الكيس بحسب الأرقام لتدخل كل ابرة فى ثقب سابقتها دون أن يخطىء حتى يتم الابر العشر او المائة أو الألف وهكذا .

ثانيا : من جهة الشرع :

ان القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان يدفعنا الى التأمل فى أنفسنا وفيما حولنا من آيات كونية لنصل من خلالها الى معرفة الصانع . فهل يستطيع عاقل ان يقول : ان هذه السماء التى يقول الله عنها بكل جبروت الألوهية (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) من صنع المادة وحدها ؟ ان هذه السعة التى تحدثت عنها الآية قد عرفها العلم بما لم يكن يخطر على قلب بشر وفى بيان ذلك يكفى ان نذكر على سبيل المثال ان العلماء قالوا : انهم رأوا فى السماء مئات الملايين من النجوم الثوابت المعروفة المقدرة أقدارا ، وأقربها الينا يبعد عنا أربع سنوات نورية تقريبا ، والنور يقطع فى الثانية الواحدة (١٨٦ الف ميل) أى فى الدقيقة نحو (١١ مليون ميل) أى فى السنة من سنينا العادية يقطع (ستة ملايين مليون ميل) تقريبا فيكون البعد بيننا وبين أقرب نجم الينا أكثر من (٢٣ مليون ميل تقريبا) .

هذا هو بعد النجم الأقرب ، فتصوركم يكون بعد النجوم البعيدة عنـــا (١٦٥) ؟ وقد يقال : ان هذا الذى ذكرته عن السماء لا يدل الا على السعة التى تدل على العظمة الهائلة ولكنه لا يدل على النظام فقد تكون السعة الزائدة مرافقة للعماء والفوضى .

وهنا نقول : أن ما فى الفضاء الواسع من النجوم الثوابت التى بلغ ما عدده العلماء منها مئات الملايين . كيف يسبح هذا العدد الهائل من هذه النجوم فى هذا الفضاء بدون ان يتصادم احدها بالآخر ؟ يقول العلم : ان هذه النجوم ثوابت ولها مواقع وأن نسبة مواقعها بعضها الى بعض لا تتغير مطلقا ، وان سألت نفس العلماء الماديين القائلين بالمصادفة ، ما سر هذا الثبات والتوازن ؟ قالوا لك هو ناموس الجاذبية العظيم الذى عرفنا قوانينه ومظاهره ولم نعرف حقيقته .

---

(١٦٥) انظر كتاب : « الجواب الالهى » للأستاذ نديم الجسر ص ٧٩ .

فهل يكون الناموس وليد العماء والفوضى والمصادفة (١٦٦) ؟

تأمل فى هذا كله وأتل معى قوله تعالى :

(وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) .

وقوله تعالى :
(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) .

وقوله تعالى :
(الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها) .

وقوله تعالى :

(الذى خلق سبع سماوات طبقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هـل ترى من فطور . ثم ارجـع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) (١٦٧) .

وقوله تعالى :

(فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) (١٦٨) .

فهل هذا كله من خلق المصادفة أو المادة أو الطبيعة ؟

وهل هذه النجوم الثوابت التى أقسم الله بمواقعها التى لا تتغير على مر الدهور وما لها من أقدار ونسب يمكن أن تكون من صنع المصادفة العمياء ؟ أو الطبيعة الجامدة ؟

والحق أن هذه البلايين من النجوم الموزعة توزيعا منتظما فى

---

(١٦٦) الجواب الالهى ص ٨٠ .
(١٦٧) سورة الملك : ٣ ، ٤ .
(١٦٨) سورة الواقعة : ٧٥ ـ ٧٦ .

هذا الكون وتحركاتها وفق قانون معلوم بحيث لا تصطدم ببعضها لبرهان على وجود الله لا يقف أمامه برهان ولذلك اقسم الله بمواقعها . وختم الآية بقوله : (وانه لقسم لو تعلمون عظيم) وهذا تعبير يدرك سره علماء الفلك وخاصة بعد اختراع المناظير الضخمة التى أرتهم من عجائب الكون ما كان خافيا عليهم .

يقول اينشتين : (ان دينى يشتمل على الاعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحددة والتى تكشف فى سرها عن بعض التفصيلات القليلة التى تستطيع عقولنا المتواضعة ادراكها ، وهذا الايمان القلبى العميق والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع ادراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمنى فكرتى عن الاله) (١٦٩) .

أدلة البعث فى القرآن الكريم

لقد انفرد القرآن الكريم فى عرض البراهين والدلائل بأسلوب يستهوى النفس وينفذ الى القلب ، ولا يكاد الانسان يقرأ او يسمع آياته ، وخاصة ما يتعلق منها بعرض الأدلة والبراهين الا ويرى نفسه مسوقا للتأمل فيما يقرأ أو يسمع وللتدبر فيما يلقى اليه - وان كان مخالفا لعقيدته - ومفندا لرأيه ومبطلا لما درج عليه من مذاهب واهواء .

ومع جمال أسلوبه وروعته وعذوبته يتوجه الى العقل ، ويخاطب جميع القوى المدركة والمؤثرة فى النفس ، كما يمتاز بالتدرج فى التدليل حيث يسير فى الدليل من مرحلة الى مرحلة مستخدما الاثارة الوجدانية تارة ، وتحريك العاطفة تارة أخرى كما يهز مشاعر الرجاء والخوف ، ويوجه النظر الى المحس المشاهد ، ويقيس عليه البعيد الغائب ، ويقطع السبيل على المجادل ، ويسد جميع الثغرات أمام المناظر حتى

---

(١٦٩) « روح الدين الاسلامى » ص ٦٩ عن كتاب : « العالم اينشتين »، تأليف « لنكون بايرنت » ترجمة محمد البرقوقى ص ١١٦ .

لا يجد غضاضة فى التســـليم ولا مرارة فى القبول ولا محيصـــا من الاذعان (١٧٠) ٠

وتمشيا مع هذا النســـق القرآنى عرفنا كيف ان القرآن عرض ما استند اليه المنكرون للبعث من شبه ، كما استعرضنا نقض القرآن وابطاله لكل شبهة منها ، وهنا نذكر كيف دلل القرآن على البعث وكيف سلك فى سبيل ذلك انواعا من الأدلة منها ما يقنع المؤمن وغيره ومنها لا يقتنع به الا المؤمنون ٠

والحق ان القرآن قد اقام مئات الأدلة على صحة التسليم بعقيدة البعث وأثبت للعقل أن البعث ممكن الوقوع ، كما أثبت أن البعث واجب شرعا لتواتر الخبر الصادق بأنه حتم سيكون ٠

وسأسوق اليك طرفا من هذه الأدلة المتنوعة كما جاءت فى كتاب الله فيما يلى :

وأبدأ بذكر الأدلة القرآنية التى تخاطب العقل والتى يقتنع بها المؤمنون وغير المؤمنين ٠

أولا : من هذه الأدلة دليل يستهدف العقل مباشرة وحاصله :

أن اعادة الحياة الى الانسان بعد موته مثل بل اسهل – فى منطق العقل – من ابتداء الحياة فيه بعد أن كان عدما ، والعقل البعيد عن الهوى والغرض يشهد بذلك وقد اشار القرآن الكريم الى هذا الدليل فى أكثر من آية ٠

فقال تعالى :

(وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه وله المثـل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (١٧١) ٠

---

(١٧٠) « نفحات من عبير الأدب » للدكتور محمد سرحان ص ٣٢ ٠
(١٧١) سورة الروم : ٢٧ ٠

هذا . وينبغى إن نشير هنا الى أن المراد بالاهونية التى وردت فى الآية ـ والله اعلم ـ الاهونية بالنسبة لقدر العباد ، حيث تعودوا أن الشىء المعاد هو بالنسبة لقدرهم يكون اهون واسهل من الشىء المبتدأ ، أما بالنسبة لقدرة الله تعالى فلا تفاوت فيها بين هين واهون وسهل واسهل بل جميع الممكنات بالنسبة لقدرته تعالى سواء لا تفاوت فيها بالاهونية .

ولذلك قال تعالى فى الآية نفسها :

(وله المثل الاعلى فى السموات والأرض) .

ويدخل فى نطاق هذا الدليل قوله تعالى :

(كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين) (١٧٢) .

وقوله تعالى :

(افعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) (١٧٣) .

ثانيا : ومن هذه الأدلة :

دليل مستمد من الطبيعة ومن التأمل فى الكون . فنحن ننظر الى الأرض الجرداء التى لا نبات فيها فنراها أرضا ميتة لا حيـــاة فيها ، ثم ينزل الله عليها المطر فتدب فيها الحياة وينبت فيها الزرع بمختلف اشكاله والوانه وأنواعه .

وهذا نموذج جيد ومثال حى لما سيحدث عند البعث (١٧٤) ، وقد نص القرآن الكريم على هذا فى أكثر من موضع .

فقال تعالى :

(وترى الأرض هامـــدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت

---

(١٧٢) سورة الانبياء : ١٠٤ .

(١٧٣) سورة ق : ١٥ .

(١٧٤) المدخل الى الثقافة الاسلامية للدكتور محمد رشاد سالم ص ٢٠٤ .

وانبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيى الموتى وانه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور) (١٧٥) .

وفى هذا يقول عز من قائل : (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) (١٧٦) ، ويقول : (ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا بـه جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) (١٧٧).

وقد روى فى هذا المعنى حديث رواه الامام احمد بسنده ، عن أبى رزين العقيلى قال : اتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى قال : (امررت بأرض من ارض قومك مجدبة ثم مررت بها مخصبة ؟ قال : نعم . قال : كذلك النشور) .

وعن معـاذ بن جبل قال : من علم ان الله هو الحق المبين ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من فى القبور ، دخل الجنة .

ثالثـا : ومن هذه الأدلة :

دليل نجده فى كتاب الله مستمد من وجود الموجودات فان خلق السموات والأرض اعظم من خلق الانسان والله الذى خلقها قادر على كل شىء وقادر على احياء الانسان بعد موته (١٧٨) . انه دليل عقلى مشاهد ومحسوس يشير اليه قوله تعالى :

(أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على ان يخلق

---

(١٧٥) سورة الحج : ٥ – ٧ .
(١٧٦) سورة فاطر : ٩ .
(١٧٧) سورة ق : ٩ – ١١ .
(١٧٨) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

مثلهم بلى وهو الخلاق العليم · انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون · فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون) (١٧٩) ·

وقوله تعالى :

(او لم يروا ان الله الذى حلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى انه على كل شىء قدير) (١٨٠) ·

وقوله تعالى :

(افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج · والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيـج · تبصـــرة وذكـرى لكل عبد منيب) الى ان قال : (كذلك الخروج) (١٨١) ·

رابعا : ومن هذه الأدلة :

ما يستنبط من الأطوار المختلفة التى يمر بها خلق الانسان وهو جنين فى بطن امـه ، ثم بعد ولادته حتى يتوفاه الله وفى هذا يقول الله تعـالى :

(يا ايها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج · ذلك بأن الله هـو الحق وانه يحيى الموتى وانه على كل شىء قدير · وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) (١٨٢) ·

وفى هذا يقول الله تعالى : (ايحسب الانسان أن يترك سدى · الم

---

(١٧٩) سورة يس : ٨١ – ٨٣ ·
(١٨٠) سورة الأحقاف : ٣٣ ·
(١٨١) سورة ق : ٦ – ١١ ·
(١٨٢) سورة الحج : ٥ – ٧ ·

يك نطفة من منى يمنى • ثم كان علقة فخلق فسـوى • فجعل منـــــه الزوجين الذكر والأنثى • أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى(١٨٣) •

خامسا : ومن هذه الأدلة :

دليل مستنبط من نوم الانســـان ويقظته • ويمكن لأى عاقل أن يلاحظه كل يوم فى الصباح وفى المساء • فان النوم أخو الموت ، واليقظة تشبه البعث (١٨٤) •

وفى هذا يقول الله تعالى :

(الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (١٨٥) •

ولذلك أراد النبى ﷺ أن تتحول هذه الحقيقة الاعتقادية الى أمر واقعى عملى نتذكره كل صباح ومساء حتى لا نغفل يوما واحدا عن مصيرنا ، فأمرنا أن نقول عند النوم (فيما رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : (باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ان امسكت نفسى فاغفر لها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) •

وفى دعاء آخر رواه مسلم عن ابن عمر عن النبى ﷺ : (اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها لك مماتها ومحياها ان أحييتها فاحفظها وان أمتها فاغفر لها اللهم انى أسألك العافية) •

أما عند اليقظة فقد ندب النبى ﷺ المسلمين الى هذا الذكر • الذى جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة : (الحمد لله الذى عافانى فى جسدى ورد على روحى وأذن لى بذكره) • أو أن نقول — كما جاء فى الصحيح عن حذيفة وأبى ذر : (الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور) (١٨٦) •

---

(١٨٣) سورة القيامة : ٣٦ — ٤٠ •
(١٨٤) المرجع السابق ص ٣٠٥ •
(١٨٥) سورة الزمر : ٤٢ •
(١٨٦) المصدر السابق ص ٣٠٥ •

سادســا :

دليل موجود فى كتاب الله سبحانه فى الآيات التى تذكرنا بأنه سبحانه قادر على ان يخرج الشىء من ضده ، وأنه فى حياتنا الدنيــا وأمام أعيننا يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى كما فى قوله تعالى : (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) (١٨٧) .

يقول « ابن جرير الطبرى » (١٨٨) ان أفضل تفسير لهــذه الآية هو قول من قال : ان الله تعالى يخرج الانسان الحى و البهائم الحيــة من النطفة الميتة ويخرج النطفة الميتة من الانســان الحى والبهائم الأحياء .

ومثل « ابن كثير » (١٨٩) لذلك باخــراج الزرع من الحب والحب من الزرع والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة .

وفى هذا يقول الله تعالى : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا انتم منه توقدون) (١٩٠) .

يقول « ابن قيم الجوزية » فى توضيح وتفسير هــذه الآيــة :

(فأخبرنا سبحانه باخــراج هذا العنصر الذى هو فى غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة ؛ فالذى يخرج الشىء من ضده هو الذى يفعل ما أنكره الملحد من احياء العظام وهى رميم) (١٩١) .

هذه نماذج من الأدلة النقلية والعقلية على البعث . وقد قلت : انها نقلية لأنها الأدلة الشرعية المنقولة من كتاب الله ، كما قلت انها

---

(١٨٧) سورة آل عمران : ٢٧ .
(١٨٨) تفسير الطبرى طبع دار المعارف ج ٦ ص ٣٠٩ .
(١٨٩) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٦ .
(١٩٠) سورة يس : ٨٠ .
(١٩١) مختصر الصواعق المرسلة ج ١ ص ٦٦ ، وينظر كذلك : (المدخل الى الثقافة الاسلامية ص ٢٠٧ .

عقلية لأنها برغم انها نقلية الا انها تقنع العقلاء وعلى ذلك فهى ادلة من شانها ان تقنع المؤمن وغيره .

بقى ان نورد امثلة للأدلة النقلية فقط على اثبات هذه العقيدة والتى لا يقتنع بها الا المؤمنون .

الأدلة النقلية على البعث :

من هذه الأدلة :

قوله تعالى : (بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . ائذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) (١٩٢) .

وليس من شك فى ان المتامل فى هذه الآيات يدرك ان الله سبحانه ينبه البشر الى انه يعلم ما يتحلل من جسم الانسان بعد موته وانه ما من جزء من اجزائه الا وهو معلوم لديه ومحفوظ عنده وان اختلط بالأرض وامتزج بالتربة (ومن العجيب انه فى الوقت الذى قرر فيه العلماء ان المادة لا تفنى ومع ما نعلمه من قدرة علماء البشر على استخلاص العناصر والمواد البسيطة من المركبات ، مايزال هناك من يشك فى قدرة الله على ارجاع الأجسام الميتة الى حالتها التى كانت عليها - بكل تفصيلاتها - قبل الموت . (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

هذا ولعل فى آيتى سورة القيامة ما يشير الى قدرته سبحانه على اعادة ادق اجزاء الجسم الى حالتها السابقة قبل الموت مهما اصابها من تغيير وتبديل وذلك فى قوله تعالى : (ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوى بنانه) فذكر البنان - وهى اطراف الأصابع يرتبط بما نعلمه من اختلاف بصمات الأصابع البشرية بحيث لا تتشابه بصمة انسان مع آخر) (١٩٣) . منذ خلق الله الانسان والى ان تقوم الساعة .

٢ - ومن الأدلة النقلية على البعث :

قوله تعالى : (افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا

---

(١٩٢) سورة ق : ١ - ٤ .

(١٩٣) المدخل الى الثقافة الاسلامية ص ٢٠٧ .

لا ترجعون . فتعـــالى الله الملك الحـــق لا اله الا هو رب العرش الكريم) (١٩٤) .

وهذا الدليل يستند الى أن انكار البعث يتنافى مع الايمان بحكمة الله تعالى فالنص ينكر على منكرى البعث مقولتهم فى أن الانسان لم يخلق لحكمة معينة بل كان خلقه عبثا وهو بذلك لن يحاسب ولن يعاقب أو يثاب . وينزه الله تعالى عن ذلك .

وفى هذا المعنى أيضا يأتى قوله تعالى : (أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) (١٩٥) .

٣ — ومن الأدلة النقلية على البعث :

ذلك الذى أخبرنا به جلت قدرته بما كان بين ابراهيم عليـه السلام وبين الملك (النمرود) الذى رد على قول ابراهيم أن الرب تعالى هو الذى يحيى ويميت بقوله : (أنا أحيى وأميت) فأفحمه ابراهيم بأن قال له :

(فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وهنا لم يستطع النمرود الرد على ابراهيم (فبهت الذى كفر) .

٤ — وفى الآية التى تلت هذه الآية من سورة البقرة يخبرنا الله سبحانه بهذا الذى مر على قرية وقد خربت وأصبحت أطلالا فتساءل متعجبا :

كيف يحيى الله هذه القرية بعد خرابها ؟

فأراه الله كيفية ذلك فى نفسه وفيما كان معه من طعام وشراب اذ أماته مائة عام وأمات حماره معه ، ثم أحياهما بعد موتهما وسأله :

---

(١٩٤) سورة المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .
(١٩٥) سورة القيامة : ٣٦ — ٣٩ .

كم لبثت ؟

فرد قائلا : لبثت يوما أو بعض يوم .

فقال الله له : بل لبثت ميتـــا مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك تجدهما لم يتغيرا أو يفسدا مع مرور السنين ، وانظر الى حمارك كيف نرفع عظامه ونحركها ونردها الى مكانها من الجســـم ثم نكسوها لحما كما فعلنا مع عظامك وجسدك فاقر بقدرة الله سبحانه على كل شيء .

ولندع القرآن الكريم يسوق لنا هذا الدليل : (او كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال انى يحيى هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلنك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكســـوها لحمـــا فلما تبين له قال أعلم ان اللـــه على كل شيء قدير) (١٩٦) .

٥ ـ ثم يلى هذا الدليل مباشرة دليل آخر على قدرة الله سبحانه على البعث فى سورة البقرة حيث يذكر الله ما كان من ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين طلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى فأمره عز وجل أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن الى أجزاء ويفرق تلك الأجزاء على رؤوس عدة جبال ثم يدعوهن اليه ، فلما فعل ذلك تجمعت الأجـزاء المتفـرقة ودبت الحيـاة فى الطيـور واقبلت طائـرة نحوه (١٩٧) .

وفى هذا يقول الله تعالى : (واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم) (١٩٨) .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان ابراهيم عليه السلام ـ كما هو

---

(١٩٦) سورة البقرة : ٢٥٩ .
(١٩٧) تفسير الطبرى ج ٥ ص ٣٤٢ .
(١٩٨) سورة البقرة : ٢٦٠ .

واضح من الآية — لم يكن شاكا فى قدرة الله تعالى على احياء الموتى — كما يدعى الخصوم — بدليل انه ســـال عن كيفية الاحيـــاء ، ثم ان ابراهيم عليه السلام يعلمعلم اليقين قدرة الله على البعث بعد الموت ولكنه أراد ان يصل الى عين اليقين والتى هى ارقى من علم اليقين .

ويمكن ان يقال : ان ابراهيم عليه السلام سأل ربه عن كيفية الاحياء — كما هو واضح من الآية — ولم يسأله عن الاحياء نفسه ، وهذا لا يضر بالعقيدة .

وها هى قصة اهل الكهف التى وردت فى القرآن الكريم من اعظم الأدلة على قدرته سبحانه على البعث .

واهل الكهف جماعة من الشباب الكاملين فى شبابهم . كانوا خائفين على ايمانهم من قومهم الكفار فأوى هؤلاء الشباب الى غار فى الجبل . فضرب الله على آذانهم وانامهم سنين معدودة ثم بعثهم اللـه أى أيقظهم ليعلم علم مشـــاهدة اى الفريقين المختلفين فى مـدة لبثهم احصى واضبط لما لبثوا أمدا . وقد قص الله نبأ هؤلاء على رسوله الكريم واخبره بانهم كانوا فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى وقـــوم قلوبهم على قول الحق حين قاموا بين يدى ملكهم وقد امرهم بالسجود للأصنام فقالوا : (ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها) اذ اننا ان دعونا الها غيره فرضا نكون قد شططنا وافرطنا فى الكفر . لقد قالوا هذا فى الوقت الذى كان فيه قومهم قد افتروا على الله كذبا فعبدوا من دون الله آلهة اخرى .

قال بعض هؤلاء الفتية لبعض : (واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهىء لكم من امركم مرفقا) أى يهيىء لكم ربكم ما تترفقون به من غذاء وعشاء .

ومن عجائب قدرة الله سبحانه ان الشمس كانت اذا طلعت تراها تميل عن كهفهم ناحية اليمين ، واذا غربت كانت تتركهم وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم أبدا وهم فى متسع من الكهف ينالهم برد الريح ونسيمها وهذا من غير شك من آيات الله العجيبة ودلائل قدرته سبحانه (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) .

ان هؤلاء الفتيـــة وهم فى كهفهم على حالتهم هذه لو رأيتهم

حسبتهم ايقاظا اى منتبهين لأن اعينهم متفتحة فى حين انهم نيــام ولقد بلغ من لطف الله بهؤلاء الشباب انه سبحانه كان يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال كيلا تأكل الأرض من لحومهم • فى الوقت الذى كان فيه كلبهم باسط يديه بفناء الكهف وكانوا اذا انقلبوا انقلب هو مثلهم فى النوم واليقظة ولقد بلغ من حماية الله لهم انه منعهم بالرعب من دخول احــد عليهم •

(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) •

وكما فعل الله بهم ما ذكر ، كذلك بعثهم وأيقظهم ليتساءلوا فيمــا بينهم عن حالهم ومدة مكثهم فى الغار : (قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لأنهم دخلوا الكهف عند طلوع الشمس وبعثوا عند غروبها فظنوا انه غروب يوم الدخول • ثم قالوا متوقفين فى ذلك (ربكم اعلم بما لبثتم) •

ثم طلبوا من احدهم أن يذهب ليشترى بالفضة طعاما من احل الأطعمة من المدينة دون أن يشعر به احد ، اذ لو شعر اهل المدينة بهم لقتلوهم رجما او اعادوهم فى ملتهم • ويقال أن المدينة المقصودة هى « طرطوس » بسوريا •

ويشاء الله الذى بعثهم ان يطلع عليهم قومهم والمؤمنين ليعلم هؤلاء القوم أن وعد الله بالبعث حق وان الساعة آتية لا ريب فيها ، اذ القادر على انامتهم هذه المدة الطويلة وابقائهم على حالهم بلا غذاء قادر على احياء الموتى •

لقد تنازع المؤمنون والكفار فى أمر الفتية فى البنــاء حولهم فقــال الكفار : ابنو حولهم بنيانا يسترهم (ربهم اعلم بهم) •

اما المؤمنون فقالوا : لنتخذن حولهم مسجدا يصلى فيه ، وفعل ذلك على باب الكهف •

وفى زمن النبى ﷺ حدث تنازع فى عدد هؤلاء الفتية ، فقال البعض هم : (ثلاثة رابعهم كلبهم) •

وقال البعض : هم (خمسة سادسهم كلبهم) •

وهذان القولان لنصارى نجران (رجما بالغيب) اى ظنا فى الغيبة عنهم ٠

اما المؤمنون فقالوا : هم (سبعة وثامنهم كلبهم) ٠

ويلاحظ : ان القرآن وصف القولين الأولين بالرجم ، ولم يصف به القول الثالث وهو قول المؤمنين ، وفى هذا دليل على انه قول صحيح ومرضى ٠

ومهما يكن من الامر ، فقد قال الله لرسوله :

(قل ربى اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل)٠

قال ابن عباس : انا من القليل ٠ وذكرهم سبعة : (فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا) بما انزل عليك ولا تطلب الفتيا من احد من اهل الكتاب اليهود ٠

وسأل اهل مكة رسول الله عن خبر اهل الكهف فقال : اخبركم بها غدا ولم يقل : ان شاء الله فنزل :

(ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله) ٠

اى : الا متلبسا بمشيئة الله ٠

(واذكر ربك) اذا نسيت التعليق بالمشيئة ويكون ذكرها بعد النسيان : (وقل عسى ان يهدين ربى لأقرب من هذا) : اى خبر اهل الكهف فى الدلالة على نبوتى (رشدا) اى هداية ٠ وقد فعل الله ذلك ٠

ويقص القرآن الكريم ان هؤلاء الفتية ظلوا فى كهفهم (ثلاث مائة سنين) وهذه السنون الثلثمائة عند اهل الكتاب شمسية ، وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين ولذلك قال الله تعالى : (وازدادوا تسعا) (١٩٩) ٠

فالله الذى ينيم هؤلاء الشباب هذا العدد الهائل من السنين ثم يوقظهم قادر على احياء الموتى وبعثهم للحساب والجزاء ٠

واذا كان الله قد اخبرنا ان عيسى عليه السلام كان يجعل الطين

---

(١٩٩) تفسير الجلالين ط٠ المكتبة الشعبية ص ٢٤٤ — ٢٤٦ ٠

كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وانه كان يدعو الأعمى والأبرص فيشفيان باذن الله ويدعو للميت فيحيا باذن الله فهل يسوغ لبشر ان ينكر عليه سبحانه اعادة الموتى ؟

٧ - أضف الى ما سبق ان القرآن يدلل على البعث من خـــلال ايضاحه للغاية التى من اجلها خلق الانسان وهى العبادة والتكليف ، ولا تتحقق الغاية من العبادة والتكليف الا بالبعث والجزاء والا كان ايجاده وتكليفه عبثا ، والله تعالى منزه عن ذلك ٠

وفى هذا يقول الله تعالى :

(افحســـبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينـــا لا ترجعون) ٠
(أيحسب الانسان أن يترك سدى ٠ ألم يك نطفة من منى يمنى ٠ ثم كان علقة فخلق فسوى ٠ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ٠ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) (٢٠٠) ٠

وها هو القرآن يصرح بالغاية من وجود الانسان وتكليفه ويقرر انها الجزاء ثوابا وعقابا حيث قال فى بيان الحكمة من تكليف الانسان وحمله للأمانة دون غيره من المخلوقات (٢٠١) ٠

(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما) (٢٠٢) ٠

٨ - ثم كيف تتحقق العدالة الالهية اذا لم يكن هناك بعث بعد الموت ؟ انه لكى تتحقق العدالة الالهية لابد وان يكون هناك يوم يبعث فيه الانسان ويثاب فيه المحسن ويعاقب فيه المسىء ٠

والى هذا يشير القرآن فى اكثر من آية فيقول الله تعالى :

---

(٢٠٠) سورة القيامة : ٣٦ - ٤٠ -
(٢٠١) الانسان كما يصوره القرآن ص ٤٠٤ ٠
(٢٠٢) سورة الأحزاب : ٧٣ ٠

(ان الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) (٢٠٣).

ويقول :

(اليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا انه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون) .

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ام نجعل المتقين كالفجار) (٢٠٤) .

ويقول عز من قائل :

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنـــوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) (٢٠٥) .

وبعد ، فهذه نماذج من الأدلة القرآنية لاثبات عقيدة البعث ، وكلهـا شواهد صدق ، وآيـات حق لا يملك المنكرون حيالهـا جوابـا ، ولا يستطيعون لها ردا لوضوحها فى اثبات هذه العقيدة الايمانية .

وفى ختام هذه المجموعة من الأدلة القرآنية الرائعة التى سقناها لاثبات عقيدة البعث بعد الموت نذكر سورة كاملة من سور القرآن الكريم تتحدث من أولها الى آخرها لتعالج اخطر مشكلة دينية لاقت وتلقى معارضة الجاحدين فى كل زمان ومكان ممن طمس الله ابصارهم فلم يستبينوا وجه الصواب فى حقيقة البعث يوم يقوم الناس لرب العالمين ، بل جحدوه عن اصرار وحسبوا أن الحياة تنتهى الى فناء دائم فنزلت الآيات المكية تؤيد بعث الناس بالحجة الدامغة فى يوم تشخص فيـه الأبصار .

---

(٢٠٣) سورة طـه : ١٥ .
(٢٠٤) سورة ص : ٣٦ ، ٢٧ .
(٢٠٥) سورة الجاثية : ٢١ .

لقد جاءت سورة (ق) ناطقة بالبرهان الواضح فى هذه القضية الحاسمة لتكون حجة دامغة امام المنكرين .

ان عقيدة البعث ذات نفع محتوم للانسانية جمعاء ، انها تنبه الرقيب الدينى فى القلوب المؤمنة فتجعل صاحبها يفكر فى الشر قبل ان يقترفه ولك ان تتصور مؤمنا يثق بالعودة الى الله يوم ينفخ فى الصور فاذا الأمـوات احياء ينسـلون من أجداثهم سراعا كأنهـم الى نصب يوفضون ، ثم تقرن هذا المؤمن الواثق من حسـاب ربـه بجاحد فوضوى او اباحى وجودى او ملحد شيوعى ممن لا يؤمنون بيوم الحساب ، ثم تنظر ايهما تثق به فى معاملاتك ؟ وعلى من تعتمد فى اسرارك ؟

انك تجد المؤمن بالبعث خائفا وجلا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فاذا اقترف اثما ادركه وركبته الحيرة وتصور موقف الحسـاب وانتصاب الميزان وعبور الصراط ، فرعا حق الله فى الأمانة والصدق والاخلاص .

اما الملحد فيأتى الذنب الفادح مجتهدا الا يراه احد من البشر ساعة الجريمة كيلا يشهد عليه شاهد فيؤاخذ بالعقاب الدنيوى وحـده حسب تصوره ، فاذا اتيحت له فرصة الاجرام بعيدا عن المسئولية اخذ يأتى الجريمة آمنا هادئا غير خائف ادنى مغبة ، لان جحود البعث قد منع من خاطره احتمال اى جزاء صارم بعد الموت ، ولن نقول ان جميع المؤمنين بعقيدة البعث امناء فلو شاء الله لجعل الناس امة واحدة ولكننا نقول انهم اقرب الى الشرف واخوف من المسئولية ، واوقع فى الندم اذا اقترفوا المنكر ، اما غيرهم فيفرح بالجريمة اذا ارتكبها دون ان تقع عليه عين القانون ، ولك ان تتصور مجتمعا ملحدا يعيش كل اعضائه دون اعتقاد جازم بيوم الحساب هل يمكن ان يكون مجتمعا سعيدا

الايمـــان بالقـــدر

لا جدال فى ان الايمان بالقدر (٢٠٦) ركن من اركان الايمـــان، فعندما ســـأل جبريل محمدا ﷺ عن الايمـــان – فى حديث جبريل المشهور – ذكر من جملة اركانه قوله : (وان تؤمن بالقدر خيره وشره) ومعنى هذا القول : ان الخير والشر فى الكون يجريان حسب مقادير وسنن واسباب اقتضتها حكمة الله تعالى ، وانه سبحانه خلق كل شىء بارادته ، وكل ما فى الكون موافق لما سبق فى علمه تعالى ٠

وعند تصفحنا لكتـــاب الله عز وجـــل نرى القـــرآن يحدثنـــا عن القدر على انه نظام سماوى شأنه فى ذلك شأن القوانين الســـــماوية الأخرى ولكنه لم يتعرض لوجوب الايمان به ٠

لقد جاءت كلمة (القدر) – بفتح الدال وسكونها – فى مواضـــع متعددة فى القرآن ، واذا تأملنا فى معناها رأينا ان القدر والمقـــدار والتقدير وردت بمعنى : جعـــل الشىء بمقيـــاس مخصوص او وزن محدود يجرى على سنة معلومة ٠ فالله تعـــالى يقول : (وانزلنـــا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض) (٢٠٧) ويقول عز من قائل : (الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار) (٢٠٨) ويقول سبحانه ايضا : (من اى شىء خلقه ٠ من نطفة خلقه فقدره) (٢٠٩) وهكذا ٠ ومن هـــذه الآيات وغيرها يتضح لنا ان عقيدة القدر فى القرآن تعلم المؤمنين ان هذا الكون يسير وفق نظام دقيق ، وسنن مطردة ارتبطت فيها الأسباب بالمسبـــبات ، وان ليس فى خلق الله اى خلل او مصادفات ٠ وهذا الاعتقاد يجعـــل

---

(٢٠٦) يرجع فى هذا لمقالة الشيخ رشيد رضا فى مجلة المنار ، ومقـــالة الشيخ محمد عبده ، فى مجلة العروة الوثقى ٠ وينظر كتاب (روح الـــدين الاسلامى)ص ١٥٢ – ١٥٥ ٠

(٢٠٧) سورة المؤمنون : ١٨ ٠

(٢٠٨) سورة الرعد : ٨ ٠

(٢٠٩) سورة عبس : ١٨ ، ١٩ ٠

اهله أجدر الناس بالبحث فى نظام الخلق ، والتعرف على سنن الله فى الكائنات ، وطلب الأشياء من أسبابها .

مسالة اختيار الانسان :

ان نظرة فى القرآن - فيما يتعلق بمسألة اختيار الانسان - من شانها ان تكشف لنازيف المطاعن التى وجهها اعداء الاسلام اليه وذلك حيث زعموا أن الايمان بالقدر فى الاسلام هو من أهم اسباب ضعف المسلمين وتخلفهم عن الغربيين فى العلوم والفنون والحكم ، لأن عقيدة القدر - حسب زعمهم - تعطل المدارك وتميل بصاحبها الى الكسل انتظارا لما يأتيه من الغيب .

ونحن لو نظرنا الى القرآن فى هذا الشأن لأدركنا مبلغ ضعف هذه التهمة . ويتضح لنا ذلك فى كلام الله سبحانه عن المشركين حين احتجوا بأن اعمالهم السيئة انما كانت بارادة الله ومشيئته ، فقد رد الله سبحانه عليهم بقوله : (سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا باسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلوشاء لهداكم أجمعين) (٢١٠) .

ومعنى هذا النص : سيقول المشركون ان الله شاء ان يشركوا وقد رد الله تعالى عليهم بحجتين :

الحجة الأولى : أن الله تعالى عاقب المشركين السابقين لسوء فعلهم ، ولو أن أعمالهم السيئة كانت بمشيئة الله لما عاقبهم عليها ، وأن الاعتذار بالمشيئة نوع من الكذب على الله .

والحجة الثانية : ان الله تعالى لم يقل مثل هذا القول على لسان واحد من رسله ولذلك طالب المشركين فى النص بدليل علمى على

---

(٢١٠) سورة الأنعام : ١٤٨ ، ١٤٩ .

زعمهم فقال : (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) ثم اثبت الله بطلان زعمهم بقوله (فلو شاء لهداكم اجمعين) .

وهذا معناه : انه لو شاء الله ان يكون الناس على طريق واحد لكان هذا الطريق هو طريق الهداية ، ولكن الناس غير مجبرين على سلوك طريق بعينه ، فمشيئة الله فى ارسال رسله ليبينوا للناس الحق من الباطل وترك للانسان تفضيل احد الطريقين على الآخر ، وسلوك الطريق الذى يختاره . ولذلك قال فى نص آخر : (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) (٢١١) ، وقال فى ذلك ايضا : (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (٢١٢) .

ان مشيئة الله تعالى تبدو واضحة فى ارسال الرسل لهداية الناس وتعليمهم سبل الرشاد ، وتحذيرهم من سبل الضلال ، ومشيئة الانسان تتضح فى اختياره لأحد السبيلين . وها هو القرآن الكريم فى الكثير من نصوصه يثبت الاختيار للانسان ويبين انه مسئول عن اعماله ، ويوضح للانسان ان الفساد الذى يشكو منه فى نظمه الاجتماعية ، وصنوف الشر المنتشرة فى شئونه المعيشية ، كل ذلك ما هو الا نتائج لمقدمات وضعها لنفسه : (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) (٢١٣) ويقول الله تعالى فى هذا المعنى ايضا : (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) (٢١٤) ويقول عز من قائل : (من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (٢١٥) .

---

(٢١١) سورة الانسان : ٣ .
(٢١٢) سورة الكهف : ٢٩ .
(٢١٣) سورة الروم : ٥١ .
(٢١٤) سورة الشورى : ٣٠ — ٣٢ .
(٢١٥) سورة فصلت : ٤٦ .

اضف الى ذلك ان القرآن يدعو الناس الى الاعتماد على الذات فى ايجاد الانقلابات الاصلاحية التى ترتفع بالجماعة الى حياة طيبة وتضمن لهم الأمن والاستقرار وصدق الله القائل : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٢١٦) ٠

ورغم وجازة ما سبق فى شان اختيار الانسان الا اننا نستطيع ان نخرج منه بان ما ذكر فى القرآن فى هذا الشان صريح فى أن ارادة الانسان وعمله هما مصدرا مثوبته وعقابه ٠ وفى هذا كفاية للرد على مطاعن الطاعنين من اعداء الاسلام والمسلمين ٠

امسالة الهداية والضلال : فهما بيد الله ، وليس معنى هذا أن ان الانسان مجبر فيما يقوم به من عمل ، فالقرآن علل الهداية والاضلال - الذين قلنا انهما بيد الله - بأنهما على سابقة استحقاق للعباد ، وبين اسبابهما فى مثل قوله سبحانه (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) (٢١٧) (ان الله لا يهدى ن هو كاذب كفار) (٢١٨) (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم) (٢١٩) (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) (٢٢٠) ٠ وهكذا ٠ فأصحاب هذه الصفات الذميمة لا يستحقون من الله الرحمة والهداية ، اما الذين يستحقون الرحمة والهداية فهم أولئك الذين وصفهم الله بقوله : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) (٢٢١) (قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب) (٢٢٢) (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) (٢٢٣) ٠

وهكذا يثبت الاسلام الاختيار والكسب للناس ، ولكن الناس

---

(٢١٦) الرعد : ١١ ٠
(٢١٧) سورة المائدة : ٥١ ٠
(٢١٨) سورة الزمر : ٣ ٠
(٢١٩) الصف : ٥ ٠
(٢٢٠) سورة غافر : ٣٥ ٠
(٢٢١) سورة التغابن : ١١ ٠
(٢٢٢) سورة الرعد : ٢٧ ٠
(٢٢٣) سورة المائدة : ١٦ ٠

يفعلون بارادتهم واختيارهم ما يريد الله ان يفعلوه . يقول الله تعالى : (ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم ان يستقيم . وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين (٢٢٤) . وعلى هـذا المعنى وردت بعض الآيات القرآنية من مثل قوله تعالى : (وربك يخلق ما يشـاء ويختار ما كان لهم الخيرة من امرهم) (٢٢٥) . ومن مثل قوله : (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) (٢٢٦) .

هذا هو الذى تعرض له القرآن فى مسالة القدر والاختيار ، اما من يحاول (البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيـار فهو من طلب سر القـدر الذى نهينـا عن الخوض فيه ، واشتغال بمالا تكاد تصل العقول اليه) (٢٢٧) .

واخيرا : فان الايمان بالقدر يدفع صاحبه الى السعى والعمـل لأن المقدر غير معلوم ولا امارة له غير افعاله واعماله . ثم ان هـذا الايمان يخفف الجزع عند نزول النوائب ، ويثبت الأنفس عند ملاقاة المصائب ومن شان هذا الايمان انه يكسب صاحبه الشجاعة والبسـالة والجود فالذى يعتقد بأن الأجـل محـدود ، وان الرزق مكفول ، وان الأمر بيد الله يصرفه كيفما شاء ، الذى يعتقد هذا لا يمكن ان يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وفى سـبيل اعلاء كلمـة الله واعلاء امته ، ولا يمكن ان يخشى الفقر حين ينفق من ماله فى سبيل الحق والخير .

---

(٢٢٤) سورة التكوير : ٢٧ — ٢٩ .
(٢٢٥) سورة القصص : ٦٨ .
(٢٢٦) سورة التوبة : ٥١ .
(٢٢٧) رسالة التوحيد . للشيخ محمد عبده ص ٧٢ ط ١٠ .

خصائص الرســالة الاسـلامية (٢٢٨)

بعد ان انتهينا من الكلام عن اسس العقيدة بصورة عامة يجـدر بنا ان نختم حديثنا فى هذا المجال بكلمة موجزة عن خصائص الاسلام التى اختص بها دون غيره من الرسالات السابقة ، ونستطيع ان نلقى الضوء على هذه الخصائص فيما يلى :

الاسلام دين عالمى خالد :

جاء الاسلام فى صورته الكاملة على يدى محمد ﷺ ليكون دينا عالميا عاما جاء ليكون دين البشرية كلها فى كل زمان ومكان ، بل هو دين الانس والجن جميعا ، انزله الله على خاتم الأنبياء والمرسلين ليكون آخر الرسالات الالهية .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان جميع الرسالات التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، وجميع الرسل الذين جاءوا بهذه الرسالات كانوا يرسلون برسالاتهم الى قومهم خاصة ، واما رسالة محمد ﷺ فقد جاء بها الى الناس كافة وفى هذا يقول الله تعالى : (وما ارسلناك الا رحمـــة للعالمين) (٢٢٩) .

ويقول عز من قائل : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (٢٣٠) .

ويقول فى آية اخرى : (وما ارسلناك الا كافة للناس بشـيرا ونذيرا) (٢٣١) .

---

(٢٢٨) تاثرت كثيرا بما كتبه الدكتور محمد رشاد سالم فى هذا المجال فى كتابه : (المدخل الى الثقافة الاسلامية) ص ٢١٠ .

(٢٢٩) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢٣٠) سورة الفرقان : ١ .

(٢٣١) سورة سبا : ٢٨ .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى الحديث الصحيح قال : قال رسول الله ﷺ : (كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل احمر واسود)(*) .

ولما كانت عالمية الاسلام قد تحققت بارسال محمد ﷺ الى العالمين فان هذه العالمية قد تحققت نتيجة نظرة الاسلام الى الناس جميعا نظرة تقوم على أساس وحدة الجنس الانسانى وعلى اساس من التسوية بين الناس جميعا دون عصبية أو تمييز (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند اللـــه اتقاكم)(**) .

والحق أن شعائر الاسلام المختلفة قد حققت معنى المساواة والوحدة بين المسلمين ويبدو هذا واضحا جليا فيما كلف الله به عباده من العبادات وعلى الأخص الصلاة والصوم والحج حيث يلتف المسلمون جميعا فى هذه العبادات لا فرق فيهم بين عظيم وحقير او غنى وفقير .

أضف الى ذلك أن مبادىء هذا الدين قد حققت عالميته حيث انتشر فى كل ربوع الدنيا ودخل الناس فيه بلا اكراه بغير دعوة مطلقا ، وأحيانا بمجهود قليل من الدعوة اليه ، وفى هذا يقول (توماس ارنولد) وفى هذه اللحظات التى تطرق فيها الضعف السياسى الى قوة الاسلام نرى أنه حقق بعض غزواته الروحيـــة الرائعـــة ، فهاتان حالتان تاريخيتان كبريان ، وطىء فيهما الكفـــار من المتبربرين بأقدامهم اعناق اتباع الرسول أولئك هم الأتراك السلاجقة فى القرن الحـــادى عشر والمغـــول فى القرن الثالث عشر ، وفى كلتـــا الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين ، وقد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا قد خلوا كذلك من اى مظهر من مظاهر الســـلطان الزمنى عقيدتهم الى افريقية الوسطى والصين وجزر الهند الشرقية)(***) .

(*) صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٣ (كتاب المساجد) .
(**) سورة الحجرات : ١٣ .
(***) كتاب : (الدعوة الى الاسلام) ص ٢٦ ط. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٧ م .

ومن المسلم به انه مادام الاسلام دينا عالميا عاما فهو آخـــر الرسالات الالهية انه دين خالد اكمل الله تعالى به الدين ، وقد تم الدين وكمل ونزلت آية فى حجة الوداع تعلن ذلك فى قوله تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسـلام دينـا) (٢٣٢) .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ان رسول الله ﷺ قال : (ان مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحســنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) .

الاسلام دين يتصف بالشمول والتكامل :

أنزل الله تعالى دين الاسلام ليكون دينا كاملا يشمل ما هو ثابت غير متغير من امور العقائد والأخلاق والعبادات ، وشرع لنا الأسس والكليات فى الأمور القابلة للتغير وارشدنا لما فيه صلاحنا فى الأمور الدنيوية ، وترك المجال فسيحا للاجتهاد البشرى مما من شأنه ان يحقق المرونة واليسر فى تشريعات الاسلام يقول الله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) (٢١٤) .

وان دل هذا على شىء فانما يدل على ان فى الاسلام ما يغنى الناس عن كل دين أو تشريع او نظام آخر ـ وبعبارة اخرى : ان الاسلام شمل كل ما يحقق الخير للناس فى جميع امور الحياة فى العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات ، بل لقد شمل امورا قد تبدو بعيدة عن افكار الناس ـ ففى حديث سلمان الفارسى رضى الله عنه انه قيل له : (لقد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخراءة ؟ قال أجل ، لقد نهانا ﷺ ان نستقبل القبلة او نستدبرها بغائط او بول ، والا نستنجى باليمين والا يستنجى احدنا بأقل من ثلاثة احجار أو نستنجى برجيع أو عظم) (٢٣٤) .

---

(٢٣٢) سورة المائدة : ٣ .

(٢٣٣) سورة النحل : ٨٩ .

(٢٣٤) جاء الحديث فى كتاب الطهارة فى مسلم وأبى داود والترمذى وغيرهم .

وفى الصحيحين عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ان احدكم اذا اتى اهـــله قال : بسم الله اللهم جنبنـــا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولـــــد لم يضره الشيطان ابدا)(٢٣٥) .

ومهما يكن من الامر فان هذا الدين كامل ، وهـــو كذلك دين شامل ، لأنه يتناول جوانب الانسانية كلهـــا فى شمول وتكامل واتزان فشئون المـــادة والروح قـــد تناولها الاسلام بصورة لا يطغى فيها جانب على آخر ، ثم ان السورة الواحدة من كتاب الله العزيز قد تمزج بين الأمـــور الاعتقادية والتشريعية والأخلاقية ، بل ان الآية الواحدة تشمل هذه الأمور كلها وذلك مثل قوله تعالى (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن باللـــــه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المـــــال على حبـــه ذوى القربى واليتـــــامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصـلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)(٢٣٦) .

وليس الشمول والتكامل وصفا قاصرا على القرآن فحسب بل يشمل السنة النبوية كذلك . فالسيرة النبوية تدل فى وضـــــوح ويســـر على هـــذا الشمول والتكامل ، ولقـــد حدثتنا عائشـــة رضى الله عنها ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان متمثلا بأخلاق القرآن اضف الى ذلك انه كان اماما فى العبادات ومشرعا ومجتهدا وحاكما وقائـــــدا ومحاربا ومثلا أعلى فى الأخلاق الفاضلة .

ثم ان الاسلام الى جانب اهتمامه بالروح والمـــادة يهتم بالفـــرد كما يهتم بالجماعة ويقر جميع الحريـــات ويكفلها ويحقق العـــــــزة والكرامة لأبنـــائه ، كما يبيح التملك ويسمح بالارث ويدعـــو للكسب الحلال ويمنع كل وسائل الكسب الحرام مثل الربـــا والرشوة والغصب والاحتكار ... الخ .

---

(٢٣٥) انظر : الوابل الصيب من الكلم الطيب . لابن قيم الجوزية ص ١١٤ ط . السلفية .

(٢٣٦) سورة البقرة : ١٧٧ .

ولعل نظرة الى كتب الفقـه الإسلامى ترينا فى وضوح مـــدى كمال الاسلام وشموله فقـد اشتملت هـذه الكتب – ضمن ما اشتملت على باب العبادات بما فيـه من احكام الأسرة من زواج وطلاق ووصية وميراث . وابواب المعاملات التى تتضمن احـــكام البيوع والعقوبات والحرب والجهاد والعلاقات الدوليـة الى غير ذلك مما يـدل دلالـــة واضحة على ان الأســـلام دين كامل شامل .

الاسلام دين يحترم العقل ويوافقـه :

عندما نقرأ كتــاب الله عــز وجل نجـد عشرات الآيات الكريمة التى تذكر لفظ العقل ومشتقاته . نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعـــالى : (وتلك الأمثـــال نضربهـــا للناس وما يعقلهـــا الا العالمون)(٢٣٧) وقوله تعالى (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقـــل ما كنا فى اصحاب السعير) (٢٣٨) هذا بالاضـــافة الى ما ورد فى القــرآن من الفاظ اخرى تؤدى معنى العقل من حيث الادراك والفهم والاتعاظ والذكرى .... الخ .

وان دل هــذا على شىء فانما يدل على مدى حفاوة الاســـــلام بالعقـــل واحترامه بصـــورة لا توجـد فى أى دين آخـر ، فقد كانت الرسالات السابقة تشير اليه اشارات عارضة وقد يلمح فيها القـــارىء احيانا شيئا من المزراية والتحذير للعقل (ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل الا من مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه، ولا تأتى الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة فى سـياق الآيـة ، بل هى تأتى فى كل موضـــــع من مواضعهـــــا مؤكدة جازمـــة باللفـظ والدلالة)(٢٣٩) .

هكذا يحترم الاســـــلام العقـــل باعتباره نعمـة كبرى انعـــم

---

(٢٣٧) سورة العنكبوت : ٤٣ .

(٢٣٨) سورة الملك : ١٠ .

(٢٣٩) (التفكير فريضة اســـلامية) عباس محمود العقـــاد ، الطبعة الأولى ، دار القلم .

الله بها علينا وميزنا بها عن بقية الكائنات وسخر لنا من اجلها كل المخلوقات .

ولكن : هل لنا ان نستخدم العقل فى كل شىء ؟ ام ان للعقل حد لا ينبغى ان يتعداه ؟ .

ان الذى لا ريب فيه ان مجال العقل الذى يصول فيه ويجول هو ميدان الطبيعة اما فيما وراء الطبيعة ، اما فى الأمور الغيبية فلا مجال للعقل فيها لأن العقل خلق من المادة فمجاله المادة . اما الأمور المحجوبة عنا وهى الالهيات فينبغى على العقل ان يسير فيها وراء النص فالكتاب والسنة فيهما ما يرضى العقل ويقنعه فضلا عن كونهما من وحى الله تعالى الى رسوله الصادق الأمين ، وليس فى هذا ما يتعارض مع موافقة الاسلام واحترامه للعقل كما ذكرنا .

اننا نستعمل عقولنا لنعرف بها صدق الرسول وصدق الوحى الذى جاء به فاذا توصلنا الى ذلك جعلنا الشرع هو الاصل الذى نرجع اليه .

ومما يظهر احترام الاسلام للعقل وموافقته له ان العقل عند جميع فقهاء الاسلام هو مناط التكليف ، اضف الى ذلك ان الاسلام قد اقر الاجتهاد فى كل امر خفى علينا فهمه من الكتاب او السنة ، او فى امر جد على المسلمين . وقد دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشتمل على أمور معروفة فى اصول الفقه مثل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة .

وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجتهد الصحابة رضوان الله عليهم (وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل حين بعثه الى اليمن قاضيا : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فان لم تجد ، قال : فبسنة رسول الله قال : فان لم تجد ،

قال : اجتهد رايى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمـــد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله)(٢٤٠) ٠

ومهما يكن من الأمر فان الاســلام دين يوافق العقل حيث تحدث عنـه القرآن فى مجـــال التبجيل والاحترام وجعله مناطا للتكليف وكلفــه بالاجتهاد فيما لا نص فيه ٠

الاسلام يسر لا عسر فيــه :

لعل مما امتاز بــه الاسلام انــه دين يرفض التشـــدد والتكلف ويتسم بالبساطة والتيسير على اتباعه ٠ وهذه خاصية تنطق بهـــا النصوص الشرعية وتملأ كتب التفسير والحديث والفقه واصوله وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه واتباعه ٠ يقول الله تبـــــارك وتعالى فى ذلك (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ويقول سبحانه : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج)(٢٤١) ويقـــول (لا يكلف الله نفســـا الا وسعها)(٢٤٢) ويقول (يريد الله ان يخفف عنـــكم وخلق الانسان ضعيفا)(٢٤٣) ويقول (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)(٢٤٤) ٠

هــذه بعض النصوص القرآنية التى تنطق فى وضوح بيســـر الاسلام وبساطته ، فاذا ما ذهبنا الى السنة المطهرة وجـدنا احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا المجال كثيرة ٠ فعن ابى هريرة رضى الله عنــه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ان الدين يســر ولن يشــاد الدين احد الا غلبــه فسددوا وقاربوا وابشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة)(٢٤٥) والغدوة : هى ما بين

(٢٤٠) الاحكام فى أصول الأحكام للآمدى ج ٤ ص ٤٢ ، ط٠ دار المعارف القاهرة ٠

(٢٤١) سورة المائدة : ٧ ٠

(٢٤٢) سورة البقرة : ٢٨٦ ٠

(٢٤٣) سورة النساء : ٢٨ ٠

(٢٤٤) سورة البقرة : ١٨٥ ٠

(٢٤٥) انظر صحيح البخارى (كتاب الايمان) باب « **الدين يسر** » ٠

صلاة الصبح وطلوع الشمس ، والروحة : هى من وقت زوال الشمس الى الليل ــ والدلجــة : هى آخر الليــل .

وعن أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وســلم (يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا) متفق عليه .

وعنه رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق)(٢٤٦) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (هلك المتنطعون) قالهــــا ثلاثا (٢٤٧) والمتنطعون هــم المتعمقون المغالون فى القول والفعل .

ومن هنــا نستطيع أن ندرك فى جلاء معنى قول الله تعــالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم)(٢٤٨) لقد عاب الله فى هــذه الآيــة ومثيلاتها فى القرآن الكريم على أهل الكتاب تشددهم ومغالاتهم فى دينهم ، وهذا يعنى أن التشدد والمغالاة فى العبادة مرفوض ، وأن البساطة واليسر فى الدين يدفع الناس الى اعتناقه وتقبل تكاليفـــه عن رغبــة وطيب نفس وهــذا ما دعا اليه الاسلام .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقــال رجل أكل عام يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استعطتم ، ثم قال : دعونى ما تركتكم فانما أهلك من كان قبلكم سوءا لهم واختلافهم على انبيائهم فاذا نهيتكم

---

(٢٤٦) يقول السيوطى فى الجامع الصغير : ان هذا الحديث فى المســند وصححه .

(٢٤٧) انظر صحيح مسلم (كتاب العلم) باب « هلك المتنطعون » .

(٢٤٨) سورة النساء : ١٧١ .

عن شـىء فاجتنبـــوه ، واذا ، امرتـــكم بشـىء فاتـــوا منه ما استطعتم)(٢٤٩) ٠

وعندما نطالع كتب الفقــه واصــوله نراها تذخر بالكثير من الأمثلة على يسر الاســـلام ، وها هو الشيخ عبد الوهاب خلاف فى كتابه (علم اصول الفقــه) يذكر ان الأمور الحاجية للناس ترجع الى ما يرفع الحرج عنهم ، ويخفف عنهم اعبـاء التكاليف وييســر لهم طرق المعاملات والمبـــادلات ، ثم يضرب ــ رحمه الله الأمثلة على ذلك فيشير الى ان الله تعالى شرع الرخص للناس فى العبادات بدلا من العزائم تخفيفا عليهم فأباح الفطر فى رمضان للمريض والمسافر ، كما اباح سبحانه قصر الصلاة للمسافر واباح الصلاة لمن عجـــز عن القيام أن يصلى قاعدا ، والتيمم لمن فقـد المـــاء ٠

أما فى المعاملات فقد شرع الله كثيرا من انواع العقود والتصرفات التى تقتضيها حاجات النـاس كأنواع البيوع والاجارات والشركات ، والمضاربات ، كما شرع الطلاق للتخلص من الزوجية عند الحاجـــة واحل الصيد وميتة البحر والطيبات من الرزق ، وجعل الحاجات مثل الضروريات فى اباحـة المحظـورات ، وفى العقوبات جعل الديـــة على العاقـــلة تخفيفـــا عن القـــاتل خطـأ ودرا الحـــدود بالشبهات (٢٥٠) ٠٠٠الخ ٠

ونحن عندما نحاول ان نحصر الأمثـلة على يسر الاسلام من خلال شريعته الغـراء نجدها اكثر من ان تحصى ويكفينا هنا أن نسجل اعتراف بعض المبشرين والمستشرقين بهـذا اليسر الـذى اختص بـــه الاسلام ، وقد سجل هـذا الاعتراف الدكتور / محمد رشاد سالم فى كتابه (المدخل الى الثقافة الاسلامية)(٢٥١) ٠

---

(٢٤٩) الحديث فى مسند أحمد ، ط٠ المعارف ج ١٣ ص ٩٩ وهو كذلك مروى بالفاظ متقاربة فى البخارى ومسلم والنسائى وابن حبان ٠

(٢٥٠) (علم أصول الفقه) للشيخ عبد الوهاب خلاف ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ٠

(٢٥١) ص ٢٤٨ ٠

يقول توماس ارنولد فى كتابه (الدعوة الى الاسلام)(٢٥٢) -
اننــا اذا نظرنا الى التسامح الذى لقيــه رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الاسلامى ظهر لنــا ان الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق .

ثم يستشهد بكلام (ملمان) الذى يقول : انــه فى الوقت الــذى فتح المسلمون اقاليم خاضعة للحكم المسيحى كانت الاحزاب الدينيــة المسيحية متنازعة متفرقة وكان الجدل المستمر فيما بينهم سببا فى ان الآلاف من الناس وجدوا ملجــأ من هــذه المجادلات التى لا تنتهى عند حــد ولا تعرف اللين والتسامح فى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة حقيقة الوحدانية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثــة محمد ونبوته .

واما كيتانى فيقول : ان وجــود السفسطة المذهبية بين رجــال اللاهوت المسيحى أدى الى زعزعة اصول العقيدة الدينية ، ولما أهلت آخــر الأمر انبــاء الوحى الجديد من الصحراء (لم تعد المسيحية بعــد تلك الأنبــاء قادرة على مقاومة اغراء هــذا الدين الجديد الذى بــدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا ماديـــــة جليلة ، الى جانب مبادئــه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل ، وحيئذ تــرك الشرق المسيح وارتمى فى احضان نبى بلاد العرب) .

وبعد : فقــد أعطينا فى هــذا القسم من كتابنا هــذا صـــــورة موجزة ومفيدة عن عقيدة الاسلام وخصائصه التى امتــاز بها عن غيره ولننتقل الى القسم الثانى لنعطى صورة اخرى موجزة ومفيدة فنذكر طرفا من النظم التى وضعها الاسلام ليسير عليها الناس فى حياتهم كى يظفروا بالسعادة فى الدنيا والآخــرة .

هذا وسوف نقتصر فى هذا المجال على نظام الأسرة والنظـــام الادارى والاقتصادى فى الاسلام كنماذج على أن الاسلام لم يدع جانبا من جوانب الحياة الا وضع له نظاما يضمن السعادة لمن سار على مقتضاه.
وبالله التوفيــق

---

(٢٥٢) يقصد بهذه العبارة أن المسلمين حين فتحوا البلاد عاملوا الرعايا المسيحيين الذين كانوا فى هذه البلاد معاملة غاية فى التسامح .

القسم الثاني

نظـــام الاســـلام

نظـام الأسـرة فى الاسـلام

المراة فى رحاب الاسلام

يحلو لكثير من غير المسلمين أن يوجهوا سهام النقـد والتجـريح لدين الاسلام وللمسلمين كلمـا سنحت الفرصة لذلك ، ولعل ميـــدان المراة من اخصب الميادين التى جردوا من اجلها سهامهم وراحـــــوا يصوبونها ضد هـذا الدين الحنيف متهمين اياه بالحط من قيمة المراة وعـدم مساواتها بالرجل الى غير ذلك من الاتهامات .

وليس من شك فى ان الهدف من وراء هـذا الهجوم هو تشـويه صورة الاسلام فى ذهن المراة عموما ، وايهام المراة المسلمة بأن دينها قد سلبها حقوقها وميز الرجل عليها وحرمها مما يتمتع به غيرها من بنات جنسها من اضطلاع بأسباب الحضارة ، والواقع الذى لا ريب فيـــه ان الاسلام برىء كل البراءة من هـذه الاتهامات .

ولا اقول هـذا دفاعا عن دينى فحسب بل يؤيدنى فى ذلك الواقع والتاريخ والمنطق العقلى ، وفى قمة هذا كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفـه .

فالمراة فى رحاب الاسلام قـد اصبحت عزيزة الجانب بما اعطاها هـذا الدين من الضمانات التى تسعد بها فى حياتها وفى اخرتها ، لقد رفع الاسلام قيمتها واعطاها من الحقوق ما لم تحصـل عليـــه المراة قبل الاسلام او بعـده .

والحق ان الاسلام قد وصف المراة بالصـــــفة التى خلقت عليها ، والتى تنطبق على طبيعتها وتحيا بهـا مع نفسها وذويها فى كل زمان واى مكان ، وما اتى به الاسـلام من حقوق وواجبات متعلقة بشــــأن المراة قـد اصلح اخطاء الماضى مما وقعت فيـه الأمم الغابرة ، ممـــا جعل لهـا منزلة لم تحصل عليها فى ظل اى حضارة سبقت الاسلام ، ولا جاءت بعد ظهوره حضـــــارة تغنى عنها ، وكل ما جاء من آداب

الحضارات المستحدثة فى هذا الشان فانه اشتمل على نقص ملموس فى احكامها ووصاياها بسبب اهمال حالات فى هـذا الشان ما كان ينبغى أن تهمل ، اما الاسلام فقـد اتى على كل مشكلاتها وحلهـا افضل حل .

اما معاملة المراة معاملة تتمناها كل امراة فى العالم فقد فندها القرآن - دستور الاسـلام الأول - وحمدها ، وندب لهـا المؤمنين والمؤمنات وهى المعاملة الانسانية التى تقوم على العدل والاحسـان والمعاملة التى تقوم على العدل والاحسان لاشك انها تقوم على تقـدير غير تقدير القوة والضعف ، أو الاستطاعة والاكراه .

وقد يقال : هل حرر الاسـلام المراة وصانها واعزها ام قضى بعبوديتها واذلالها ؟ .

ولكى نجيب : لابد أن نشير الى حال المراة قبل ظهور هذا الدين ثم نشير الى حالها فى ظله وبعد ظهوره ، وعندها ندرك الفارق فى الحالين فبضدها تتمايز الأشياء .

(يذكر التاريخ ان الأثينيين - وهم اكثر الأمم القديمة حضارة . كانوا يجعلون المراة سلعة تبـاع وتشترى ، وأنهم سموها رجسا من عمل الشيطان ، وحرموا عليها كل شىء الا تدبير البيت وتربيـة الاطفال .

وفى شرائع الهند جاء : (ان الوباء والموت والجحيم والسـم والأفاعى والنـار خير من المراة) .

واعتبرت اليهودية المحرفة حواء - ومن ثم المراة عموما - سببا فى شـقاء الانسانية لانها بزعمهم - اخرجت آدم من الجنة ، وعرضت الجنس البشرى للتعب والشقاء ، لذلك نجـد أن المراة عند اليهود لا ترث اذا كان لها اخ ذكـر .

وها هى التوراة تنطق بعداوة المراة فقـد جاء فى سفر الجامعة (درت انا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ولأعرف الشـر

انــه جهالة والحماقة انها جنون ، فوجدت امر من الموت المراة التى هى شـــباك وقلبها اشراك ويداهـــا قيود ٠٠٠ رجلا واحدا بين ألف وجدت ، اما امراة فبين كل اوئئك لم أجد) (١) ٠

يقول الدكتور عبد الكريم العثمان فى كتابه (معالم الثقـــافة الاسلامية فى هـذا الشأن (اما المسيحية المحرفة فقـد اقتبست هـذه النظرة عن اليهودية فنظرت الى المرأة باحتقار ، حتى ان المجتعمات المسيحية الى نهاية القرون الوسطى كانت تبحث فى انسانية المرأ ، اذ لم يكن هذا المبدأ قد تقرر بعد نهائيا ، ولقد اجتمع فى رومية مجمعكبير وبحث فى شـئون المراة فقرر انهـا كائن لا نفس له ، وانهـا لن ترث الحياة الأخـروية لهـذه العلة ، وانها رجس يجب الا تاكل اللحم ، والا تضحك ، بل ولا أن تتكلم ، وعليها ان تمضى أوقاتها فى الصلاة والعبادة والخـدمة ، ولاجل أن يمنعوها الكلام جعلوا على فمها قفلا من حـــديد فكانت المرأة من أعلى الأسر وأدناها تسير فى الطرقات ، وتروح وتغدو فى دارها وعلى فمهـــا قفل ، هـذا غير العقوبات البدنية الى كانت تتعرض لهـا المرأة ، باعتبار انها اداة للاغـــواء يستخدمها الشيطان لافسـاد القـلوب ٠

اضف الى ذلك أن الديانة البرهمية تعتبر الابتعاد عن المرأة شرطا لدخول الجنة ، وتنظر اليها على أنها مخلوق دنس لا يستحق أن ينال شيئا من الحقوق ، لـذا فقد كان على المرأة أن تحرق نفسها اذا مـــات زوجهـــا ٠

وحسب القانون الرومانى كانت اهلية المرأة ناقصة ، وكانت الأنوثة من أسباب الحجر كالصغر والجنون سواء بسواء) ٠

وفى سنة ٥٨٦ وفى فرنسا عقد اجتماع فى بعض ولاياتها دار فيه

---

(١) (روح الدين الاسلامى) لعفيف طباره ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ ٠

البحث عن المرأة : أتعد انسانا ام غير انسان ؟ وكأن ختام البحث أن قرر المجمع أن المرأة انســان ولكنها مخلوقة لخــدمة الرجل .

وفى انجلترا أصدر الملك هنرى الثامن امرا بتحريم مطالعة الكتاب المقــدس على النســاء ، كما أن النساء كن طبقا للقانون الانجليزى العام حــوالى سنة ١٨٥٠ م غير معدودات من المواطنين ، ولم يكن لهن حقوق شخصية ، ولا حق لهن فى تملك ملابسهن ، ولا فى الاموال التى يكسبنها بعــرق الجبين .

وفى بلاد العرب وقبل بعثــة محمد صلى الله عليه وسلم كانت المــرأة ممتهنة فى كثير من أحوالها .

وعلى الرغم من أن بعض المجتمعات العربية قبل الاسلام قد أعطت المرأة شــيئا من الاعتبار ، الا انها بقيت تعاملها بصورة عامة على شكل لا يختلف كثيرا عن معاملة ســائر المجتمعات المعاصرة آنذاك ، فمن وأد للبنــات دون ذنب أو جريرة الا لانهن بنــات ، الى حرمان للمرأة من الارث ، بل أن المرأة نفســها قــد تورث كأى سلعة حتى انــه اذا مــات الأب ورث أبناؤه فيما يورثونه زوجاته ، وكانت المرأة معرضة للسبى الذى كان أمرا سائدا فى ذلك الحين ، كما كان الرجل يعدد من النســاء ما يريــد دون أن يكون عليــه قيد مادام يملك القدرة على ذلك .

وبينما كان العالم على هــذا الوصف اللا انسانى اذ بالنور ينبثق من جزيرة العرب ليعلن ظهور الاسلام ذلك الدين الذى بدد بضربة من ضرباته كل عمل لا انسانى وقضى على الظــــلم فى كل صوره وأشكاله وأزال كل الشكوك التافهة وأعاد لكل ذى حق حقــه ومن ضمنه المرأة .

لقد حرر الاسلام المرأة مما وقع عليهــا من ظلم وجور ورفعها الى مكانة عاليــة لم تصل اليها فى آخر تطورات المدينة .

فبينما كانت شعوب أوربا وغيرها تعــد المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشيطان الرجيم اذ بالاسلام يعلن أنها احد العنصرين اللذين تكاثر

منهما الانسان (يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة (٢) وخلق منها زوجها (٣) وبعث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا) (٤) ٠

وفى الوقت الذى كان ينظر البشر فيه الى المرأة على أنها لا يصح ان يكون لها دين حتى حرموا عليها قراءة الكتب المقدسة ، قرر الاسلام أن للمرأة ثواب عملها كالرجل ، اسمع القرآن يقول :

(ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (٥) (٦) ٠

لقد كلف الاسلام المراة بتكاليف العقيدة وفضائل الاخلاق كما كلف الرجل سواء بسواء ، كما جعل مسئوليتها مستقلة عن مسئولية الرجل فلا يؤثر عليها وهى صالحة فساد الرجل ولا ينفعها وهى طالحة صلاح الرجل وفى هذا يقول الله تعالى (ضرب الله مثلاو للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنها من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) (٧) ٠

يقول الاستاذ (العقاد) فى كتابه (المرأة فى القرآن) ٠

لقد جاء الاسلام فوضع المراة فى وضعها الصحيح بميزان العدل ، وهو ميزان خفى على اذهان مهاجمى الاسلام فلم يدركوا معناه ، ولم

---

(٢) هى نفس آدم عليه السلام ٠
(٣) أى خلق حواء من نفس آدم ٠
(٤) سورة النساء : ١ ٠
(٥) أى أن الله يعطيهم حقهم مهما كان قليلا ٠
(٦) سورة النساء : ١٢٤ ٠
(٧) سورة التحريم : ١٠ ، ١١ ٠

يصلوا الى مغزاه فراحوا يتهمون هـذا الدين بأنـه قد هضم حقوق ، المرأة ولم يسوبينها وبين الرجل ، ان ميزان العدل الصحيح هـو التسوية بين حقوق المرأة وواجباتها . وعلى هذا فليس من العدل فى شىء أن تسوى بين اثنين مختلفين فى الحقوق والواجبات ، والتسوية بين الحقوق والواجبات هى العدل ، الذى فرضـه الاسلام للمرأة حيث وضعها فى موضعها الصحيح من الطبيعة ومن المجتمع ، ومن الحياة الفرديـة .

واذا كان ذلك كذلك : فمن الخطأ أن يقال : ان الرجل والمرأة ينبغى ان يكونا على قدم المسـاواة فى جميع الحقوق وجميع الواجبات ومادام ان الله تعالى لا ينشىء جنسين مختلفين لتكون لهما صفات الجنس الواحد ومؤهلاته وأعماله وغايات حياته .

فلم يكن جنس النساء سواء لجنس الرجال قط فى تاريخ امة من الأمم على اختلاف البيئـات والحضارات ، وكل ما يقال فى تعليـل ذلك يرجع الى علة واحدة هى : تفوق الرجل على المرأة فى القـدرة والتأثير على العموم فليست جهالة القرون الاولى سببا صالحا لتعليل هـذه الفوارق العقلية بين الرجال والنساء فى جميع الأمم ، لأن الجهل كان حظا مشتركا بين الجنسين ولم يكن مفروضا على النساء وحدهن دون الرجال ، ومن زعم أن الرجل فرض الجهل على المرأة فقبلته واذعنت لـه فقد قال انه أقـدر من المرأة أو انـه احوج الى العلم وأحرص عليه منها .

وليس عجز المرأة عن مجاراة الرجل فى الأعمال العامة ناشـئا عن قـلة المزاولة لتلك الأعمال ، لأنها زاولت أعمال البيت ألوف السنين ولا يزال الرجل يبزها ويتفوق عليها فى هذه الأعمال كلمـا اشـتغل بصناعتها ، فهو اقدر منها فى الطهو وفى تفصيل الثياب وفنـون التجميل ، وتركيب الأثاث ، وكل ما يشتركان فيـه من أعمال البيوت ، أنه تفاوت لاشك ملموس يدركه كل ذى عقل مدرك وها هو كتاب الله ينطق بهذا التفاوت بين الجنسين فيقول الله تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجـة) .

وليس من شك فى ان هذا التفريق بين الرجل والمرأة قد جـاء على اساس من التكاليف الاجتماعية (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم) .

ان التفوق الطبيعى فى استعداد الرجل جعل له حق القوامة على المرأة ، يضاف الى هذا نهوضه بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة ، انـه اقدر على كفاح الحياة منها ، ولو كانت مثله فى القدرة العقلية والجسدية لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسرا فى فترة الحمل والرضاعة ، والرجل كفيل بتدبير المعاش وتوفير الوقت لهـا فى المنزل لتربية الابنـاء وتسيير دفة الحياة ، وتيسير أسباب الراحة والطمأنينة ، وكلاهما فارق ضرورى تقضى به وظائف الجنسين ويقضى به توزيع العمل فى البيئة الانسانية .

ان الاسلام عندما حـكم بتفضيل الرجل على المرأة – ومن اجل ذلك جعله قواما عليهـا – قد بنى هـذا الحكم على دعامتين .

الأولى : أن القوامة هنا قد استحقها الرجل بتفضيل الفطرة .

الثانية : ان الرجل فرض عليه واجب الانفاق عليها ، وهذا الواجب مرجعه الى واجب الأفضل لمن هو دونه فضلا ، وليس مرجعه الى مجرد انفـاق المـال اذ لو كان الفضل يرجع الى مجرد الانفـاق لامتنع الفضل اذا ملكت المرأة مالا يغنيها عن نفقة الرجل أو يمكنها من الانفاق عليه .

ثم ان حكم التفضيل هـذا هو الحكم الواضح من تاريخ بنى آدم ، منذ كانوا قبل نشوء الحضارات والشرائع العامة وبعد نشوئها ، ففى كل الأمم وعلى مختلف العصور تختلف المرأة والرجل فى الكفاية والقـدرة على جملة الاعمال الانسانية .

ومن الخطأ – لدى الداعين الى قيام المرأة بجميع أعمال الرجـل فى الحياة العامة والخاصة ان ينسبوا تخلف المرأة فى الكفاية والقـدرة الى الرجل ويجعلوه نتيجة لأثرته واستبداده وتسخيره لها فى خدمتـه وتلبيـة أهوائه .

ونسى هؤلاء أن هـذا القول نفسه يثبت رجحان الرجل بدلا من أن ينفيه ، فلم يكن لكل الرجال أن يسخروا كل النساء فى كل العصـور والأمم الا لأنهم راجحون عليهن ، الا لأنهم امتلكوا مزية استطاعوا بها التسخير ، حتى ولو كانت القوة البدنية دون غيرها .

ومما تجـدر الاشارة اليه هنا هو ان أكثر القائلين بدعوة المـرأة الى القيام بعمل الرجل هم (الماديون) الذين يرجعون كل قوة فى الانسان الى قـوة البنية المادية ، مع أن الواقع بخلاف ذلك .

فما يملكه الانسان من كفاية تمكنه من التغلب على سائر النـاس لم تكن هـذه الكفاية هى القوة الجسدية فقط دون سـائر القوى الانسانية فكثيرا ما كان المتغلبون على من دونهم أضعف جسـدا من الخاضعين لهم . وكثيرا ما كانت قـوة الحكم بمعزل عن قـوة الاعضاء وصلابة التركيب وعلى هـذا فان جنس الرجال لا يمتـاز فى جملته عن جنس النساء بقـوة الجسد دون أن يرجع ذلك الى فضل فى التكوين .

وقد يقال : ان النساء قد نبغن من قبل وحتى الآن فى طائفة من الأعمال التى يقوم بها الرجال مثل الملك والقيادة والبحث العلمى كما اشتهر منهن الصالحات الممتازات فى شئون الدين والدنيا ، وقد تكون منهن من تفوق جمهرة الرجال فى بعض هذه الاعمال .

وفى الجواب عن هذا : نقول :

ان فضائل الاجناس لا تقاس بالنصيب المشترك ، وانما تقاس بالغاية التى لا تدرك ولا تؤخـذ بالاستثناء الذى يأتى بين الحين والحين بل بالقاعدة التى تعم وتشيع بين جملة الآحاد ، وقد يوجد بين الصبيان من هو اقدر على أعمال الرجال ، بل قـد توجد فى اثناء الليل سـاعة أضوأ من ساعات النهار ، وانما ينبغى ان تجرى الموازنة على الاغلب الاعم فى جميع الاحوال .

وما عدا ذلك فهو استثناء ، وغالبا ما يحمل الاستثناء فى أطوائه دلائل القاعدة التى يخالفها .

ان المرأة بمقتضى الخلق والتـكوين مطبوعة على غرائز تناسب المهمة التى خلقت من اجلها ، وهى مهمة الامومة وحضانة النشىء وتربيته ، وهذه قد جعلتها ذات تأثير خاص بدواعى العاطفة وهى مع ذلك تعرض لها عوارض طبيعية تتكرر عليها فى الاشهر والاعوام من شأنها أن تضعف من قوتها المعنــوية ، وتوهن من عزيمتها فى تكوين الرأى والتمسك به والقدرة على الكفاح ، وهذا شأن لا تنكره المرأة من نفسها ، ولهذا فان الاسلام قد بنى على الفرق الطبيعى بين الرجل والمرأة التفريق بينهما فى كثير من الاحكام ٠ ومن هنا جعل القوامة للرجال على النساء ، وجعل حق الطلاق للرجل دونها ومنعها السفر من غير محرم أو زوج أو رفقة مأمونة ولو كان سفرها لأداء فريضة الحج وجعل لهــا حق الحضانة للصغار دون الرجل وأوجب على الرجل حضور الجمعـة والجماعة والجهاد ولم يوجب عليها شيئا من ذلك ٠

ان على كل من يتهم الاسلام بالحط من قيمة المرأة أن يدرك هــذا جيدا ، كما عليه أن يدرك أن المجتمع الانسانى لن ينجو من مشكلاته المعقدة فى سياسة الامة وسياسة البيت وسياسة الحياة الضرورية الا اذا انتبــه ورجع الى هذا التقييم الطبيعى الذى لا محيص عنه فيعمــل الرجل عمل الرجال ، وتعمل المرأة عمل النساء وتقام دولة المرأة فى البيت ، ودولة الرجال فى معترك الحياة ، ان المجتمع الذى يتزاحــم فيــه النساء والرجال على عمل واحد فى المصانع والاسواق لن يكــون مجتمعا صالحا مستقيما على سواء الفطرة ، مستجمعا لأسباب الرضى والاستقرار بين بناته وبنيه ، لأنه مجتمع يبذر جهوده تبــذير السرف والخطل على غير طائل ، ويختل فيه نظام العمل والسوق ، كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت ٠

لقد آن الأوان ليفهم الناس المســاواة بين الجنسين فهما صحيحا لا خاطئا ٠

لقد آن الأوان ليدركوا أن الاسلام فيما عدا هذا يسوى بين الرجل والمرأة فقد سوى بينهما فى تكاليف العقيدة وفضائل الاخلاق ومطالب الروح ، وجعل المرأة فيها كالرجل ســواء بسواء كما سوى الاسلام بينهما

فى الانسانية فكل منهما خلق من ذكر وانثى ، بل ان المراة جـــزء من الرجل (يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) (٨) .

والمرأة تخاطب فى القرآن الكريم كما يخاطب الرجل فى مجال التكليف وفي مجال الثواب على الأعمال ، مع ان سياق الكلام يفيدالطرفين دون تفضيل (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض) ، (ان المسلمين ، والمســـلمات والمؤمنين والمؤمنـــات والقانتين والقانتات والصادقين والصـــادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظـــات فروجهم والحافظـــات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما (٩) .

وهذه الآيات القرآنية وغيرها انما تؤكد معنى التساوى الانسانى بين الذكر والانثى .

وليس ذلك فحسب ، بل ان الاسلام قد حارب كل النظم الباليـــة التى كانت تمتهن المرأة وتذهب بحياتها دون ذنب ، وتحرمها حقهـــا فى الحياة وفى الامتلاك .

لقد حارب الاسلام تلك العادة اللانسانية ـ عادة وأد البنات ـ وذلك فى قوله تعالى (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدســه فى التراب الاساء ما يحكمون) (١٠) .

وقال جل شأنه (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهـــم وأياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا) (١١) .

---

(٨) أول سورة النساء .
(٩) سورة الأحزاب : ٣٥ .
(١٠) سورة النحل : ٥٨ ، ٥٩ .
(١١) سورة الاسراء : ٣١ .

وفى مجال الرد على من زعموا ان المراة لا حق لها فى الميراث شرع الاسلام توريث المراة وبين حقوقها ، سواء اكانت زوجة أو أما أو اختا فقال الله تعالى (للرجال نصيب مما يترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) (١٢) ٠

كما حرم الاسلام ان يرث الرجل زوجة مورثه كرها فقال تعالى فى ذلك (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن (١٣) لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) (١٤) وحارب هذه الرذيلة السيئة وهى اكراه الاماء على البغاء (أى الزنا) بالأجر ابتغاء كسب المال من وراء ذلك فقال (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء أن اردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرهن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) (١٥) ٠

ولما كان بعض العرب يرثون زوجات آبائهم ضمن ما يرثون عنهم فيصبحن زوجاتهم فقد جاء الاسلام مشتملا على اشد الردع عن هذا المنكر فقال تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) (١٦) ٠

الزواج فى الاسلام :

انتشرت عند كثير من الشعوب السابقة على الاسلام أنواع كثيرة من الزواج الفاسد ـ فماذا كان موقف الاسلام من هذه الزيجات التى ما يزال بعضها موجودا الى اليوم فى بعض البلاد الهمجية والبدائية ؟

ثم ما هى تصورات المجتمعات والعقائد للزواج قبل الاسلام ؟ هل هو وسيلة لارضاء مطالب الجسد ؟ أو هو صفقة تجارية تتم بين الزوجين ؟

---

(١٢) سورة النساء : ٧ ٠

(١٣) تعضلوهن : أى تمنعوهن من الزواج بغيركم ٠

(١٤) سورة النساء : ١٩ ٠

(١٥) سورة النور : ٣٣ ٠

(١٦) سورة النساء : ٢٢ ٠

الحق أن الاسلام قد حرم كثيرا من أنواع الزواج الفاسد مما كان موجودا عند المجتمعات قبل ظهوره ، كما لم يعترف بهذه التصورات الخاطئة التى ألمعنا اليها منذ قليل عن الزواج فلا هو صفقة تجارية ، ولا هو وسيلة ضرورية كى يستريح الجسد من دواعيه الجنسية وحسب ، وانما هو الزواج الانسانى فى وضعه الصحيح من وجهة الافراد ومن وجهة المجتمع .

أما من وجهة الفرد : فهو سكن نفسانى وطريق مودة ورحمة بين الزوجين .

وأما من جهة المجتمع : فهو واجب اجتماعى للمحافظة على النوع الانسانى .

ومن أجل هذا جاء الخطاب فى القرآن فى أمر الزواج موجها الى افراد الأمة للعمل على تيسيره ، قال تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) (١٧) أنه خطاب للأولياء ، ويعم غيرهم مطلقا — بأن يزوجوا العزاب من النساء والرجال ويبين لهم أن فقرهم لا ينبغى ان يكون داعيا لعدم تزويجهم ، لأن الله من فضله قد تكفل باغنائهم ، أما من كان عاجزا عن الانفاق لفقره فان الله يأمره بالعفة الى أن يرزقه المال الذى يمكنه من الزواج (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) (١٨) .

ان الزواج فى الاسلام عهد وميثاق بين زوجين . انه عقد كسائر العقود شرطه الايجاب والقبول وحضور شاهدين ، وليس عقد تمليك كالبيع ، أو نوعا من الاسترقاق ، بل عهد بين الرجل والمرأة يلتزم كل منهما بموجبه بواجبات نحو الآخر ولذلك قال الله فى شأن هذا العهد : « وأخذن منكم ميثاقا غليظا) (١٩) فالعلاقة بين الرجل والمرأة فى الزواج هى علاقة سكن تستريح فيها النفوس وتتواصل بها المودة والرحمة (ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) (٢٠) انه من دلائل قدرة الله وكرمه

---

(١٧) سورة النور : ٣٢ .
(١٨) سورة النور : ٣٣ .
(١٩) سورة النساء : ٢١ .
(٢٠) سورة الروم : ٢١ .

أن خلق للرجل زوجة من جنسه ليسكن اليها ـ كما تشير الآية ـ والمراد بالسكن : السكون النفسى الناتج عن شعور الشوق والرغبة والحب الذى يشعر به كل من الزوجين نحو الآخر ، وعن طريقه يتبدد أى اضطراب فى حياتهما ، بحيث تستمر علاقتهما قائمة على مودة حب ورحمة وعطف .

ان حاجة كل من الزوجين للآخر كحاجته الى الملبس ، فاذا كان الملبس يستر عيوب الجسم ويحفظه من الأذى ويضفى عليه الزينة والجمال ، فان كلا من الزوجين لصاحبه كذلك يحفظ عليه شرفه ويصون عرضه ويوفر له راحته ولهذا قال الله تعالى فى هذا الشأن (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) (٢١) .

ومن اقوى دعائم سكون الزوج الى زوجه أن يكون بينهما تناسب فى التربية الدينية والأخلاق ولهذا يقول الرسول ﷺ : (تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك) (٢٢) .

ان الرسول فى هذا الحديث يبين أهم الأسباب التى من أجلها يقبل الناس على خطبة المرأة وهو ﷺ ، يقرهم عليه ، ولكن لما كان الدين عند الناس فى الموضع الأخير فقد أكد الرسول على الخاطب أن يفضل ذات الدين على غيرها ، وأن يلتفت الى الدين قبل سواه ، وذات الدين هى التى هذب الدين أخلاقها ، واستمدت من روحه وآدابه تربيتها ، وحفظ عليها حياءها ، وليس المقصود بذات الدين من تصوم أو تصلى ولكنها سيئة الطباع .

هذا وينبغى أن نشير الى الأحكام الآتية فى الزواج :

أولا : ان اختيار الزوجات يكون ممن أباح الاسلام الزواج منهن أما المحرمات فلا ، والمحرمات على الرجل قد بينتهن هذه الآية التى يقول الله تعالى فيها :

(حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من

---

(٢١) سورة البقرة : ١٨٧ .

(٢٢) رواه البخارى ومسلم .

الرضاعة وأمهات نسـائكم وربائبكم (٢٣) اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جنـاح عليكم وحلائل أبنائكم (٢٤) الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما) (٢٥) .

هذا وقد بينت السنة أنه يحرم على الرجل ان يجمع بين المرأة وعمتها ، كما يحرم عليه أن يجمع بين المرأة وخالتها لقول الرسـول ﷺ فيما معناه : (لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها).

ثانيا : عدم صحة زواج المسلمة بغير المسلم .

ثالثا : عدم صحة زواج المسلم بالمشركة وهى التى ليس لها كتاب سماوى .

هذا : ولما كان الاسلام يحض على الزواج لقول الرسول ﷺ : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة (٢٦) فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصـن للفـرج ومن لم يستطع فعليه بالصـوم فانه لـه وجاء (٢٧) » (٢٨) لما كان ذلك كذلك كان لزاما علينا أن نتعرض لما يسبق عقد الزواج من أصول لابد من توافرها فى هذا العقد وهى : الخطبة ، والكفاءة ، والمهر .

أما الخطبـة : فهى ان يطلب الرجل امرأة معينة للتزوج بهـا . **وكيفيتها : أن يتقدم الرجل اليها والى وليها مبينا حاله ، ويفاوضهم فى أمر العقد ويفصح عن مطالبه ويفحصون عن مطالبهم** – وقد أباح الاسلام أن يرى الخاطب مخطوبته وترى المخطوبة خاطبها وهذا أفضل كى تتآلف القلوب وتوجد المودة بينهما فلا يحدث الندم بعد فوات الآوان **فعن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة** فقال له النبى ﷺ : « انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » (٢٩) .

---

(٢٣) ربائبكم : بنات زوجاتكم .

(٢٤) حلائل أبنائكم : جمع حليلة وهى زوجة الابن .

(٢٥) سورة النساء : ٢٣ .

(٢٦) الباءة : ما يترتب على الزواج من تكاليف .

(٢٧) وجاء : أى قاطع للشهوة .

(٢٩) يؤدم : أى تحصل الموافقة والملاءمة .

ويجب على الولى ان يحصل على موافقة المخطوبة متى كانت بالغة لقول الرسول ﷺ : (الثيب احق بنفسها من وليها ، والبكر تستأمر واذنها السكوت ٠٠) ولا يجوز للخاطب أن يخلو بمخطوبته فى زمن الخطبة فهو بالنسبة اليها كغيره من الأجانب لأن الخطبة ليست زواجا وانما هى وعد بالزواج ٠

ولكل منهما العدول عن الخطبة ، واذا عدل الخاطب عن خطبته اوردت المخطوبةخاطبها ترد الهدايا وغيرها ان كانت لم تستهلك الى مهديها اما اذا كانت قد استهلكت فلا يرد بدلها كالعطور والأطعمة وغير ذلك مما من شأنه ان يستهلك ٠

وأما الكفاءة فالاسلام يشترط كفاءة الرجل للمرأة التى يريد زواجها ٠ والكفاءة تعنى المساواة بينهما فى النسب والمال ، وشرف العلم فوق شرف النسب ــ ومعنى كفاءة الرجل فى المال أن يكون قادرا على المهر والنفقة فالغنى ليس بشرط فى الكفاءة واذا تهاونت المرأة فى شرط الكفاءة فمن حق الولى ان يطلب فسخ الزواج ٠

وأما المهر : فان الاسلام قد أوجب على الرجل عند الزواج أن يبذل للزوجة مهرا وفى هذا يقول الله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) (٣) قال الله ذلك لأن العرب كانوا لا يحترمون حق ملكية المراة لمهرها فولى المرأة كان يحرمها من مهرها ولا يعطيه لها بعد قبضه واذا اعطاه الولى تصرف فيه زوجها بدون اذنها ٠ من أجل ذلك امر الله تعالى بأن تؤتى الزوجات مهورهن فى الاية التى معنا والتى وصفت الاعطاء بأنه (نحلة) أى عطاء عن طيب نفس مع الاعتقاد بأنه حقها ، وبأنه لا يباح لولى او زوج ان ينتفع بشىء منه الا اذا طابت نفس الزوجة ٠

وفى هذا المجال ــ مجال تشريع الاسلام المهر للزوجة ، وملكيتها لــه ــ اشير الى ان بعض خصوم الاسلام قد صوروا المراة المسلمة فى هذا المجال ــ بالمراة القابلة للبيع والشراء ٠ واقول لهؤلاء : ان الحكمة من المهر انه نصيب الرجل فى بناء الحياة البيتية ، وان هذا الالتزام هو من

---

(٣٠) سورة النساء : ٤ ٠

جانبه وحـــده لما فرض من قوامته على المرأة ، ولما فرض فيه بحكم الطبيعة من أنـــه المكافح فى الحياة .

وهذا على عكس ما يحـدث فى اوربا ، فالمرأة بحكم العرف هناك هى التى تؤسس لخاطبها بيت الأسرة المقبلة مع انها دونـــه فى القدرة على المكافحة فى الحياة ، وهذا قلب للأوضـــاع . وعلى هـذا فهؤلاء الخصوم لم يفهموا الحكمة من تشريع المهـــر فى الاسلام .

أن الاسلام حين اوجب المهر لم يحدد قيمته ، وهذا يعنى ان المهر يختلف باختلاف قـــدرة الرجل الماديـــة ، أو اتفـــاق الزوجين ، فقد جاء رجل فقير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا له بأنه لا يملك قيمة المهرة الذى جرت به العادة . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم (التمس ولو خاتما من حديد) (٣١) .

وليس بشرط أن يدفع الزوج المهر كله عند العقد ، بل لـــه ان يؤجله كله أو بعضه أو يتفق عليه العاقدين من حيث تقسيطه ، ومن حق الزوجة الرشيدة أن تبرىء الزوج منه أو من بعضه .

ويطيب لى هنا ان اشير الى عادت تفشت عند كثير من المسلمين فى هذا العصر ، وهى طلب المهور الباهظة لبناتهم مما ليس فى استطاعة الشباب مما يتسبب فى احجام الكثيرين منهم عن الزواج نظرا لدخولهم المحدودة بالاضافة الى ما يطلب منهم ــ وهو فوق طاقتهم ــ من تأسيس ونفقـــات .

ان على هؤلاء ان يعرفوا ان هذا التصرف منهم يخالف روح القرآن الذى يقول الله تعالى فيـــه (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ويخالف قول النبى صلى الله وسلم (اذا جاءكم من ترضون دينـــه وخلقه فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) .

ان نظرة متأنية متأملة فى هذا الحديث ترينا أن الرسول ذكر

---

(٣١) رواه البخارى .

الخلق والدين ولم يذكر المال لان الله قادر على اغنائه من فضله ، وأنه صلى الله عليه وسلم قد نبهنا الى اننا ان لم نفعل ذلك تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ، وهذا من غير شك ما نشاهده اليوم بين الشباب من عزوف عن الزواج وانغماس فى المحرمات ٠

الاسلام ومعاملة الزوجة

يدفع الاسلام الرجال الى أن يبسطوا اكفهم فى الانفاق دون تقتير أو اسراف ، ولذلك يقول الله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما اتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها)(٣٢) ٠

كما يحض على معاملة الزوجة معاملة طيبة وذلك فى قوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) (٣٣) وقوله (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) (٣٤) ٠

ولكن قد تتمرد المرأة على زوجها ، وهنا يجوز للرجل أن يقوم هذا التمرد ، ويصلح خطأ زوجته بالطرق الشرعية التى نصت عليها هذه الآية الكريمة (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) (٣٥) ٠

ولكى نوضح الأمر فى هذا الشأن نقول :

حين يرى الرجل من زوجته ترفعا عنه أو اهمالا لحقوقه الزوجية فعليه أن يبدأ بوعظها بالطريقة التى يراها بحكمته مناسبة لحالها وتؤثر فى نفسها ٠

فاذا لم يؤد الوعظ هدفه فى اصلاح المرأة لجأ الى عقوبة الهجر لفراشها ٠ ولا ينبغى أن نهون من آثار هذه العقوبة فهى عقوبة نفسية

---

(٣٢) سورة الطلاق : ٧ ٠
(٣٣) سورة النساء : ١٩ ٠
(٣٤) سورة البقرة : ٢٣١ ٠
(٣٥) سورة النساء : ٣٤ ٠

تمس المرأة فى الصميم ، لا على أنها حرمان من لذة الجسد لبضعة أيام أو أسابيع (فالمرأة تعلم أنها ضعيفة الى جانب الرجل ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت انها فاتنة له ، وانها غالبة بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق اليها ورغبة فيها ، فليكن له ما شاء من قوة ، فلها هى ما تشاء من سحر وفتنة ، وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم ، فاذا قاربت الرجل مضاجعة له وهى فى اشد حالاتها اغراء بالفتنة ثم لم يبال ولم يؤخذ بسحرها فما الذى يقع في وقرها ؟ يقع فى وقرها أن تشك فى صميم انوثتها ، وأن ترى الرجل فى اقدر حالاته جديرا بهيبتها واذعانها ... فهو مالك أمره الى جانبها وهى الى جانبه لا تملك شيئا الا أن تثوب الى التسليم ، فهذه العقوبة ابطال للعصيان ، ولن يبطل العصيان بشىء كما يبطل باحساس العاصى غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه) (٣٦) .

اما اذا لم ينفع الوعظ والهجر فى المضاجع فقد أباح الاسلام الضرب للزوجة الناشز ، فقد لا ينصلح حالها الا من هذا الطريق .

ولكن ليس معنى اباحة الضرب – بعد فشل الوعظ والهجر – انــه مباح فى كل حالة ومع كل امرأة بدليل ان الرسول صلى الله عليه وسلم – مع أنه أول من عرف أوامر القرآن فى هذا الشأن كان يكره الضرب ويعيبه ويقول فى مأثور حديثه (لن يضرب خياركم) ويقول (اما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما العبد يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره) كما روى أنه صلى الله عليه وسلم لم يضرب زوجة له أبــدا .

أضف الى ذلك ان الضرب الذى اباحه الاسلام هو الضرب الخفيف غير المؤذى ، واباحته ليست على الاطلاق بل تكون فى حالة الضرورة حين لا يرى الزوج مفرا منه ، والضرب فى هذه الحالة لزوجة هـــذا حالها أخف من التأديب بالطلاق الذى يتعدى أثره الزوجة الى اولادها وأهلهـــا .

يقول الأستاذ العقاد فى هذا (وانما يباح الضرب لأن بعض النساء

---

(٣٦) انظر الفلسفة القرآنية للأستاذ عباس العقاد ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، وانظر روح الدين الاسلامى للأستاذ عفيف طباره ، ص ٣٦٨ .

يتأديبن به ولا يتأذين بغيره ... فهؤلاء النساء الناشزات ـ لا يكرهنه ولا يسترذلنه وليس من الضرورى ان يكن من أولئك العصبيات المريضات اللاتى يشتهن الضرب كما يشتهى بعض المرضى ألوان العذاب) (٣٧) .

الحجـــــاب :

نهى القرآن الكريم المرأة عن ان تخرج بزينة جسدها للتصدر للغواية والفساد بين الغرباء ، كما حرص الاسلام على الحفاظ عليهـا وصيانة جسدها من التبرج والسفور ، فأبان فى جلاء انـه لا يحل لها ان تتبرج الجاهلية الأولى ، وهى بعد ذلك فى حل أن تلقى من تشاء ممن تجمعها بهم مجالس الاسرة من النساء والرجال الذين نصت عليهم آيـة الحجاب والذين لا يحلون لها ولا يتأثرون بفتنتها .

وفى هذا يقول الله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظون فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بمـا يصـنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو ابائهن أو آباء بعولتهن أو ابنائهن أو ابناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون) (٣٨) .

ولتسمع كل امراة وكل فتاة فى الدنيا الى ما قاله الله تعالى لرسوله محمد فى شأن ازواجه وبناته ونساء المؤمنين :

،(يا ايها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى أن يعرفن فلا تؤذين وكان الله غفورا رحيما)

(٣٧) الفلسفة القرآنية ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، وانظر كذلك روح الدين الاسلامى للأستاذ عفيف طباره ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٣٨) سورة النور : ٣٠ ، ٣١ .

انه ولا شك وشاح تتشح بــه المراة فى ظل الاسلام ، وسياج من الصون والعفاف ، وهالة يحوط الله بها كل امراة مؤمنة .

ان الله تعالى فى هذه الآيات القرآنية يضع المراة فى اطار من الاجلال والاكبار حيث يأمر نبيه فى هذه الآية الأخيرة بعد الأمـــــر بالحجاب فى الآية الاولى ، بأن يلزم نســـــاء المؤمنين وفى مقدمتهم ازواجه وبناته ان يدنين عليهن من جلابيبهن والجلباب هو الثوب الواسع الفضفاض ـ اى يتسترن بثيابهن الواسعة ليعرفن بالحصانة والتقـــوى والعفاف فلا يؤذين بأعمال سافلة دنيئة ، ولا يجلبن على انفسهن تـلك النظرات الوقحـة الجريئـــة وحتى لا تتوجه اليهن بســـبب سفورهن وتبرجهن هــذه الأقوال ، المهينة البذيئة .

وفى ضوء هذا التوجيه القرآنى نستطيع ان نقول ونحن مطمئنون ان المرأة التقية المؤمنة ـ يجب ان يدل مظهرها على مخبرها ، وهى كذلك التى تجبر الناس بسلوكها على احترامها وعدم ايذائها ، اما من كانت على غير هذا النمط الاسلامى فانها تكون عرضة لمطاردة الذئاب الذين يرون فيها صيدا سهلا فتسمع ما يخجلها وترى ما يؤذيها .

ان الحجاب فى الاسلام هو شعار التقوى ، وبرهان الحيـــــاء والاحتشام وسياج الاجلال والاحترام ، انه اشرف اكليل لجمال المراة ، واعظم دليل على ادبها وكمالها ، فبالخمار تصون جسدها الطاهر من اعتداء الأعين الزانية والسهام العادية .

لقد أبان الاسلام ان المرأة الشريفة الطاهرة هى التى لا تســـمح لرجل غير حلالهـــا ان يتمتع ببدنها وان يلامسه ، وهى كذلك التى لا تسمح لعين غير عين حلالها ان تقع على جسدها الطاهر فتدنســه بل هى لا تطيق نظرة آثمة تنتهك طهارتها المقدسة ، وهى التى تدرك جيدا ما قاله الرسول الكريم فى هذا الحديث الذى رواه ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام واليـد

زناها البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج او يكذبه) متفق عليه .

ان الجمال المزور المصنوع سرعان ما يزول وتعود المراة فى لحظة او اخرى الى ما كانت عليه قبل ان تضع على وجهها الأصباغ والمساحيق، وان مبالغة المراة فى التزين بغرض غير شرعى هى فى الحقيقة لم تكتسب جمالا بل تمسخ وجهها وتخفى ما حباها الله به من الجمال الفطرى وهوالذى احسن كل شىء خلقه .

ان المراة التى تواجه الرجال سافرة مستعرضة لزينتها ولحمها ، هى امراة قد تجردت من ثوب الحياء ، وفقدت بذلك اكبر جاذبية فى جمالها ، واجمل زينة لوجهها ، وان يد الانسان لعاجزة عن ان تقلد جمالا فطره الله تعالى .

يقول الأديب الفرنسى فكتور هوجو : (ان اجمل فتاة التى لا تدرى بجمالها) ونحن نقول ان اقبح فتاة هى المفتونة بجمالها .

ان جمال المراة من وجهة نظر الاسلام هو الذى يكمن فى حيائها واحتشامها .وان على كل امراة تفهم ان الاحتشام لا يتعارض مع الأناقة ولا يدعو الى التهكم والسخرية ، وان الأدعى الى التهكم والسخرية والبعد عن الأناقة هو التبرج ، فقد يكون فى الاحتشام اناقة لا يمكن للتبرج ان يدانيها .

هكذا يكون الحجاب فى الاسلام فهل يقلل الحجاب وهذا شأنه من قيمة المراة ؟ ولماذا تشاع الأوهام بين الغربيين بأن حجاب النساء نظام وضعه الاسلام وكان الحجاب لم يكن معروفا قبل الاسلام ، ان كل اجنبى عن الاسلام لو عاد الى قراءة كتب الاناجيل لعدل عن مهاجمة الاسلام فى شأن الحجاب ولعرف ان الحجاب كان معروفا قبل الاسلام .

لقد امر الله تعالى المؤمنين والمؤمنات فى آية الحجاب والآية التى سبقتها (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ، وقل للمؤمنات يغضض من ابصارهن) امرهم الله بالغض من البصر – اى خفضه وعدم ارساله

فيما تأمر به الشهوة ، وليس المراد ان يكون الانسان مطرقا راسه فلا ينظر رجل الى امراة او العكس لأن هذا مما يشق بل لا يستطاع . ولذلك امر الله بالغض منـه .

ومن فى قوله تعالى (من ابصارهم) و (من ابصارهن) للتبغيض وهو يحصل بعدم استدامة النظر الى ما يحرم ، ومعنى قوله تعالى(ذلك ازكى لهم) أى أطهر فعفـة النظر وطهارته تؤدى الى عفـة النفس وطهارتها . يضاف الى ذلك ان غض البصر عن الشهوات ينمى مواهب الانسان ويوجه نشاطه الى الاعمال التى تحقق اعظم النفع للأمة فى حاضرها ومستقبلها .

ولقد ورد فى آية الحجاب قوله تعالى (الا ما ظهر منها) وهذا الاستثناء يعنى – والله اعلم – الوجه والكفين فيجوز كشفهما عند أمن الفتنة بخلاف الشعر فانه لا يجوز كشفه والى هذا ذهب كثير من فقهـاء المسلمين فمذهب الحنفية والرأى الثانى للشافعى والقول المفتى به عند المالكية انه يباح للمرأة ان تكشف وجهها وكفيها ، وقد قيد هذه الابانة بحالة أمن الفتنة اما اذا كان كشف الوجه يثير الفتنة ويغرى بالمرأة من لا خلق له فانه يجب عليها ستره كما تستر بقية اعضاء جسدها .

هذا وما استحدثه المسلمون من المبالغة فى حجب النساء فهو من باب سـد ذريعة الفساد ، وقد اجمع المسلمون على شرعية صلاة النساء وراء الرجال فى المساجد دون ان تغطى المراة وجههـا وكفيها ، كمـا اجمعوا على جواز احرام النساء بالحج والعمرة والطواف بالبيت الحرام بمكة والوقوف بعرفات مكشوفات الوجوه والأكف ، وقد كن يفعلن كذلك على مشهد من الرجال فى عهد النبى وخلفائه الراشدين .

وفى هذا المجال اذكر رأى لجنة الفتوى التابعة لمشيخة الأزهـر والذى نشر فى المجلد الثانى عشر من مجلة الأ زهر ص ١٢٠ .

تقول لجنة الفتوى : (ولجنة الفتوى ترى تمشـيا مع القاعدتين الاسلاميتين العظيمتين (يسر الدين وسماحته وسد ذرائع الفساد) – ترجيح الرأى القائل بأن وجه المرأة ، وكفيها ليست من العورة ، فلا

جناح عليها ان تكشف شيئا منها امام الرجال الأجانب دفعا للحرج والمشقة في معاملاتها العامة والخاصة ، ولنه اذا خيفت الفتنة يجب عليها ستر جميع بدنها سدا لذريعة الفساد) ثم يقول (واللجنة تقرر في الوقت نفسه ـ ان كشف الوجه واليدين مزينة بالاصباغ المعروفة نوع من التبرج الذي يمقته الشرع ويشدد النكير عليه ، وأن الكشف المباح انما هو للوجه واليدين على طبيعتها التي خلقها الله عليها خالية من اصباغ وألوان ، وهي تناشد المسلمين حرصا على سعادتهم أن يهيمنوا بهذا الأدب الاسلامي الكريم على نسائهم وفتياتهم ويشعروهن بأن مخالفة هـذا الأدب توجب غضب الله وسخطه فضلا عن أنها تدهور كيان الاسـرة الخلقي) (٣٩) ٠

الاسلام وتعدد الزوجـات

في هذا المجال احب أن اقول لمن عاب تعدد الزوجات في الاسلام من الأوربيين سواء اكانوا مستشرقين أو اجتماعيين ، اقول لهؤلاء : ان تعدد الزوجات لم يبتكره الاسـلام انما كان موجودا عند اغلب الشرائع ، وأن العرب في جاهليتهم كانوا من اكثر الأمم تعددا للزوجات ، فلما جاء الاسلام وضع للتعدد حدا لا ينبغي تجاوزه ، وضبطه بشروط تمنع ما يترتب عليه من اضرار ، فالاسلام اباح التعدد ولكنه لم يفرضـه كما توهم المتوهمون من الغربيين ٠

لقد وضع الاسلام ضوابط التعدد في قوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحـدة أو ما ملكت ايمانكم ذلك أدنى الا تعولوا) (٤٠) ٠

ومعنى هذه الآية ـ والله اعلم ـ تزوجوا ممن احل لكم من النساء ما تستطيبه نفوسكم من الواحدة حتى الأربع ولا تزيدوا على هذا ، فان خفتم الا تعدلوا اذا تزوجتم اكثر من واحدة فاكتفوا بواحدة أو ما ملكت

---

(٣٩) انظر كتاب : روح الدين الاسلامي للأستاذ عفيف طباره ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ٠

(٤٠) سورة النساء : ٣ ٠

أيمانكم من الرقيقات ، ذلك النظام اقرب النظم الى الا يكون منكم ظلم لزوجاتـــكم ولا لمن تعولونهـــم ممن يجب عليـــكم نفقتهـــم والقيـــام بحقوقهم ٠

لقد راعى الاسلام ان هناك من الدواعى ما يدعو الرجل الى تعدد زوجاته فى حدود العدد الذى اشارت اليه الآية ، ومن هذه الدواعى ان المراة الواحدة لا تكفى لاحصان الرجل ، او ان تكون المراة مصابة بعقم او مرض مزمن ، او ان المراة قد تذهب عنها جميع المغريات الحســـية والنفسية ، او يرى الرجل ان مزاجه يدفعه الى كثرة الافضاء ومـــزاج زوجته بعكسه الى غير ذلك ٠ فلو لم يبح له الاسلام التعدد لاقتـــرب ما ينافى الدين ، او اختار الطلاق وان الطلاق ليضير بالمراة فى هـــذه الحالات اضعاف ما تضيرها المشاركة فى زوجها ٠

من اجل هذه الدواعى — وغيرها كثير — اباح الاسلام التعـدد ، ولكنه لم يفرضه كما يقول الاوربيون — لقد اباح الاســـلام التعدد من الواحدة حتى الأربع ، ولكنه اشترط لهذه الاباحة العدل ٠

فان خاف الرجل عدم العدل اذا تزوج باكثر من واحدة فليكتف بواحدة (فان خفتم الا تعدلوا فواحدة ٠٠) فالآية اباحت التعدد لهذه الدواعى ولكنها اشترطت العدل بين الزوجات والأمن من الظلم ٠

ومعنى العدل : المساواة فى الانفـــاق والاســكان والمبيت وحسن المعاشرة والقيام بواجبات الزوجية ٠

وكان رسول الله وبعض صحابته يجمعون بين النســـوة مـــع المحافظة على حدود الله فى العدل بينهن مؤتمرين بوصية الرســـول (من كانت له امراتان يميل لاحداهما على الأخرى ، جاء يوم القيامة واحد شقيه مائل) (٤١) ٠

هذا وينبغى ان نلاحظ ان العدل المطلوب فى الآية هو العـــدل

---

(٤١) رواه النسائى ٠

الظاهر ، لا المحبة القلبية فان ذلك لا يستطيعه احد ، فالرسول كان لا يسوى بين ازواجه فى المحبة القلبية . فقد روى عن عائشة انها قالت (كان رسول الله يقسم فيعدل ويقول : اللهم هذا قسمى فيما املك فلا تلمنى فيما تملك ولا املك) (٤٢) .

والميل القلبى هو المقصود بالعدل المنفى فى قوله تعالى : (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ولذلك لم يطلبه الله تعالى .

اعود فاقول : ان الآية التى اباحت التعدد وجاء فى ختامها (فان خفتم الا تعدلوا فواحدة) وهذا يعنى بوضوح أن النص القرآنى ضيق دائرة اباحة التعدد اشد تضييق ، لانه جعل مجرد الخوف من الظلم محرما للتعدد وموجبا للاقتصار على زوجة واحدة (٤٣) فهل يدرك ذلك كل من يرمى الاسلام بتهم هو منها براء .

وفى مجال الرد على المنكرين :

اننا نقول لمن ينكر على الاسلام اباحة التعدد : ان الاسلام لم يكن بدعا بين الرسالات فى هذا المجال ولم يكن هو الدين المبتكر لهذا النظام .

وانما كان التعدد معروفا وسائدا قبل الاسلام بدون تحديد او ضوابط ، فالشرائع المدنية عامة قبل الاسلام — كما يقول الاستاذ العقاد (٤٤) . كانت تبيح تعدد الزوجات واقتناء السرارى بغير تحديد للعدد ولا التزام بشرط من الشروط غير ما يلتزمه الزوج من المؤنة والمأوى .

والشريعتان اليهودية والمسيحية — السابقتان على الاسلام —

---

(٤٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى .
(٤٣) روح الدين الاسلامى للاستاذ عفيف طباره ، ص ٣٧٥ .
(٤٤) المرأة فى القرآن للاستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١١٣ وما بعدها .

كانتـا مختلفتين فى احكام الزواج وفى النظر الى معنـاه وغايته من الوجهـة الروحيـة .

فقـد أباحت الشريعـة الاسرائيلية التعدد حسب رغبة واقتـدار الزوج ، واخبـار العهـد القـديم تفيدنا ان داود وسـليمان عليهمـا السلام — وهما ملكان نبيان — جمعا بين مئات الزوجات الشرعيـات والاماء ولم يلحق بهما اللوم .

ونقلا عن كتاب (المرأة فى القران) ص ١١٣ يقول صاحب كتاب (قوانين الزواج عند العبرانيين الاقدمين) .

(ان التلمود والتوراة معا قد اباحا تعدد الزوجات على اطلاقه ، وان كان بعض الربانيين ينصحون بالقصد فى عدد الزوجات ، وان قوانين البابليين وجد انهم من الأمم التى اختلط بها بنوا اسرائيـل كانوا جميعا على مثل هذه الشريعة فى اتخاذ الزوجات والاماء) .

وجاءت المسـيحية اكبر الديانات الكتابية بعـد ديانات بنى اسرائيل — فذكرت هذه الديانة الجديدة شيئا عن الزواج فى ناحيتـه العبادية او فى ناحيته التى تتصل بالعالم الآخر ، ولم يرد فى كتابها نص صريح يحرم تعدد الزوجات ، وانما ورد فى كلام ، (بولس) رسولها الكبير استحسان الاكتفاء بزوجة واحدة لرجل الدين المنقطع عن مآرب دنياه ، ذهابا الى الرضى بأهون الشرين وقياسا على ان تـرك الزواج لمن استطاعه خير من الزواج .

وظلت اباحة تعدد الزوجات فى العـالم المسيحى الى القـرن السـادس عشـر .

يقول (وسترمارك) فى تاريخه (ان ديار ماث ملك ايرلنده كان له زوجتان وسريتان ، وتعددت زوجات الملوك الميروفنجيين غير مرة فى القرون الوسطى ، وكان لشرلمان زوجتان وكثير من السرارى يظهر من بعض قوانينه ان تعدد الزوجات لم يكن مجهولا بين الرجال انفسهم ، وبعد ذلك بزمن كان ، (فليب أوف هيسى) و (فردريك

وليام الثانى الروسى) يبرهان عقد الزواج مع اثنين بموافقة القسلوسة اللوثريين ، واقر مارتن لوثر نفســـه تصرف الأولى منهـــا كما اقره (ملانكتون) وكان لوثر يتكلم فى شتى المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض ، فانه لم يحرم بأمر من الله ، ولم يكن ابراهيم يحجم عنه اذ كان له زوجتان ٠

ثم يقول العقاد : نعم ان الله اذن بذلك لأناس من رجال العهــد القديم فى ظروف خاصة ، ولكن المسيحى الذى يريد ان يقتدى بهــم يحق له ان يفعل ذلك متى تيقن ان ظروفه تشبه تلك الظروف ، فان تعدد الزوجات على كل حال افضل من الطلاق ٠

وفى سنة ١٦٥٠ م ــ بعــد صلح وستفاليا ــ وبعد أن تبين النقص فى عدد السكان من جراء حروب الثلاثين ، اصــدر مجلس الفرنكيين بنو مبرج قرارا يجيز للرجل ان يجمع بين زوجتين ، بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية الى ايجاب تعدد الزوجات ، ففى سنة ١٥٣١م نادى اللامعمدانيون فى مونســتر صراحة ، بأن المسيحى ــ حق المسيحى ــ ينبغى ان تكون له عدة زوجات ٠

ويعتبر المورمون كما هو معلوم ان تعدد الزوجات نظــــام الهى مقــدس) ٠

ومن المعلوم ان اقتناء السرارى كان مبــاحًا على اطلاقه لتعــدد الزوجات ، مع اباحة الرق جملة فى البلاد الغربية لا يحده الا ما كان يحد تعدد الزوجات ٠٠٠٠٠ الخ ٠

ولعل فيما كتبت بهذا الصدد يكفى لاقناع المهاجمين ٠

الزيادة على الأربع خصوصية لرسول الله ﷺ :

ولعل الحديث عن تعدد الزوجات فى الاسلام يدفعنا الى الــرد على تلك المهاترات المغرضة التى روج لها خصوم الاسلام فيما يتعلق بزواج النبى ﷺ باكثر من اربع ، وتفسيرهم لهذه الكثرة ان محمــدا

كان صاحب متعة واستغراق فى مناعم الحياة الجنسية ليصلوا من وراء ذلك الى الطعن فى شخصية الرسول الكريم ٠

وأحب أن اقــول لهؤلاء : ان محمدا ﷺ كما يقــول العقاد : لــه خصوصية فى امر تعدد الزوجات ، وهذه الخصوصية جازت له قبــل سريان حكم التقييد بأربع لغيره من المسلمين انها استثناء توجبــــه مصلحة النظام الجديد ، وهو استثناء لا يتكرر لأن تكراره يجعــــله نظاما قائما الى جانب النظام الجديد ، لقد ارتبطت هذه الخصوصية بمصلحة الدعوة الجديدة ــ دعوة الاسلام ــ فى ابانها ، ولما لم يكن للدعوة رسول سواه ، لذا فلم يكن له غنى عن تلك الخصوصـــية فى البلاد التى تأسست فيها الدعوة الأولى ، وهى بلاد الأنســاب وروابط المصاهرة والولاء بين الاسر والبيوت ، وهذه الخصوصية وامثالهــــا ليست بالشىء النادر عند تأسيس النظم الاجتماعية قبل تمام الانتقال من نظام الى نظام ، وهى كذلك خصوصية تتنزه عما يعاب على الرجل أو على المرأة ، وتخلص من كل شـــوائب الهـــوى النفسى ، لم تكن خصوصية لتمكين صاحبها من المتعة والاستغراق فى مناعم الحيــــاه الجنسية فبيتا كبيت محمد يشكو نساؤه قلة المؤنة والزينة لا يمـــــكن ان يقال عن صاحبه انه رجل تملكه اهواء نفسه ، والرجل الذى يسيطر على الجزيرة العربية ولا يمد يده لاغتراف الثروة التى تكفى زوجاته ، ــ لا يمكن ان يقال عنه انه مغلوب الحس ينساق مع غواية المتعة ووساوس الشـــهوات ، وهل يعقل ان رجـــلا خلق لطلب اللذة ثم ينهض بمـــا نهض به محمد من عظائم الأمور فى مدى سنوات معدودات ؟

ان سليمان الحكيم جمع بين الف امراة من الحرائر والاماء كمــا جاء فى كتب العهد القديم ، وبرغم هذا العدد الضخم الا انهن اجتمعن فى ذلك الحرم مأسورات مملوكات ورضين به رضى عن الترف والجاه فى قصر يعلو على القصور ، اما نساء محمد فقد رضين بالبقاء فى بيته مع علمهم بأن هذا البيت لا مال فيه ولا جاه اللهم الا جاه الــروح ترتفع اليه المرأة بهدى الرسالة ، ولا يرفعها اليه سوى هداها ، فلم تكن الواحدة منهن تشعر بالمهانة لزواجها من رسول الله ، بل على العكس من ذلك كان دخول المرأة فى عداد امهات المؤمنين شرفا لا يعلوه شرف

ترنو اليه كل امراة من اعرق البيوتات ، وتنظر الى ما تتمتع به امهات المؤمنين من كرامة رفيعة لا ترتفع عليها كرامة لانها كرامة حاضرة باقية ان الخصوصية التى انفرد بها محمد ﷺ فى هذا السبيل تنزهت عن كل مهانة تشين الرجل او المراة ، ولا حكمة لها الا انها من اجل الدعـــوة وفى سبيلها ، والا ان تكون تعليمـــا بارزا لحكمة التشريع فى تعـدد الزوجات وهى تدعيم النظام الاجتماعى بالمصاهرة ، وصيانة المراة من الفتنة والمهانة وليس ادل على ذلك من ان المصاهرة قد جمعت ابا بكر وعمر وعثمان وعليا فى رسالة واحدة هى رسالة الاسلام .

ثم ان كل سيدة من امهات المؤمنين كانت تأوى الى بيت الرسول اعتصاما من الارتداد والوقوع فى ايدى الحاقدين عليها من ذويهـــا ، او لاكراهها عن منزلة دون منزلتها او عن عرضها على من يضـــــارع اهلها ممن لا يرغبون فيها الى غير ذلك .

ولنترك الأستاذ / عبـاس محمود العقـــاد فى كتـابه المراة فى القرآن ص ١٢٨ ، ١٣٥ يذكر لنا اسماء امهات المؤمنين ويذكر أحوالهن عند بناء النبى بهن لتنقطع الظنة فى اســباب كل زواج ســـهلته الخصوصية النبوية ، يذكر العقاد فى هذا الشان قوله :

(... ولم يحدث قط ان اختار زوجة واحـــدة لانهـــا مليحه او وسيمة ولم يبن بعـــذراء قط الا العذراء التى علم قومه جميعـــا انه اختارها لانها بنت صديقه وصفيه ، وخليفته من بعده ابى بكر الصديق رضى الله عنه هذا الرجل الذى يفترى عليه الكاذبون انه الشـهوان الغارق فى لذات حسه وقد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين وكان هو فى عنفوان الشباب لا يجاوز الخامســة والعشرين وقد اختـارته زوجا لها لانه الصادق الامين فيما اشتهر به بين قومـه من صـــفة وسيرة ، وفيما لقبه به عارفوه ، وعرفوا الصدق والأمانة فيه ، وعاش معها الى يوم وفاتها على احسن حال من السيرة الطاهرة والســـمعة النقية ، ثم وفى لها بعد وفاتها فلم يفكر فى الزواج ، حتى عرضـته عليه سيدة مسلمة رقت له فى عزلته فخطبت له السيدة عائشة باذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة لا ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

(وما بنى — عليه السلام — بواجدة من امهـــات المؤمنين لمـــا وصفت به عنده من الجمال والنضارة ، وانما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير بهن ومعظمهن كن أرامل مؤيمات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن ان لم يفكر فيهن رسول الله) (فالســـيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة الى الحبشة ، ولا مأوى لها بعد موته الا أن تعود الى اهلها فيكرهوها على الردة ، أو تتزوج بغير كفء لها لا يريدها) .

(والسيدة هند بنت أبى امية — أم سلمة — مات زوجها عبد الله المخزومى ، وكان أيضا ابن عمها ، أصابه جرح فى غزوة احد فقضى عليه وكانت كهلة مسنة فاعتذرت الى رسول الله ﷺ بسنها لتعفيه من خطبتها ، فواساها قائلا : (سلى الله ان يؤجرك فى مصيبتك ، وان يخلفك خيرا ، فقالت : (ومن يكون خيرا لى من أبى سلمة ؟) وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها واعتذرت بمثل ما اعتذرت به ، فطيب خاطرها واعاد عليها الخطبة حتى قبلتها) .

(والسيدة رملة بنت أبى سفيان ، تركت اباها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة ، فتنصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبى عليه السلام الى النجاشى يطلبها من هذه الغربة المهلكة وينقذها من اهلها اذا عادت اليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها ، ولعل فى الزواج بها سببا يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب فتميل به من جفاء العداوة الى مودة تخرجه من ظلمات الشرك الى هداية الاسلام) .

(والسيدة جويرية بنت الحارث سيد قومه ، كانت بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق ، فاكرمها النبى عليه السلام ان تذل ذلة السباء فتزوجها واعتقها وحض المسلمين على اعتاق سباياهم ، فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء عند رسول الله فاختارت البقاء فى حرم رسول الله) .

(والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت ، وعرضها على عثمان فسكت ، وبث عمر أسفه للنبى فلم يشأ أن يضن على صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرف بها

ابا بكر قبله ، وقال له يتزوج حفصـــة من هو خير لها من ابى بكر وعثمان) .

(والسيدة صفية الاسرائيلية بنت سيد بنى قريظة ، خيرها النبى ﷺ بين أن يردها الى أهلها ، أو يعتقها ويتزوجها ، فاختارت البقاء عنده على العودة الى ذويها ، ولكى ندرك الخلق الرفيع الذى جبلت عليه نفسه الشريفة لابد أن نعلم أن السيدة صفية كانت قصيرة يعيبها صواحبها بالقصر ، وذات مرة سمع صلوات الله عليه احدى صواحبها تعيبها بقصرها ، فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى: (انك قد نطقت بكلمة لو القيت فى البحر لكدرته ، وجبر خاطـــر الأسيرة الغريبة أن تسمع فى بيته ما يكدرها ويغض منها) .

(والسيدة زينب بنت جحش ـ ابنة عمته ـ زوجها من مولاه ، ومتبناه زيد بن حارثة ، فنفرت منه وعز على زيد أن يروضها على طاعته فأذن له النبى فى طلاقها فتزوجها عليه السلام لأنه المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها ولم تفاجئه بروعة كما يعهدها) هكذا يعلل الأستاذ العقاد لزواج الرسول من زينب بنت جحش فيذكر أن الرسول اذن لزيد بطلاقها لأنه كان سببا فى زواجها منه ثم تزوجها . غير أن الواقع الذى تشير اليه آيات سورة الأحزاب وكتب التفسير أن الله عز وجل كان قد أخبر النبى ﷺ بأن زيدا سيطلق زينب وستكون زوجا له فى الوقت الذى كان فيه زيد يتردد على الرسول يشكو من حال زينب معه وانه يريد أن يطلقها ، والرسول يقول له : (امسـك عليك زوجك واتق الله) فى الوقت الذى كان فيه الرسول يعلم عن طريق الوحى أن زينب بعد طلاقها من زيد ستكون زوجا له وفى هذا يقول الله تعالى :

(واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حـــرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضـــوا منهن وطرا وكان أمر اللـــه مفعولا) (٤٥) .

لقد عاتب الله نبيه فى هذه الآية على اصراره على اقناع زيـد

(٤٥) سورة الأحزاب : ٣٧ .

بابقاء زينب فى عصمته مع علمه عن طريق الوحى بانها ستكون زوجا له ، وماذا يقول الرسول لزيد ؟ هل يقول له طلقها لاتزوجها لأن الله اخبرنى بذلك ؟ ان الامر جد حرج ولكن الخشية من الناس لا تساوى شيئا بجانب خشية الله وطاعة امره ، ومن هنا عاتبه الله فى هذا والحكمة فى هذا والله أعلم بالمراد أن العرب كانوا اذا تزوج متبناهم امراة ثم طلقها حرمت على من تبناه حرمة زوجة الابن الحقيقى فأراد الله ان يقضى على هذه العادة التى تعارف عليها العرب ، ولن يكون القضاء عمليا الا عن طريق الرسول نفسه ليتعلم الناس أن زوجة الابن بالتبنى لا تحرم على من تبناه ولذلك اراد الله ان يتزوج الرسول زينب بنت جحش زوجة متبناه زيد بن حارثة ليقضى على هذه العادة .

تلك لفتة أردت ان اعلق بها على كلام العقاد ليدرك المؤمنون الظروف الحقيقية التى احاطت بهذه الزيجة والمناسبة التى تمت فيها.

بعد ذلك نتابع مع العقاد بقية نساء النبى وظروف الزواج بهن يقول العقاد رحمه الله (والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا فى غزوة احد ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها فتكفل بها عليه السلام اذ لا كفيل لها من قومها) .

(وهذا هو الحريم المشهور فى اباطيل المبشرين واشباه المبشرين وهذه هى بواعث النفس التى استعصى على المبطلين ان يفهموها على على جليتها ، فلم يفهموا منها الا أنها بواعث انسان غارق فى لذات الحس ، شهوان) .

(ولقد اقام هؤلاء الزوجات فى بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات فى بيوت الكثيرين من الرجال ، مسلمين كانوا أو مشركين ، وعلى هذا الشرف الذى لا يدانيه عند المراة المسلمة شرف الملكات أو الأميرات ، شقت عليهن شدة العيش فى بيت لا يصبن فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف ، والقناعة بايسر اليسير ، فاتفقن على مفاتحته فى الأمر ، واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة ، وهى موفورة لديه لو شاء ان يزيد فى حصته من الفيىء ، فلا يعترضه احد ولا يحاسبه عليه ، الا ان الرجل المحكم فى الأنفس والأموال ـ سيد

الجزيرة العربية — لم يستطع ان يزيدهن على نصيبه ، ونصيبهن من الطعام والزينة فامهلهن شهرا ، وخيرهن بعد ان يفارقنه ، ولهن منه حق المراة المفارقة من المتاع والحسنى ، او يقبلن ما قبله لنفسه معهن من ذلك العيش الكفاف) ٠

(ولو ان هذا الخبر من اخبار بيت النبى كان من حوادث السيرة المحمدية التى تخفى على المطلعين المتوسعين فى الاطلاع ، لقد كان للمبطلين بعض العذر فيما يفترونه على نبى الاسلام من كذب وبهتان ، الا انه خبر يعلمه كل ما اطلع على القرآن ووقف على اسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو اشهر فى كتب التفسير من اسباب نزول هذه الآيات فى سورة الأحزاب) ٠

(يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) ٠

(واقل المبشرين المحترفين ولعا بالتفتيش عن خفايا السيرة النبوية خليق ان يطلع على تفاصيل هذا الحادث بحذافيره لأنه ورد فى القرآن خاصا بالمسألة التى يتكالب المبشرون المحترفون على استقصاء اخبارها ، واحصاء شواردها ، وهى مسألة الزواج وتعدد الزوجات ٠

وقد كا نلذا الحادث الفريد فى سيرة النبى صدى لم يبلغه حدث من الحوادث التى عنيت بها العشيرة الاسلامية حين كانت فى بيئتها المحدودة تحيط بايمانها احاطة الأسرة بأبيها) ٠

حقا : لقد تجمع نساء النبى عليه فى شبه اصرار يطلبن منه التوسعة وتحقيق رغائبهن الدنيوية والكمالية ، واستمع النبى اليهن فى صمت وهدوء دون ان يتكلم ، ويذكر الرواه ان هذا الطلب من اجل مضاعفة النفقة قد تم وحضره ابو بكر وعمر وأن كلا منهما

قام مغضبا ليجأ عنق ابنته لتجرئها على رسول الله ومطالبته بما لم يكن يملك ، وأن الرسول الكريم ـ خلال هـــذا كله ـ لم يتكلم بـل ولم يتحرك من مكانه ، وظل هكذا امام هـــذا الموقف الغريب من نســـائه .

انها قضية من نوع جديد وليست قضية خاصة بنسـائه وحدهن ، واذا كان الأمر كذلك فلا ينبغى أن يكون الرأى فيها لمحمد وحـده ، لأن ما يقال حلا لهذا الموقف سينسحب على المسلمات جميعا فى كل العصور ، واذا كان نساء النبى هن القدوة الحسنة دائما فما يسـرى عليهن من اوامر أو توجيهات يكون ملزما لجميع النســاء المسلمات فى كل زمان ومكان ، لذلك ظل الرسول صامتا لا يتكلم ، ثم قام من مكانه فى هدوء واعتزل نساءه جميعا حتى تردد يومها أنه طلقهن .

حدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال (كنا تحدثنـا ان غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشـــاء فضرب بأبى ضربا شديدا وقال : اثم هو ففزعت وخرجت اليه وقال حدث أمر عظيم قلت ما هو ؟ اجاءت غسان ؟ قال : لا ، بل اعظم منه وأطول .. طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه) .

وبالطبع لم يكن قد حدث الطلاق لأنه الرسول والقدوة فلو انه طلقهن لكان فى هذا ذريعة يلجأ اليها كل مسلم تساله زوجته زيـادة النفقـــــة .

والحق أن الرسول فى هذا الموقف لم يزد على انه اعتزلهن لمـا فى الاعتزال من التأديب والزجر ما فيه .

وطالت مدة الاعتزال شهرا كاملا ، وهذا منتهى الزجر بل منتهى التأديب والتوجيه الصحيح .

صحيح أن لكل امرأة مطالب غير انها لا ينبغى ان تتجـــاوز حدود مقدرة الزوج ، واذا طلبت الزوجة من زوجها القادر اكثر ممـا

تطلبه نساء زمنها اتسم هذا المطلب بالخروج عن حد الاعتدال ، وهذا هو الشذوذ عن القاعدة .

وشاء الله ان يكون هو الحكم ، وصاحب الراى فى تلك القضية فنزل على الرسول الكريم قوله تعالى :

(يا ايها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيـــــا وزينتها فتعالين ...) الى آخر الآية التى سبق ذكرها وهى المعروفة بآية التخيير ، وآية التخيير هذه بما حوته من حكم آلهى فى هذه القضية الحساسة هى القول الفصل الذى الزم نساء النبى بطـــــاعة الأمر الربانى ، وما عليهن الا ان يتخيرن ، فمن ارادت الحياة الدنيا وزينتها فما عليها الا ان تصارح رسول الله بهذه الرغبة كى يمتعها بما تريد ثم يسرحها بعد ذلك سراحا جميلا .

اما من اختارت الله ورسوله والدار الآخـــرة منهن فعليها ان تقبل الوضع الذى هى عليه راضية ، ولا تقلد غيرها لأن الله العـلى القدير قد اعد لها ـ اذا احسنت ولم تسترسل وراء رغبات النفس ـ اجـرا عظيمـا .

والحق ان هذا الحكم السماوى قد قضى على هذه المظـــاهرة التى شبت فى بيت النبوة العظيم ، وقضى على هــــذه الفتنة وهى فى بدايتها قبل ان تستفحل ويعظم خطرها .

ولقد بدأ الرســول بتخيير عائشــة فقال : (انى اريد ان اعرض عليك امرا احب الا تتعجلى منه حتى تستشيرى ابويك فســألته : (وما هو يا رسول الله) ؟ فعرض عليها الخيرة مع سائر نســائه فى امرهن فقالت : (افيك يا رسول الله استشير قومى بل اختـــار الله ورسوله والدار الآخرة) واجابت امهات المسلمين بما اجابت به السيدة عائشة . وانتهت هذه الأزمة بسلام . وما استطاع صاحب الدار ـ وهو يومئذ اقدر رجل فى العـــالم المعمور ان يحل ازمة داره بغير

احدى اثنتين ان يجمع النية على فراق نسائه ، او يقنعهن معه بما لديهن من رزق كفاف) .

فهل مثل هذا الرجل يمكن ان يقال عنه انه ابتغى من رسالته مأربا يبغيه الدعاة غير الهداية والاصلاح ؟

(أمن اجل الحسن ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة العربية واقدر رجالها على اصطفاء النساء الحسان من الحرائر والاماء) ؟

يقول الأستاذ العقاد :

(ان المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسالة الزواج فى السيرة النبوية مقتلا يصيب محمدا ، او يصيب دعوته من ورائه ولكنهم قد كشفوا منها حجة لا حجة مثلها فى الدلالة على صدق دعوته وايمانه برسالته ، واخلاصه لها فى سره كاخلاصه لها فى علانيته ، ولولا انهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا فى السكوت عن مسألة الزواج خاصة اشد من اجتهادهم فى التشهير بها واللغط فيها) .

هذا هو التعدد فى كل صوره واشكاله كما جاء به الاسلام ، وفيما ذكرنا كفاية للرد على الطاعنين .

الطلاق فى الاسلام :

تعريف الطلاق

الطلاق مأخوذ من الاطلاق وهو الارسال والترك - وفى الشرع : حل رابطة الزواج وانهاء العلاقة الزوجية سواء اكان ذلك باللفظ ام بالكتابة الى الزوجة ، ام بالاشارة من الأخرس .

فاذا كان الطلاق باللفظ : فهذا اللفظ قد يكون صريحا : اى يفهم من معنى الكلام عند التلفظ به مثل : انت طالق ، او انت مطلقة ومذهب الشافعى ان الفاظ الطلاق الصريحة ثلاثة هى : الطلاق والفراق ، والسراح . لأنها الألفاظ المذكورة فى القرآن الكريم وبعض

اهل الظاهر يرون ان الطلاق لا يقع الا بهذه الثلاث لورود الشرع بها وهى عبادة ، ومن شروطها اللفظ فوجب الاقتصار على اللفظ الشرعى الوارد فيها (٤٦) .

فاللفظ الصريح يقع به الطلاق من غير احتياج الى نية تبين المراد منه لأنه واضح فى دلالته ومعناه ـ بشرط ان يكون لفظه مضافا الى الزوجة وذلك كأن يقول : زوجتى طالق او انت طالق ، فلو قال لـم ارد الطلاق ولم اقصده لا يصدق قضاء ويقع طلاقه وقد يكون لفظ الطلاق كناية : وهو ما يحتمل الطلاق وغيره وذلك مثل : انت على حرام فهو يحتمل حرمة المتعة بها ، ويحتمل حرمة ايذائها ومثل قوله امرك بيدك ، فهو يحتمل تمليكها عصمتها ... كما يحتمل تمليكها حرية التصرف . والكناية لا يقع بها الطلاق الا بالنية ، فلو قال الناطق بالكناية : لم انو الطلاق بل نويت معنى آخر يصدق قضاء ، ولا يقع طلاقه ، وذلك لأن اللفظ الذى نطق به يحتمل معنى الطلاق ويحتمل غيره والنية هنا هى التى تعين المراد وهذا مذهب مالك والشافعى .

أما مذهب الأحناف فانه يرى ان كنايات الطلاق يقع بهـا الطلاق بالنية وأنه يقع بها الطلاق أيضا بدلالة الحال ـ هذا ولم يأخذ القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ بمذهب الأحناف فى الاكتفاء بدلالة الحال بل اشترط ان ينوى المطلق بالكناية الطلاق واخذ بمذهب مالك والشافعى حيث جاء فى المادة الرابعة منه (كنايات الطلاق وهى ما تحتمل الطلاق أو غيره لا يقع بها الطلاق الا بالنية) وهذا فيما يتعلق بالطلاق باللفظ صريحا أو كناية .

أما الطـلاق بالكتـابة :

فيقع بها الطلاق ، فكما أن للزوج ان يطلق زوجته باللفظ فله أن يكتب اليها الطلاق ولو كان قادرا على النطق واشترط الفقهاء ان تكون الكتابة مستبينة مرسومة .

ومعنى انها مستبينة : أى تكون الكتابة بالطـلاق بينة واضـحة بحيث تقرأ فى صحيفة ونحوها .

ومعنى انها مرسومة : أى تكون مكتوبة بعنوان الزوجة بـأن

---

(٤٦) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

يكتب اليها : يا فلانه انت طالق . فاذا لم يوجه الكتابة اليها بأن ، كتب على ورقة عبارة : انت طالق او : زوجتى طالق فلا يقع الطلاق الا بالنية لاحتمال انه كتب هذه العبارة من غير قصد الى الطلاق .

وأما الطلاق بالاشـــارة :

فلا يقع الا للأخرس لأن الاشارة بالنسبة له ادارة تفهيم فتقوم مقام اللفظ فى ايقاع الطلاق . اذا اشار اشارة تدل على قصده فى انهاء العلاقة الزوجية .

هذا وقد اشترط بعض الفقهاء الا يكون عارفا بالكتابة ، ولا قادرا عليها والا فلا تكفى الاشارة لان الكتابة ادل على المقصود فلا يعـــدل عنها الى الاشـــارة الا لضرورة العجز عنها (٤٧) .

الطلاق أبغض الحلال الى اللـه

أباح الاسلام الطلاق ولكن مع ذمـة ، والتنفير منـه ، فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أبغض الحلال الى اللـه عز وجل الطلاق) (٤٨) .

ذلك ان استقرار الحياة الزوجية من الغايات التى يحرص عليهـا الاسلام . وعقد الزواج انما يعقد للدوام الى أن تنتهى الحيـاة ليتمكن الزوجان من السعادة فى ظل بيت الزوجية وتنشئة ، أولادهما تنشئة صالحة .

ولذلك كانت الصلة بين الزوجين من اقدس الصلات ، واوثقهـــا وقد سمى الله العهد بين الزوجين بالميثاق الغليظ فقال : (واخذن منكم ميثاقا غليظـا) (٤٩) .

واذا كانت العلاقة بين الزوجين بهـذه المثابة من التوثيق والتاكيد

---

(٤٧) فقه السنة ، المجلد الثانى لفضيلة الشيخ سيد سابق ، ص ٢١٧ ، ٢١٩ .
(٤٨) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه .
(٤٩) سورة النساء : ٢١ .

فلا ينبغى التهوين من شانها او الاخلال بها ، وكل ما من شانه ان يوهن هذه الصلة فهو بغيض الى الاســـلام .

والزوجة التى تطلب الطلاق من غير سبب ولا مقتضى ، تحرم عليها رائحة الجنة . فعن ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ايما امراة ســالت زوجهــا طــلاقا من غير بأس فحــرام عليها رائحــة الجنــة) (٥٠) .

حــكم الطــلاق

وللفقهاء فى حكم الطلاق آراء اصحها راى الذين ذهبــوا الى حظره الا لحاجة ، وهؤلاء هم الاحناف ، والحنابلة . واستدلوا لرايهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لعن الله كل ذواق ، مطلاق) .

ولما كان الزواج نعمة من نعم الله ، وكفران النعمة حرام ، لذلك فانه لا يحل الا للضرورة وذلك كأن يرتاب الرجل فى سلوك زوجته ، او يستقر فى قلبــه عــدم اشتهائها ، فان لم تكن هنــاك حاجة تدعو الى الطلاق ، كان ســوء ادب من الزوج بكفرانه نعمة الله فيكون مكروها محظورا .

والحــكمة من الطــلاق

فى الشرائع التى تبيحه للضرورة هى : (عدم تعطيل النســل المرغوب فيــه . فقــد تكون المراة عقيما لا تلد ، والرجــل فقيرا لا قدرة له على الجمع بين زوجتين وهو فى الوقت نفسه يرغب فى الولد ليعينه فى شيخوخته ويحفظ له اسمه بعــد موتــه هذا اذا كان الزوج يديــن بشريعة تبيح لــه تعدد الزوجات .

كما ان من حكمة الطلاق : رفع الحرج عن الزوجين لأن احدهما قد يتصف بســوء فى خلقــه او فســاد فى تربيته او ضعف فى دينه او يكون بينهما تخالف فى الطباع وتضاد فى المقاصد فتتنافر القلوب ، او

---

(٥٠) رواه أصحاب السنن وحسنه الترمذى .

ينعدم التآلف ، والأسرة اذا لم تقم على المحبـــة أو تدعم بالموافقـــة تداعت أركانها وأنهار بناؤها .

ولهـذا نرى كثيرا من الدول الأوربيـة والأمريكية اضطرت أخيرا الى تبنى ما كانت تنكره سابقا على الاسلام ، فقـد اقرت الزواج المدنى الذى يحتوى على الطلاق ، وجعلته شرعة ثابتة فى قانونها الشخصى وأصلا من أصول مدنيتها الحديثة ، وان خالف ذلك اصول دينها .

ثم أن انطلاق ليس بدعا فى الشرائع ، بل هو عريق فى الأمم القديمة وقد كان الرجل يستعمله بمطلق حريتـه ، وليس للمرأة ان تطلبه بحال من الأحوال ، وظل الأمر كذلك الى عهد الدولة الرومانية حيث اصبحت الروابط جدواهية ، والطلاق فاشيا وعلى ذلك جرت القوانين العبرية القديمة والأثينية .

ثم لما جاءت الديانة الموسوية حسنت من احوال الزوجة ، ولكنها أباحت الطلاق بسبب من ثلاثة : الزنا ، والعقم ، وعيب الخـــلق والخلقة (٥١) .

أما المسيحية فان مذاهبها التى تعتنقها امم الغرب المسيحى هى : المـذهب الكاثوليكى ، والمـذهب الأرثوذكسى ، والمذهب البروتستنتى فالمذهب الكاثوليكى : يحرم الطلاق تحريما باتا ، ولا يبيح فصم الزواج لاى سبب مهما عظم شأنه ، وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعقد فى نظره مبررا للطلاق ، وكل ما يبيحه فى حالة الخيانة الزوجية هـــو التفرقة الجسمية بين شخصى الزوجين ، مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما فى اثناء هـذه الفرقة ان يعقد زواجه على شخص آخر لان ذلك يعتبر تعددا للزوجات والديانة المسيحية لا تبيح التعدد بحال .

وتعتمد الكاثوليكية فى مذهبها هـذا على ما جاء فى انجيـل مرقص اذ يقول : (.... ويكون الاثنان جسدا واحدا ، اذن ليس بعد اثنين ، بل جسد واحـد فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان) (٥٢) .

---

(٥١) روح الدين الاسلامى ، ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
(٥٢) أنجيل مرقص ، اصحاح ١٠ رقم ٨ ، ٩ .

اما المذهبان المسيحيان الآخـران ـ الأرثوذكسى والبروتستنتى ـ فيبيحان الطلاق فى بعض حالات محدودة من أهمها الخيانة الزوجيـة ولكنهما يحرمان على الرجـــل والمراة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك .وتعتمد المذاهب المسيحية التى تبيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية على ما ورد فى انجيل متى اذ يقول : (من طلق امراته الا لعـلة الزنا يجعلها تزنى) (٥٣) كما تعتمد المذاهب المسيحية فى تحريمها الزواج على المطلق والمطلقة على ما ورد فى انجيل مرقص اذ يقول : (من طلق امراته وتزوج بأخرى يزنى عليها ، وان طلقت امراة زوجها وتزوجت بآخر تزنى) (٥٤) (٥٥) .

وعلى هـذا فالتفريق الجسدى الذى وضع اسسه رجال الكنيسة لا يختلف عن الطلاق الا فى مسألة عدم تلاشى الزواج اسما . لكن الزواج فى الحقيقة قد تلاشى فعلا . فالزوجان يعيشان متباعدين ولم يبق من احكام الزواج بين الزوجين الا وجـوب النفقة عند الحاجة ووجوب المحافظة على عفتهما ، أضف الى ذلك أن قيام الزواج اسما يمنعهما من الزواج ثانية ويكونان كما قال المسيو بلانيول (٥٦) : (قد ضحيـــا ببقائهما دون ما امل ، ويجدان انفسهما قد حكم عليهمـا بالعـزوبة الاجبارية) ـ وقال ايضا : (ان فى اغلب الأوقات يكون ، الباعث على استحالة بقـاء الحياة هو زنـا احد الزوجين او زنـا الاثنين معا ، فهل يظن اذا فرق بينهما ان يتخليا عن علاقتهما غير المشروعة ؟ ثم ما هـو المركز الاجتماعى للمراة المهجورة ؟

وما هو مركز الزوج اذا كانت المراة تعبث بشرفه حاملة ومجررة اسمه واسم اولاده فى كل مكان ومعجزة اياه بطلب الدراهم ، او مهددة اياه بفضائح جديدة) ؟ .

ثم قال المسيو بلانيول : (ان التفريق الجـــدى لا يزيل داء الا ويستبدله بداء آخـر ، فانه لا يوجد البتـه صبغة حياة زوجيـــة بين

---

(٥٣) انجيل متى ، اصحاح رقم ٥ : ٣٢ .

(٥٤) انجيل مرقص ، اصحاح رقم١٠ : ١١ .

(٥٥) فقه السنة ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٥٦) المسيو بلانيول : القانون المدنى الفرنسى ، ج ١ ص ٣٦٧ .

زوجين مكرهين على أن يعيشــا معا ، ولكن يوجد فضــائح علنية تحمل الزوج الآخر على اليأس حتى أن الزوجين بعد التفريق الجسدى يمكنهما أن يقترفا المساوىء اكثر من ذى قبل) (٥٧) .

الطلاق فى الاسلام من حق الزوج :

لما كان الرجل احرص على بقاء الزوجية التى انفق المــال فى سبيلهما جعل الاسلام الطلاق من حقه وحده ، فهو اذا اراد أن يطلق ثم يعقد على زوجة اخرى لاشك ســيفكر فيما يحتـــاجه هذا الزواج الآخر من مهر وتكاليف وانفــــاق ، وفيمــــا يعطيه من مؤخر المهر للمطلقة ، ومتعة الطلاق ، والنفقة عليها فى مدة العدة ، فالرجل بذلك وبمقتضى عقله ومزاجه يكون أصبر على ما يكره من المــــرأة فلا يسارع الى الطلاق لكل غضبة يغضبها أو سيئة من زوجته يشــق عليه احتمالهــا .

أما المرأة فهى أسرع منه غضبا ، واقل احتمالا ، وليس عليهــا من نفقات الطلاق مثل ما على الرجل ، فهى اجدر بالمبادرة الى حل عقد الزوجية لأوهن الأسباب ان اعطى لها حق الطلاق ، لذلك جعل الاسلام الطلاق من حق الرجل وهــذا تعليل صــحيح بدليل أن الافرنج لما جعلوا طلب الطلاق حقا للرجال والنساء على السواء كثر الطلاق عندهم بصورة جعلته أضعاف الطلاق عند المسلمين (٥٨) .

والدليل على أن الطلاق فى الاسلام من حق الرجل وحـــده ولم يجعل الله لغيره حقا فيه قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ..) . وقوله تعالى : (اذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فأمسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف) .

قال ابن القيم : فجعل الطلاق لمن نكح لأن له الامساك وهـــو الرجعة . وعن ابن عباس قال : اتى النبى ﷺ رجل فقال : يا رسول الله سيدى زوجنى امته وهو يريد أن يفرق بينى وبينها قال : فصعد

---

(٥٧) انظر روح الدين الاسلامى ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٥٨) فقه السنة ، ص ٢١١ .

رسول الله ﷺ المنبر فقال (يا ايها الناس : ما بال احدكم يزوج عبده امته ثم يريد ان يفرق بينهما ـ انما الطلاق لمن اخذ الساق) (٥٩) .

ولكن : هل للزوج ان يفوض زوجته فى تطليق نفسها ؟ وهل له ان يوكل غيره فى تطليقها ؟

وهنا نقول : من حق الزوج ان يطلق زوجته بنفسه ، وله ان يفوضها فى تطليق نفسها ، وله ان يوكل غيره فى هذا التطليق ولا يمنعه التفويض او التوكيل من ان يستعمل حقه فى التطليق متى شاء ، ولم يخالف فى هذا الا الظاهرية حيث قالوا : انه لا يجوز للزوج ان يفوض لزوجته تطليق نفسها ، او يوكل غيره فى تطليقها وفى هذا يقول ابن حزم : ومن جعل الى امراته ان تطلق نفسها لم يلزمه ذلك ولا تكون طالقا ، طلقت نفسها ام لم تطلق لان الله تعالى جعل الطلاق للرجال لا للنساء .

هذا وللتفويض ثلاث صيغ :

الصيغة الأولى :

ان يقول الزوج لزوجته : اختارى نفسك . وقد ذهب الفقهاء الى وقوع الطلاق بهذه الصيغة ، لان الشرع جعلها من صيغ الطلاق وفى ذلك يقول الله تعالى : (يا ايها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما) (٦٠) .

ولما نزلت هذه الآية خير الرسول صلى الله عليه وسلم عائشة فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم فعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت عائشة فكلهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

---

(٥٩) الحديث رواه ابن ماجه .
(٦٠) سورة الأحزاب : ٢٩ .

روى البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها قالت : (خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه فلم يعد ذلك شيئا) .

وفى هذا دلالة على انهن لو اخترن انفسهن كان ذلك طلاقا وان هذا اللفظ يستعمل فى الطلاق ، ولم يختلف فى ذلك احد من الفقهاء ، بينما اختلفوا فيما يقع اذا اختارت المراة نفسها ، فقال بعضهم : انه يقع طلقة واحدة رجعية ، وهو مروى عن عمر وابن مسعود وابن عباس ، وهو قول عمر بن عبد العزيز ، وابن ابى ليلى وسفيان ، والشافعى ، واحمد ، واسحاق .

وقال بعضهم : اذا اختارت نفسها يقع واحدة بائنة وهو مروى عن على بن ابى طالب ، وبه قال الأحناف ولكنهم اشترطوا فى وقوع الطلاق بهذه الصيغة . ذكر النفس فى كلامه أو فى كلامها فلو قال لها : اختارى فقالت : اخترت لا يقع بها شىء لعدم ذكر النفس فى الصيغة .

الصيغة الثانية :

من صيغ التفويض : ان يقول الرجل لزوجته : أمرك بيدك فاذا قال لها ذلك فطلقت نفسها فهى طلقة واحدة عند عمر وعبد الله ابن مسعود ، وهو مذهب سفيان ، والشافعى ، واحمد .

أما عند الأحناف : فيقع طلقة واحدة بائنة لأن تمليكه أمرها لها يقضى زوال سلطانه عنها ، واذا قبلت ذلك بالاختيار وجب ان يزول عنها ، ولا يحصل ذلك مع بقاء الرجعة .

الصيغة الثالثة :

أن يقول الرجل لزوجته : طلقى نفسك ان شئت : قال الأحناف : من قال لامرأته طلقى نفسك ، ولا نية له أو نوى طلقة واحدة ، فقالت : طلقت نفسى . فهى واحدة رجعية ، وان طلقت نفسها ثلاثا وقد اراد الزوج ذلك وقعن عليها ، وان قال لها طلقى نفسك فقالت : ابنت نفسى . طلقت . وان قالت : قد اخترت نفسى : لم تطلق .

وان قال لها : طلقى نفسك متى شئت ، فلها أن تطلق نفسها فى المجلس وبعده ، وان قال لرجل : طلقها ان شئت ، فله أن يطلقها فى المجلس خاصة ٠

أما التوكيل فى الطلاق :

بان جعل امر امراته بيد غيره فحكمه حكم ما لو جعله بيدها فى انه بيده فى المجلس وبعده ، ووافق الشافعى على هذا فى حق غيرها لأنه توكيل (٦١) ٠

هل للقاضى الحق فى الطلاق ؟

لقد جعل الاسلام الطلاق بيد الزوج ولم يجعله فى يد القاضى الا اذا كان بطلب من المراة ٠

ولقد سبق ان قلنا : ان الرجل بما انفق فى سبيل الزواج وبما القى عليه من تبعات وبما له من حرص على اولاده الذين ينتسبون اليه ، وبما يعقبه الطلاق من عواقب ليفكر ويقدر قبل أن يقدم على الطلاق فلا يندفع الا اذا رجحت لديه عوامل الانفصال ٠

ولو اننا جعلنا الطلاق بيد المراة لكان فى ذلك ظلم للرجل بضياع ما انفق فى سبيل هذا الزواج من نفقات مالية وانها لكثيرة ٠

فلم يكن للمراة حق طلب الطلاق الا من طريق القاضى على شرط ان يقبل الزوج وتعوضه الزوجة بعض خسارته او كلها وهو ما يسمى فى الاسلام (بالخلع) فقد روى البخارى والنسائى عن ابن عباس قال : (جاءت امراة ثابت بن قيس ابن شماسى الى رسول الله فقالت : يا رسول الله ثابت بن قيس والله ما اعتب عليه

---

(٦١) فقه السنة ، ص ٢٤١ -٢٤٤ ٠

فى خلق ولا دين (٦٢) ولكنى اكره الكفر فى الاسلام (٦٣) فقــال رسول الله ﷺ اتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة) فاذا لم يرد الزوج ان يطلق زوجته ، فهل تستطيع المراة ان تطلب من المحكمة الطلاق ، كحــق لهــا فيما اذا كان لديها سبب شرعى ؟

ان الاسلام سوغ للمراة ذلك فى الحالات الآتية :

١ — اذا كان الزوج عاجزا عن النفقة .

٢ — التطليق للعيب .

٣ — التطليق للضرر .

٤ — التطليق لغيبة الزوج او لحبســـه .

١ — اما التطليق لعدم النفقة : فان مالكا والشافعى واحمد قد ذهبوا الى جواز التفريق لعــدم النفقــة بحكم القاضى اذا طلبتـــه الزوجة وليس له مال ظاهر ، هذا ، والمقصود بالنفقة : النفقة الضرورية فى الغذاء والكساء والسكن فى ادنى صورها .

واستدل هؤلاء الفقهاء على ما ذهبوا اليه بأن الزوج مكلف بأن يمسك زوجته بالمعروف او يسرحها ويطلقها باحسان (فامســـــاك بمعروف او تسريح باحسان) وعدم النفقة ينافى الامساك بالمعروف ثم ان الله تعالى يقول : (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) والرسول يقول : (لا ضرر ولا ضرار) واى اضرار بالمراة اكثر من ترك الانفاق عليها ، واذا كان القاضى يفرق بينهما من اجل العيب الذى بالزوج فان عدم الانفاق يعد اشد ايذاء للزوجة .

---

(٦٢) ولكن كانت تكرهه لدمامته .

(٦٣) تريد كفران العشير والتقصير فيما يجب له بسبب كرهها الشديد له .

اما الاحنـــاف :

فقد ذهبوا الى عدم جواز التفريق لعدم الانفـاق ســواء اكان السبب مجرد الامتناع أو الاعسار أو العجز عنها .

واستدل الاحناف لما ذهبوا اليه بقول الله تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) (٦٤) .

كما قالوا: ان الصحابة كان منهم الموسر والمعسر ولم يعـــرف عن احد منهم ان النبى فرق بين رجل وامرأته بسبب عدم النفقـــة لفقـره واعساره .

ولما سال أزواج النبى ما ليس عند النبى اعتزلهن شـهرا وكان ذلك عقوبة لهن ، واذا كانت المطالبـــة بما لا يملك الزوج تستحق العقاب فأولى ان يكون طلب التفريق عنـد الاعسـار ظلمـا لا يلتفت اليـــــه .

واذا كان الامتناع عن الانفاق مع القدرة عليـــه ظلما ، فيمكن رفع الظلم ببيع ما له للانفاق منـــه ، أو حبس الزوج حتى ينفق عليها ، ولا يتعين التفريق بينهما ، اما اذا كان الزوج معسرا فهو لم يقع منه ظلم على الزوجة لأن الله لا يكلف نفسا الا ما آتاها (٦٥) .

وأما التطليق للعيب :

فالعيب يسوغ للمراة طلب التطليق اذا وجدت بزوجها عيبــا مستحكما لا يمكن البرء منه ، أو يمكن ولكنه بعد زمن طويل ولا تقبل المقام معه كالجنون والجزام والبرص .... الخ .

---

(٦٤) سورة الطلاق : ٧ .

(٦٥) فقه السنة ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

وأما التطليق للضـــرر :

فذهب الامام مالك الى ان من حق المراة ان تطلبه من القـاضى اذا ادعت اضرار الزوج بهـــا اضرارا لا يســمح بدوام العشرة بين امثالهما كالضرب والسب او الايذاء للزوجة ايذاءا لا يطاق ، او اكراهها على منكر من القول او الفعل ٠

فاذا ثبتت دعواها لدى القاضى ببينة الزوجـة ، او اعتراف الزوج ، وكان الايذاء مما لا يطاق معه دوام العشرة بين امثالهمـــا وعجز القاضى عن الاصلاح بينهما طلقها طلقة بائنة ، واذا عجزت عن البينة او لم يقر الزوج رفض القاضى دعواها ٠

فاذا تكررت منهـــا الشـــكوى ، وطلبت التفريق ، ولم يثبت للمحكمة صدق دعواها عين القاضى حكمين بشرط أن يكونا رجلين عدلين راشدين لهما خبرة بحالهما وقدرة على الاصلاح بينهما ويحسن أن يكونا من اهلهما ان امكن ، والا فمن غيرهم ، ويجب عليهمـا تعرف اسباب الشقاق بين الزوجين والاصلاح بينهما بقدر الامكان ٠ فان عجزا عن الاصلاح وكانت الاساءة من الزوجين أو من الزوج أو لم تتبين الحقائق قررا التفريق بينهما بطلقة بائنة (٦٦) ، وان كانت الاساءة من الزوجة فلا يفرق بينهما بالطلاق بل بالخلع ٠

وان لم يتفق الحكمان على راى امرهما القاضى باعادة التحقيق والبحث فان لم يتفقا على راى استبدلهما بغيرهما ، وعلى الحكمين أن يرفعا الى القاضى ما يستقر عليه رايهما ، ويجب عليه أن ينفـذ حكمهمـــا (٦٧) ٠

واصل ذلك كله قول الله تعـالى :

(وان خفتم شقاق بينهمـــا فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما) (٦٨) ٠

---

(٦٦) يذهب ابو حنيفة وأحمد والشافعى فى أحد قوليه الى أنه ليس للحكمين أن يطلقا الا اذا جعل الزوج ذلك اليهما ٠

(٦٧) فقه السنة ، ص ٢٤٩ ٠

(٦٨) سورة النساء : ٣٥ ٠

واما التطليق لغيبة الزوج او لحبسه :

فهو مذهب مالك واحمد دفعا للضرر عن المراة ، فللمراة ان تطلب التفريق اذا غاب عنهـا زوجهـا ولو كان له مال تنفق منـه بشرط ان يكون غيابه لغير عذر مقبول ، وان تتضرر بغيابه ، وان تكون الغيبة فى بلد غير الذى تقيم فيـه وان تمر سـنة عند مالك تتضرر فيهـا الزوجة • ومنهم من قال : ان المدة التى تطلب المراة التفريق بعدهـا ثلاث سنين ويرى احمد ان ادنى مدة يجوز ان تطلب التفريق بعدها ستة اشهر لانها اقصى مدة تستطيع المراة فيها الصبر عن غياب زوجها •

كما يرى مالك واحمد التطليق لحبس الزوج حبسا يوقع الضرر بالزوجة فى حدود المدة السابقة فى غيبة الزوج •

أنـــواع الطـــلاق

١ ـ الطلاق الرجعى :

وهو الطلاق الذى يجيز للزوج أن يعيد زوجته الى عصمته بدون عقد ومهر جديدين ، وهو لا يزيل الزوجية فللزوج ان يراجع زوجته متى شاء مادامت العدة قائمة ، والعدة مدة من الزمن جعلت لانقضاء ما بقى من آثار الزواج ، فاذا حصلت الفرقة بين الزوجين لا تنفصم عرى الزوجية من كل الوجوه بمجرد وقوع الفرقة ، بل تنتظر المراة ولا تتزوج بغيره حتى تنتهى المدة التى قدرها الاسلام بزمن محدود سنوضحه بعد قليل •

وكان للعرب فى الجاهلية طلاق ومراجعة فى العدة ولكنه لـم يكن مقيدا بحد ولا عدد الى ان جاء الاسلام فجعل الطلاق مرتين • (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) (٦٩) •

فالمراد بالطلاق فى هذه الآية هو الطلاق الرجعى الذى يوقعـه الزوج على زوجته التى دخل بها ولم يكن مسبوقا بطلقة اصلا ، او كان

---

(٦٩) سورة البقرة : ٢٢٩ •

مسبوقا بطلقة واحدة ، وهذا الطلاق لا يرفع قيد الزوجية فيحل للزوج معاشرة زوجته مادامت فى العدة ، فاذا عاشرها أبطل عمله هـــذا حكم الطـــــلاق .

واذا مات أحد الزوجين قبل انقضاء العدة ورثه الآخر ونفقتهـا واجبة عليه ، ولا يحل مؤخر المهر الا بانقضاء العدة .

هذا وللزوج الحق فى ارجاع زوجته مادامت مطلقة رجعيـــــا فى العـدة : اما بالفعل كالمعاشرة الزوجية ، او بالقول كأن يقول لها : ارجعتك الى ذمتى لقول الله تعالى (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان ارادوا اصلاحا) (٧٠) .

فاذا انقضت العدة ولم يراجعها فى اثنائها ثبت الطلاق طلقة ، بائنة ، ولا تصح مراجعتها ، بل لابد من عقد زواج جديد يســتلزم رضاها كما يحتاج هذا العقد الى مهر جديد .

وفى التعبير بقوله تعالى : (الطلاق مرتان) اشــارة الى انه ينبغى ان يكون الطلاق مرة بعد مرة لا طلقتين دفعة واحدة والا اعتبر واحدة ، فكل طلاق فى المرحلة الأولى والثانية هو بمثابة تجـربة لفراق مؤقت مع اعطاء الفرصــة لارجاع العلاقات الزوجيــة وذلك بتركه الزوجين يعيشان معا تحت سقف واحد فان ندم الزوج ، أو عدل عن طلاقه أرجعها اليه (٧١) .

٢ ـ الطلاق البائن بينونة صغرى :

وهذا الطلاق يرفع الزواج بمجرد حصوله ، وحقوق الزوج على زوجته تنقطع فى الحال .

واذا اراد الزوج ان يستأنف معها حياة زوجية فانما يكون بعقد ومهر جديدين هذا اذا لم يكمل الطلقات الثلاث .

---

(٧٠) سورة البقرة : ٢٢٨ .

(٧١) روح الدين الاسلامى ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

وهذا النوع من الطلاق يحصل فى الأحوال الآتية :

١ - الطلاق قبل الدخول ويجب فيه نصف المهر ولا عدة فيه ٠

٢ - الطلاق على مال بعد الدخول وهو أن تعطى الزوجة زوجها المهر الذى دفعه أو بعضه أو مالا جديدا ليطلقها أو تبرئه من نفقة العدة أو مؤخر الصداق وفى هذه الحالات تجب عليها العدة ٠

٣ - الطلاق للعيب أو للنفقة أو للسجن أو للضرر بسبب الغيبة وهذا النوع لا يكون الا بقضاء القاضى وتجب فيه العدة على المرأة ويجب المهران حكم به القاضى ٠

٤ - اذا انقضت العدة فى الطلاق الرجعى يثبت بذلك مؤخر الصداق هذا والطلاق البائن بينونة صغرى يحل به مؤخر الصداق اذا كان مؤجلا ، ويمنع التوارث ٠

٣ - الطلاق البائن بينونة كبرى :

وهو الذى يستكمل فيه المطلق الطلقات الثلاث ، وبه تنقطع جميع الصلات بين الزوجين ، ولا يحل للزوج أن يعقد على زوجته عقدا آخر الا اذا تزوجت زوجا آخر بعد انتهاء عدتها من الاول زواجا مقصودا لذاته لا بقصد المحلل ويدخل بها الزوج الثانى ثم يطلقها ان شاء وتنتهى عدتها منه وفى هذه الحالة تحل للزوج الأول ، أما اذا تزوجها الثانى بقصد المحلل فان زواجها الثانى يكون لاغيا ٠

ودليلنا فى هذا قول الله تعالى (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله)(٧٢) ٠

---

(٧٢) المرجع السابق ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ ٠

العـــدة

جاء فى القرآن قوله تعالى : (يا ايها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة)(٧٣) ٠

والمقصود بالعدة هى فترة التريث التى تتبع كل طـلاق ، وهى تتفاوت فى طولها وقصرها تبعا لحالة الزوجة على النحو التالى :

١ ـ عدة الحامل :

هى وضع الولد ٠ ودليلها قوله تعالى : (واولات الأحمال اجلهن ان يضعن حملهن) : (٧٤) ٠

٢ ـ عدة المتوفى عنها زوجها :

(غير الحامل) اربعة اشهر وعشرة ايام بدليـل قوله تعـــالى (والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشرا)(٧٥) ٠

٣ ـ عدة المطلقة (غير الحامل) :

(أ) ذوات الحيض وعدتهن ثلاثة قـروء اى ثلاث دورات كاملة من الحيض والطهر بدليل قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثـة قـروء ولا يحـــل لهن ان يكتمن ما خلـق الله فى أرحامهن) (٧٦) ٠

(ب) عدة اليائسات ـ وهن اللواتى تجاوزن سن الحيض وعدتهـــن ثلاثة اشهر بدليل قوله تعالى (واللائى يئسـن من المحيض من

---

(٧٣) سورة الطلاق : ١ ٠

(٧٤) سورة الطلاق : ٤ ٠

(٧٥) سورة البقرة : ٢٣٤ ٠

(٧٦) سورة البقرة : ٢٢٨ ٠

نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر واللائى لم يحضن)(٧٧)٠
ويلحق باليائسات النساء اللاتى يتجاوزن سن البلوغ ولم يحضن
هذا والمطلقة قبل الدخول لا عدة عليها (٧٨) لقوله تعالى ٠٠

(يا ايها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبـــل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها (٧٩) ٠

هذا وبالله التوفيق ٠٠

---

(٧٧) سورة الطلاق : ٤

(٧٨) المرجع السابق ، ص ٣٨٦ ٠

(٧٩) سورة الاحزاب : ٤٩ ٠

النظام الادارى فى الاسلام

تمهيـــد :

سنتناول فيما بقى من كتابنا هذا موضوعين هامين هما : النظرية السياسية والنظرية المالية فى الاسلام ٠ وقبل ان نبدأ فى تفصيل هذين الموضوعين يجدر بنا الوقوف مع المتسائلين والمستغربين لفكرة تنظيم الاسلام للجوانب السياسية والمالية فى حياة الناس والمجتمعات ٠

فالمعروف عنـد معظم الـذين تأثروا فى دراسـتهم بالمنـــاهج والاتجاهات الأجنبية ان الدين علاقة بين الانسان وربه ، او بمعنى آخر انه اشكال العبادات والطقوس التى يمارسها الانسان اعلانا عن اعترافه بوجود الله وخضوعه له ، ويضيفون الى ذلك اعتقادهم بأن الـدين يقتصر على هذه العلاقة فلا يتعداها الى تنظيم شئون الحيـــاة وامور الكسب والمال ووضع اسس المجتمع وقواعده التى تعتمد عليها مختلف انواع النشاط الانسانى والفكرى والاجتمـاعى ، مع صـــور التشـكيل الاجتماعى بكل تنظيماته السياسية والاقتصادية والماليـة والعســكرية والقضائية وغيرها ، ومعنى ذلك ان هؤلاء يفصـلون بين امور الدين والدنيا ويجعلون ما يتعلق بامور الدنيا خاصا بالانسان لا شان للدين بـــه ٠

والحقيقة ان الاسلام يختلف عن تصورهم ٠ فهو دين جاء لينظم امور الناس جميعا ٠ لذلك فانه يشمل مفهوم الدين كما يتصورونه من حيث أنه تنظيم للعلاقة بين الله والانسان عن طريق اداء عبادات معينة ، ثم هو بعد ذلك تنظيم للعلاقة التى تقوم بين الأفراد والمجتمعات بعضها مع بعض ، لذلك نستطيع أن نقول : بأن الاسلام دين ودولة عقيدة ونظام أخلاق وتشريع سياسة وحكم ، كما يمكن ان نقول : ان مفهوم العبادة فى الاسلام يتسع بحيث يشمل كل أعماله ما دام يقصد منها وجه الله تعالى ، فلا يقتصر على طقوس وأعمال معينة يؤديها الانسان فى اوقات واوضاع محدودة ٠

وبناء على هذا فاننا سنعرض لتنظيمى السياسة والمـــال فى النظام الاسلامى مبينين أسس كل من التنظيمين وغاياته واهـدافه مع مقارنتهما بالأنظمة الأخرى ، وخاصة الحديثة منها ، لنعلم مدى تفـوق نظـام الاسلام على الانظمة الاخرى ، ولا عجب فى ذلك فهو منزل من الله الحكيم الخبير ، وما تخطه يد الحكمة الالهية لا يمكن ان ترقى اليه افهام الناس وعقولهم ٠

وسنبدا بالنظرية السياسية ، او التنظيم السياسى فى الاسلام ، وذلك لأنه اساس سائر التنظيمات الأخرى : المالية والاقتصادية والعسكرية وغيرها ، لأن جميع اشكال التنظيم انما تعتمد أولا على الحكم ، فاذا وضح شكل الحكومة واهدافها وغاياتها سهل علينا التعرف على التنظيم المالى وغيره ٠

السياسة والحكم فى الاسلام

هل يجب اقامة الدولة على مبادىء الاسلام ؟

سبق ان ذكرنا ان الاســلام يعنى بجانب السياسة والحكم وهـذه حقيقة لم تكن موضع جدل بين المسلمين حتى نهاية الخلافة العثمانية يؤكد ذلك طبيعة الاسلام وتاريخ المسلمين منذ هجرة الرسول عليـــه الصلاة والسلام الى المدينة ، ولم تكن هذه الحقيقة موضع شك لدى العلماء ، اذ اجمعت المصادر الرئيسية فى الفكر الاسلامى عليهـــا ونستطيع أن نوضح هذه الحقيقة من خلال الفقرات التالية :

١ ـ ما ورد فى القرآن الكريم حول اقرار فكرة الدولة ٠

٢ ـ ما اقرته السنة النبوية وسيرة الرسول من تنظيم الدولة وما اقره الواقع التاريخى ٠

٣ ـ ما ذكرته المصادر الرئيسية الاسلامية المعتمـدة حـــول هـــذا الموضوع ٠

١ - القرآن والدولة :

ورد فى القرآن الكريم آيات متعددة فى تأكيد فكرة قيام الدولة والسلطة ، فمن هذه الآيات ما يشير الى طاعة أولى الأمر كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنو أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ...)(٨٠) وقوله (ولو ردوه الى الرسول والى اولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)(٨١) .

ومن الآيات ما يأمر القرآن به النبى محمدا صلى الله عليه وسلم بممارسة شئون متنوعة قضائية وحربية وادارية مما يدخل فى نطاق مهام الدولة ، وذلك كقوله تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حوالك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين)(٨٢) وقوله (وأن أحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك)(٨٣) .

٢ - السيرة والسنة النبوية واقرار فكرة الدولة :

لقد مارس النبى صلى الله علي هوسلم مهام الدولة والسلطان فقضى فى مختلف الشئون المالية والعائلية والجرائم واقام الحدود وعين الولاة وقواد السرايا والدعاة الى الاسلام وجباة الصدقات وقاتل الأعداء وقبض الفيء وخمس الغنائم والزكاة ، ووزعها الى غير ذلك من شئون الحكم ، فتوطد السلطان والدولة برئاسته فعلا تنفيذا لتقنينات القرآن وتوجيهاته .

ولقد ظهرت بعض الأصوات فى الفترة الاخيرة تنكر ان تكون تصرفات الرسول من اعمال الحكام ، أو ان لها علاقة بسياسة الدولة

---

(٨٠) سورة النساء : ٥٩ .

(٨١) سورة النساء : ٨٣ .

(٨٢) سور آل عمران : ١٥٩ .

(٨٣) سورة المائدة : ٤٩ .

وادعت ان تصرفاته كلها عليه الصلاة والسلام كانت تختص بشئون الدين والدعوة .

ولقد اراد هؤلاء الكتاب ان يصلوا الى فصل الدين عن الدولة وانكار ان يكون نظام الخلافة الذى ساد بين المسلمين عصورا طويلة من النظام الاسلامى .

ونذكر هنا من هؤلاء على سبيل المثال ما قاله على عبد الرازق فى كتابه (الاسلام واصول الحكم) لقد قال : ان محمدا ﷺ ما كان الا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة ، وانه لم يكن للنبى ﷺ ملك ولا حكومة ، وانه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها ، ما كان الا رسولا كاخوانه الخالين من الرسل وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ولا داعيا الى ملك .

وحين يصطدم المؤلف بالحقيقة الواقعة وهى ان الرسول باشر سلطات سياسية شاملة على المسلمين بجانب كونه رسولا يبلغ دعوة الله ، وان من السلطات السياسية التى باشرها الرسول الجهاد والحروب وتنظيم ما بعد الحرب من عقد المعاهدات واقامة الحدود ولا يجد المؤلف وسيلة لانكار ذلك نراه يلجأ الى القول بأن الرسول باشر كل ذلك كوسيلة من وسائل تثبيت الدين وتأييد الدعوة . واستمع اليه يقول (لا يريبنك هذا الذى تراه احيانا فى سيرة النبى ﷺ فيبدو لك كانه عمل حكومى ومظهر للملك والدولة ، فانك اذا تأملت لم تجده كذلك ، بل هو لم يكن الا وسيلة من الوسائل التى كان عليه ﷺ ان يلجأ اليها تثبيتا للدين وتأييدا للدعوة) .

وللرد على هذا الكلام سنحاول ان نعرض بشكل موجز لمعنى الدولة فى القانون الدستورى والدولى العام لنرى الى اى حد كانت حكومة الرسول تمثل كيان الدولة . والى اى حد كان الرسول ﷺ يباشر اعمالا سياسية ، وقد قدم رجال القانون تعريفات كثيرة للدولة نستطيع ان نستخلص منها ان الدولة هى : جماعة من الناس تقيم بصورة دائمة فى اقليم معين ولها شخصيتها المعنوية ونظامها الذى

تخضع له ، ولها حكامها واستقلالها المالى والسياسى . وهكذا فان الاركان التى يتحقق بها وجود الدولة وقيامها هى :

١ - شعب يقيم بصورة دائمة فى رقعة معينة من الأرض .

٢ - شخصية معنوية يتمتع بها هذا الشعب ويمثلها صاحب السلطان .

٣ - نظام تخضع له ويبين طبيعة الحكم .

٤ - استقلال سياسى يجعل هذا الشعب قائما بذاته لا تابعا لدولة أخرى .

ولقد تحققت هذه الاركان كلها فى حكومة الرسول فى المدينة . فقد كان هناك شعب يقيم دائما فى المدينة وما حولها ، ثم الجزيرة العربية كلها ، وكانت لهذا الشعب شخصية معنوية يمثلها سلطان الرسول وحكمه ، كما كان له نظام يخضع له فتقام الحدود ويحكم بين الناس ، كما كان هذا الشعب مستقلا استقلالا كاملا ، لا يتبع اى دولة من الدول الكبرى المعروفة آنذاك كدولة فارس او الروم او الحبشة ، وكل مطلع منصف على القرآن وواقع التاريخ الاسلامى وحياة الرسول ﷺ لا بد ان يصل الى الحكم بأن الرسول فى المدينة كان يؤسس دولة بالاضافة الى أنه كان داعية الى الله ورسولا ونبيا .

بل ان طبيعة دعوة الرسول وحقيقة الاسلام لا يتصوران الا باندماج مفهوم الدولة والدين معا . وقد اعترف بهذه الحقيقة كثير من الغربيين والشرقيين . وها نحن نسوق اليك بعض اقوالهم حول هذا الموضوع .

يقول الدكتور (فيتزجيرالد) : ليس الاسلام دينا فحسب ، ولكنه نظام سياسى ايضا على الرغم من انه قد ظهر فى العهد الأخير بعض الأفراد من المسلمين ممن يصفون انفسهم بأنهم عصريون يحاولون ان يفصلوا بين الناحيتين فان صرح التفكير الاسلامى قد بنى على

اساس ان الجانبين متلازمان لا يمكن ان يفصل احدهما عن الآخر .

ويقول الدكتور (شاخت) : ان الاسلام يعنى اكثر من دين . أنه يمثل ايضا نظريات قانونية وسياسية ، وجملة القول انه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معا .

ويقول الأستاذ (نلينو) المستشرق الايطالى المعروف : (لقد أسس محمد فى وقت واحد دينا ودولة ، وكانت حدودهما متطابقة طـــول حيـــاته) .

ويقول الأستاذ (سترتمان) : الاسلام ظاهرة دينية وسياسية اذ أن مؤسسه كان نبيا وكان حاكما مثاليا خبيرا بأساليب الحكم .

ونحن لا ندرى كيف يكون الحكم وكيف تكون الدولة اذا لم تكن اعمال الرسول فى المدينة من قبيل اعمال الحكم والدولة ؟ ، أولا يعد حكما اقرار النظام واقامة الحدود والحكم بين النـــاس وتوقيـــع المعاهدات ؟ نقول : اذا لم يكن هذا كله من قبيل ممارسة الحـــكم فما هو الحكم اذن ؟ .

ان علينا ان نستمع للرسول عليه الصلاة والسلام وهو يعلن قيام الدولة الاسلامية فى المدينة فى كتاب كتبه بين المهاجرين والانصار ، ووادع فيه اليهود وعاهدهم واقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم .

لقد افتتح الرسول الكتاب على النحو التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم - هذا كتــاب من محمــد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وعاهـــد معهم ، انهم امة واحدة من دون الناس(٨٤) ، لعل هذا الكتـــاب يحتوى ايضا على ميثاق عدم اعتداء بين الدولة الاسلامية واليهود .

ومما وردت به السنة النبوية فى وجوب اقامة الدولة على المسلمين

---

(٨٤) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١١٩ ط الشعب .

ما رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما انه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) (٨٥) ٠

ومن احاديث الرسول فى هذا المعنى (الا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على اهل بيته وهو مسئول عنهم والمراة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه الا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) (٨٦) ٠

هذا بالنسبة للرسول وبالنسبة لسيرته ، على اننا اذا القينا نظرة على المسلمين بعد وفاة الرسول فاننا نجد انهم جعلوا من اختيار الحاكم وانتخابه مهمة تفوق مهمة دفن الرسول وانصراف سائر المسلمين للاجتماع فى سقيفة بنى ساعدة ، وبعد مناقشات طويلة سادتها روح الديمقراطية والشورى الكاملة اقر المسلمون انتخاب ابى بكر رضى الله عنه خليفة لرسول الله لسابق قدمه فى الاسلام وصلته بالرسول ٠ ولم يحدث بعد ذلك ان بقى المسلمون دون خليفة أو مسئول عن شئونهم يدافع عن الاسلام والمسلمين ، ويحمى الدولة والمسلمين من عدوان الأعداء ، ويقيم العدل بين الناس ، وقد خلف أبا بكر عمر رضى الله عنه ثم عثمان ثم على ٠٠٠ وهكذا حتى انتهت الخلافة بانتهاء الحرب العالمية الأولى وما تزال الشعوب الاسلامية موجودة ٠

٣ – واليك اقوال بعض الباحثين المعتمدين فى هذه الدراسات :

ولتاكيد ما نقوله من وجوب قيام الدولة المسلمة على اساس اسلامى نورد اقوالا لبعض الصحابة والسلف الصالح ، كما نسوق ما ذكر من المصادر السياسية الاسلامية المعتمدة حول هذا الموضوع ٠

---

(٨٥) صحيح مسلم كتاب الامارة ص ٥١٧ ، ٥١٨ ط الشعب ٠

(٨٦) شرح النووى على مسلم : ج ١٢ ص ٢١٣ ط المطبعة المصرية ٠

يقول ابو بكر رضى الله عنه : (ان محمدا مضى بسبيله ولابـد لهذا الدين ممن يقوم به) ويقول عمر بن الخطاب : (لا اسلام الا فى جماعة ولا جماعة الا بامارة ولا امارة الا بطاعة) ويقول الماوردى فى الأحكام السلطانية : ـ (عقد الامامة لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالاجماع) ويقول الغزالى فى (الاقتصاد فى الاعتقاد) : (ان الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينظم الا بسلطان مطاع ، وهـــذا تشهد له مشـاهدة اوقات الفتن بموت السـلاطين والأئمـة وان ذلك لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع دام الهرج وعم السيف وشمل القحط الى غير ذلك مما يطول ذكره) .

وهكذا نجد ان الأدلة والأقوال كلها تتضافر على ان الاســلام دين ودولة . وان من النظم التى جاء بها الاسلام النظام السياسى وذلك حتى يضمن تطبيق مبادئه وما يدعو النـــاس اليه من خير ومعروف ومصلحة لهم فى الدنيا والآخرة .

ولعل من المناسب ان نختم هذه الفترة بما ورد فى القـــرآن من نص على وجوب مهمة الدولة والسلطان بعد النبى ﷺ لأن الآيات الواردة فى هـــذا الخصوص كانت تخاطب المســلمين عموما دون تخصيص لعهد معين او فترة خاصة وهى تأمر المسلمين بالقيام بجميع الواجبات التى تترتب على الدولة والحاكم ، ومن المفروض أن يمارس المسلمون هذه الواجبات بواسطة ممثليهم او وكلائهم وهو أولوا الأمـر وأهـل الحـل والعقـد .

من هذه الآيات قوله تعالى : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) (٨٧) ـ فهل يستطيع المسلمون ان يقاتلوا من يقاتلهم الا اذا كان لهم نظام يقوم على رأسه عدد من المسئولين والقادة ، وقوله ايضا (ولكم فى القصـــاص حيـاة يا أولى الألباب) (٨٨) فكيف يمكن اقامة الحدود والقصـــاص اذا لم تكن هناك حكومة تتولى هذا الشأن ، كما يقول الله تعالى (وأعـــدوا

---

(٨٧) سورة البقرة : ١٩٠ .
(٨٨) سورة البقرة : ١٧٩ .
(٨٩) سورة الأنفال : ٦٠ .

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم (٨٩) فما هى الوسيلة التى تعد بها القوة اذا لم يكن هناك نظام ومسئولون ؟.

استقلال النظام السياسى الاسلامى :

ان النظام السياسى فى الاسلام كما سنلاحظ نظام مستقل متميز لا تنطبق عليه المصطلحات التى تتردد فى قاموس السياسة والحضارة .

ولقد حاول البعض - سواء فى ذلك اصدقاء الاسلام وبعض اتباعه أو خصومه - ان يطلقوا على النظام الاسلامى أسماء حديثة . اما اصدقاء الاسلام وبعض أتباعه فقد ظنوا ان فى ذلك تعزيزا لأمر الاسلام واعلاء لشأنه ، واما خصومه فلأنهم ارادوا تشويه الاسلام فى اعين الناس ، واظهاره على غير ما هو عليه من نصاعة وجلاء .

ومن هذه المصطلحات التى اطلقوها على الاسلام اسماء الديمقراطية والاشتراكية والراسمالية والامبراطورية والدكتاتورية ومثله ان بعض خصوم الاسلام يسمون الحكومة الاسلامية بالحكومة (الثيوقراطية) او حكومة رجال الدين .

ويبدو ان من الواجب بهذه المناسبة توجيه النظر الى بعض الملاحظات :

١ - ليس مما يرفع شأن الاسلام أن تطلق عليه مثل هذه الأسماء والمصطلحات . لأن الاسلام كما ذكرنا نظام متميز مستقل ، وله من مبادئه ونظمه فى السياسة والحكم ما يستطيع ان يفاخر به سائر الأنظمة التى عرفها الانسان .

٢ - اذا حدث ان اتفق النظام السياسى الاسلامى مع هذا النظام أو ذاك فليس معناه ان يكون الاسلام هو هذا النظام ، فاذا اتفق الحكم الاسلامى فى بعض مبادئه مع بعض المبادىء الديمقراطية مثلا لا يصح أن نقول ان **الاسلام نظام ديمقراطى** لأن فى الديمقراطية مالا يتفق مع مبادىء الاسلام ولأن للاسلام وجهته الخاصة ونظريته المتميزة الى الكون والحياة والانسان .

٣ - ان هذه المصطلحات كانت نتيجة تجارب حصلت فى مجتمعات غريبة على البيئة العربية والاسلامية ؛ ولقد دخلت على هـذه المصطلحـات تغيرات كثيرة وتعرضت لتطورات متعددة . لـذا فانها اخذت معنى معينـا عند الغربى الذى يستعملهـا . أمـا غير الغربى فانه يستعمل هذه المصطلحات على انها احـكام مطلقـة ، ولا يـدور فى خلده التطورات المختلفـة التى مرت عليهـا ، مثال ذلك مصطلح الديمقراطية أول ما اسـتعملت هذه الكلمة كمصطلح سياسى ايام اليونان ، ومعناه حكم الشعب. وكان الشعب الذى يشارك فى الحكم آنذاك هو الشعب اليونانى الأصيل وهو لا يشكل فى كل بلد يونانى الا عددا قليلا جـدا اما باقى السكان فلم يكن يسمح لهم بممارسة اى امر من امـور السلطة ، لأنهم يعتبرون ارقاء او مواطنين من الدرجة الثانية ، واذا فان الديمقراطية اليونانية لم تكن تعنى أن يمارس الشعب كله السيادة والسلطة وانما نفر قليل منه .

واذا انتقلنا الى مفهوم الثورة الفرنسية للديمقراطية ، وجدنا انها تعنى حقوقا وواجبات متساوية لافراد الشعب جميعا ، دون تمييز بينهم ، وممارسة من قبل الشعب للسـيادة والسـلطة بواسـطة ممثليه الذين يملكون حق التشريع والتقنين والرقابة على الحكومة .

فما هو المفهوم الذى يطلق على الاسلام من هذه الديمقراطيـة ؟ لاشك اننا نلمح تقاربا بين الاسلام ومفهوم الديمقراطية الحديثـة من حيث المساواة فى الحقوق والواجبات والرقابة على الحكومـة الا اننا لا نستطيع ان نقول بأن الشعب أو ممثليه احرار فى التشريع والتقنين ولهم السيادة المطلقة ، لأن هناك مبادىء سائدة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار سـواء فى القرآن أو السـنة ، وهكذا فان لفظ الديمقراطية لا ينطبق على الاسلام انطباقا كاملا .

وكذلك اطلق بعض الكتاب على الاسلام اسم الاشتراكية وما قيل بالنسبة للديمقراطية يمكن ان نقوله بالنسبة للاشتراكية ، فاذا كان القصد أن الاسـلام اشـتراكى فى اتجـاهاته ودعوته الى العدالة الاجتماعية وايجاد نظام يسمح بفرص متكافئة للمواطنين ويمنـع الاحتكار والاستغلال فان هذا صحيح ، اما اذا كان القصد ان النظام

الاسلامى نظام اشتراكى كامل فان هذا القول مرفوض لان الاشتراكية مصطلح حين يطلق يقصد به نظرة خاصة للكون والحياة ولانظمة معينة ووسائل محددة فى الانتاج وتوزيع الثروة وكيفية الحكم . والاسـلام يختلف عن الاشتراكية فى هذا المعنى لان للاســـلام نظرته الى الكون والحياة التى تخالف نظرة الاشتراكية ، فالاشتراكية مادية فى فلسفتها وتصوراتها . والاسلام على النقيض من ذلك . وللاسلام انظمة ووسائل فى الانتاج وتوزيع الثروة التى تختلف ايضا عن انظمة الاشتراكية .

اما نفظ الحكم الثيوقراطى الذى حاول خصوم الاســـلام ان يلصقوه بالنظام السياسى الاسلامى فلا ينطبق على طريقـــة الحكم فى الاسلام ، وان كان يتفق معه فى بعض مبادئه فاذا كان القصـــــد بالثيوقراطية ان يتفرغ النظـــام السياسى عن القـــانون الآلهى فان الاسلام يقول بذلك مع المرونة التى تجعله صالحا للتطبيق فى كـل زمان ومكان ، واما اذا كان القصد به النظـــام الذى كان سائدا فى أوربا فى القرون الوسطى فانه خطا ، لان ذلك الحكم كان يعتمـــد على استبداد طبقة رجال الدين وعلى رأسها البابا ، وهى طبقـــة كان وما يزال لها امتيازاتها وتكتلها عند النصارى ، ولا وجود لمثـل هذه الطبقة عند المسلمين ، لان المسلم لا يحتاج الى واسطة بينه وبين ربه ، ولان من المفروض على كل مسلم ان يعلم قدرا من شئون دينـه واذا تعمق بالدين سمى عالما ولم يتمتع نتيجة ذلك بأى امتياز ، ولـم يشكل مع العلماء الآخرين طبقة تطالب بامتيازات واوضاع خاصة .

وقد وكان الحكم الثيوقراطى فى اوربا اسوا حكم عرفته البشرية لفظاعته وقسوته وتسلطه ، ولما كان يدعيـــه رجال الدين من انهم يستمدون سلطانهم من الله ، ولذلك فلا حق لاى انسان ان يراقبهم أو يحـــد من اعمـــالهم او يقف امام امر من اوامرهم ، والحـــكم الثيوقراطى هذا من أسباب الدعوة الى فصـــل الدين عن الدولة فى اوربا ، ولم يعرف المسلمون حكما من هذا النوع لسبب بسيط هو انعدام هذه الطبقة كما ذكرنا ، واذا ما نادينا بحكم اسلامى فانما نقصـــد ايجاد حكم نزيه صـــالح يســـتمد تشريعاته وقوانينه من المبـــادىء الاسلامية ويمكن أن يمارس هذا الحكم فرد من المسلمين ، مادام يملك المعرفة والكفاية والرأى الصحيح والالتزام بمبادىء الاسلام .

الافكار التى يقوم عليها النظام الاسلامى :

لابد لنا بعد ان نفينا عن نظام الاسلام التبعية لغيره ، واثبتنا استقلاله وتميزه . من ان نعرض للافكار التى يقوم عليها هذا النظام وما يترتب على هذه الافكار من طبيعة خاصة فيه تجعله صالحا لكل زمان ومكان .

ان هناك فكرتين اساسيتين يعتمد عليهما النظام وهما مستمدتان من فكرة الاسلام الكلية ونظرته الى الكون والحياة والانسان .

فالاسلام يعتبر هذا الكون بما فيه وحدة متعاونة يحقق بكائناته هدفا معينا هو اسلام كل شىء لله والخضوع له وعبادته وهاتان الفكرتان هما :

١ ـ وحدة الانسانية فى الجنس :

فالناس لأب واحد ، وام واحدة . والاسلام يحترم هذا الأصل الواحد حتى انه رتب للذميين والمعاهدين غير المسلمين حقوقا مستمدة من هذا الأساس الانسانى . فالاسلام اذن لكل الناس .

٢ ـ الاسلام هو النظام العالمى الخالد :

فهو كما ذكرنا للناس كافة ودين الانسانية كلها وهو النظام العام الخالد يقول الله تعالى : (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) (٩٠) (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) (٩١) (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) ومن هنا كان ملاحظا فى كل نظام من الأنظمة الاسلامية سواء اكانت سياسية او اقتصادية او اخلاقية ان يصلح للأجناس البشرية كلها باجيالها المختلفة وليس لجنس او جيل واحد . لذلك فقد اتبع النظام السياسى الاسلامى الأسس الانسانية الشاملة في تشريعاته . وتحقيقا

---

(٩٠) سورة سبا : ٢٨ .
(٩١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

لذلك فانه اكتفى بوضع القواعد التى تؤمن اهداف النظام وغاياته وترك الجزئيات والتطبيق للظروف والبيئة والأزمنة ، مثال ذلك ان اهداف النظام الاسلامى لا يمكن أن تحقق الا اذا اعتمد هذا النظام على مبادىء اساسية كالشورى والعدالة والمساواة والطاعة ، هذه المبادىء هى التى يلح عليها القرآن أو حديث رسول الله ﷺ الا ان الاسلام يترك للمسلمين أن يحققوا هذه المبادىء على الصورة التى يرونها دون أن يقيدهم بشكل معين تتحقق فيه الشورى والعدالة أو غيرها من هذه المبادىء ، كما أنه لم يقيدهم بصورة معينة لانتخاب الرئيس ، أو المؤسسات السياسية التى تقوم عليها الدولة • لأنه يدرك أن ظروفا كثيرة ستجد على الناس • كما أن الظروف ستختلف فى بيئة عن بيئة وبهذه الطريقة يضمن الاسلام لنظامه أن يطبق فى ظروف مختلفة وبيئات متعددة وهذا من اعجاز الاسلام •

صفات الحاكم الأعلى فى الدولة الاسلامية

أما وقد عرضنا لموضوع اقامة الدولة القائمة على مبادىء الاسلام ، فان علينا ان نبحث فى المؤسسات التى تعمل الدولة من خلالها ولاشك ان منصب الرئيس الأول لهذه الدولة هو من اهم مناصب الدولة ومؤسساتها ، لذلك قدمنا الحديث فيه على سائر المواضيع الأخرى •

وقد كان منصبرئيس الدولة الاسلامية مجالا لدراسات واسعة سواء فى نطاق كتب التاريخ الاسلامى او كتب الاجتماع او كتب علم الكلام ، وكان الحديث عنه يرد غالبا تحت عنوان (الامامة) لأن معظم المؤلفين يطلقون على المسئول الأول فى الدولة الاسلامية اسم الامام أو الخليفة ، وقد تناولت هذه الكتب صفات الامام ، وطريقة تعيينه وعزله ، والوسائل التى يحكم بها ، والمبادى التى يقوم عليها حكمه الى غيره ذلك من البحوث •

وسنستعرض فيما يلى أهم بحوث مفكرى الاسلام حول صفات الحاكم الأعلى أو شروطه • ونبين مدى أهمية هذه الصفات وما طرا عليها من تغيير خلال الحقب التاريخية الطويلة المدى •

عرض الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية اهم هذه الصفات نذكر منهـــا :

١ ـ العدالة على شروطها الجامعة .
٢ ـ العلم المؤدى الى الاجتهاد فى النوازل والأحكام .
٣ ـ سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان .
٤ ـ سلامة الأعضاء من نقص يمنع الحركة وسرعة النهوض .
٥ ـ الرأى المفضى الى سياسة الرعية وتدبير المصالح .
٦ ـ الشجاعة والخبرة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو .
٧ ـ النسب وهو ان يكون الخليفة من قريش .

أما ابن حزم فقد ذكر فى كتابه « الفصـل فى الملل والأهـــواء والنحل شروط الحاكم وبين منها :

١ ـ البلوغ لقول الرسول عليه الصـلاة والســلام « رفـع القلم عن ثلاثة : النائم حتى يصـــحو ، والصبى حتى يحلم ، والمجنون حتى يفيق » .

٢ ـ الذكورة ، لقوله ﷺ : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

٣ ـ العلم بما يلزم من فرائض الدين .

٤ ـ التقوى لقوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (٩٣) .

واورد ابن خلدون فى مقدمته ان هذه الشروط خمسة :

١ ـ العـــلم .
٢ ـ العـــدالة .
٣ ـ الكفايـــة .
٤ ـ سلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى العمل .
٥ ـ شرط النسب ، وقـد ذكر ابن خلدون أن هـــذا الشرط مختلف فيـــــه .

---

(٩٣) سورة المائدة : ٢ .

ولاشك إن الشروط أوردهـا الباحثون تهـدف الى ايجـاد الرجل الصالح الذى يستطيع ان يقوم بأمر ورعاية شئون الأمة ، وتدبيز مصالحها ، لذلك كان لابد ان يشترط فى الحاكم الاسلامى العقـل وقوة التفكير وسلامة الـراى وحكمة التدابير وصـحة الجسم وقوته وسلامته من العاهات التى تخل بمهمته ، كما كان لابد ان يشترط فيه القدرة على تدبير الحكم وسياسة الدولة وفق المنهاج الاسلامى ، وان يكون رجلا قوى الايمان ، سليم العقيدة ، حرا معتدلا قائما بفرائض الاسلام معظما لشائره ، لا مطعن عليه فى دين ولا خلق ، وان يكون بالاضافة الى ذلك بصيرا بأحكام الشريعة ومقاصدها ، قوى الاخلاص عظيم الامانة ، لديه من العزة والهيبة والشجاعة ما يواجه به سلاطين المعتدين على حرمات الشرع وحقوق الناس وحدود الدولة وسيادتها .

ويمكن من استعراضنا لهذه الشروط والمواصفات أن نلاحظ انه يمكن انقسامها الى نوعين :

١ – شروط لا تجوز الامامة لمن ليست فيه .

٢ – شروط اختلف فيهـا .

أما الشروط الأساسية للحـاكم المسلم والتى اتفق عليهـا معظـم المسلمين فهى :

١ – الذكـورة .

٢ – البلـوغ .

٣ – العقـل .

٤ – العلم بأمور الدين والدنيا ليسهل عليه الحكم .

٥ – سلامة الأعضاء والحواس مما يؤثر فى العلم والعمل .

٦ – العدالة اى سلامة العقيدة وأداء الفرائض الاسـلامية وتعظيم شـعائر الاسـلام .

٧ – الحـرية .

٨ – الكفاية فى العمـل .

أما الشروط التى اختلف فيها فهى :

١ ـ النسب ، اى الانتساب الى قبيلة او بيت معين · وعادة ما يقصد به النسب الى قريش ولم يشترط بعض المفكرين الاسلاميين هذا الشرط ·

٢ ـ العلم بجميع مسائل الدين وأصوله وفروعه ولم يشترط كثير من المسلمين هذه الشرائط واكتفوا بأن يكون الحاكم عالما بما يسهل له القيام بمهمته ·

٣ ـ العصمة من الذنوب · وسنقف قليلا عند شرط النسب لأهميته فى تاريخ المسلمين ، فقد بدا الخلاف حول هذا الشرط منذ اجتماع السقيفة ، فالأنصار طالبوا ان يكون الخليفة منهم لكن ابا بكر رد عليهم بأن الرسول يقول (الائمة من قريش) فانصاع الانصار والمسلمون جميعا لهذا الحديث وولوا ابا بكر القرشى ثم عمر وعثمان وعلى وكلهم من قريش · ثم بقيت الرئاسة الأولى فى الاسلام بين المنتسبين لقريش سواء كانوا امويين او عباسيين او فاطميين ، ولم يجرؤ احد من غير قريش ان يطالب بمنصب الرئاسة الأولى حتى جاء العثمانيون فانتقلت الخلافة الى الاتراك ·

ويظهر ان اجماع المسلمين بقى قرونا على ان الحاكم يجب ان يكون قريشا ، وحديث الرسول فى هذا المعنى موجود فى كتب الصحاح ولاشك فيه ولا صحة لما حاوله البعض من تضعيف امره بأحاديث كقوله ﷺ : (اسمعوا واطيعوا ولو امر عليكم عبد حبشى كأن راسه زبيبة) لأن هذا الحديث وامثاله انما ورد فى مجال خاص وهو حض الرسول المسلمين على طاعة ولى الأمر ·

واذا كان الحديث واجتماع المسلمين على اشتراط النسب لقريش فكيف يصح الخروج عليه واسناد الحكم لغير القرشى ، والجواب على ذلك : ان الأحكام الشرعية لابد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لأجلها ، فما هو المقصد من اشتراط النسب لقريش ؟

لو اننا بحثنا الأمر لوجدنا أن القصد ان تكون هناك عصبية

تحمى الحكم وترسى قواعده . ولقد كان العرب يدينون لقريش بالولاء ويلتفون حولها ويقبلون زعامتها ولا يلتقون الا عليها ، فلو ان الرسول ترك الأمر فى يد غيرهم لتفرق العرب وتزعزع الحكم . اما قريش فانهم قادرون على سوق الناس بالغلبة الى ما يراد منهم فلا يخشى من أحد خلاف وفرقة .

ومن هنا كان اشتراط القريشية فلما زالت العصبية من قريش ذهبت قوتها ولم يعد لشرط القرشية قيمة ، ولا بأس ان يلتقى المسلمون حول الحاكم الذى يستطيع ان يجمع المسلمين ويوحدهم ولو لم يكن قريشا ، وهذا هو الرأى عند مفكرى الاسلام فى الحقب الأخيرة من تاريخ المسلمين ، ويعتبر ابن خلدون أول من نبه الى ذلك وأكد عليه .

طريقة تعيين الحاكم الاسلامى الأعلى

بعد أن علمنا أن الاسلام يوجب على المسلمين اقامة الدولة على مبادىء الاسلام ، وعرضنا للشبه التى ترد حول هذا الموضوع ، ورددنا عليها وثبت لنا ما نقول من آيات القرآن الكريم وسنة نبيه وتبين لنا ان حكومة الرسول فى المدينة تملك كل مقومات الدولة حسبما يعرف علماء القانون الدستورى والدولى ، بعد ان علمنا كل هذا نبدأ فى تفصيل وضع هذه الدولة واهدافها والأسس الفكرية والمعيارية التى تقوم عليها المؤسسات التى تشكل جهازها . ولما كان موضوع الرئيس الأعلى من اهم هذه الأمور فقد عرضنا فى البحث السابق للصفات والشروط التى يجب ان يتحلى بها وسنعرض فى هذا البحث الطريقة التى يتم بها تعيينه .

ويمكن دراسة طريقة اختيار هذا الحاكم على مرحلتين :

١ - فنعرض أولا للسوابق التاريخية والأمثلة الواقعية التى جرت فى تاريخ الاسلام فى هذا المجال .

٢ - ثم نعرض لبعض آراء الاسلاميين ورأينا حول طريقة التعيين هذه ، وهل تكون بالنص عليه فى القرآن والسنة ، أو الخليفة

من قبله ، او تكون بالاختيار او بالعهد له ممن سبقه ، او بالوراثة .
واذا كان تعيينه لا يكون الا بالاختيار فمن الذى يملك حـــق الاختيار هذا ، هل الشعب المسلم كله ؟ ام اهل الحل والعقـد جميعهم ؟ ام بعض اهل الحل والعقد ام فرد واحد منهم .

اما بالنسبة للواقع التاريخى او السوابق التاريخية فاننا سنعتمد بصورة خاصة على استعراض طريقـــة تعيين الخلفاء الراشـــدين الأربعة ، لاننا نعتبرهم القدوة لنا بعد الرسول فى كثير من امور ديننا .
ثم نعرض سريعا للطريقة التى اصبح يتولى فيها الحـاكم الأعلى فى دولة الأمويين والعباسيين وغيرها ، وسنلاحظ ان طريقة تعيين كـل واحد من الخلفاء الراشدين الأربعة كانت مغايرة لطريقة اختيـــار الآخر ، كما ان طريقة اختيار الحكام من بعدهم تختلف عن اسلوب الخلافة الراشدة .

ويجدر بنا ان نشير هنا الى ان الرسول عليه الصلاة والسـلام ترك المسلمين دون ان يعين لهم خليفة مع انه كان يعلم دنو اجـــله كما ان معظم المســلمين تحسسوا هـــذا حين نزلت الآية الكريمـة (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينـــا) .

وحين وقف يوصيهم فى حجة الوداع يقول لهم : (لعلى لا القاكم بعد عامكم هذا) ثم ان الرسول مرض مرض الموت وشعر انه سيلحق بالرفيق الأعلى ومع ذلك فانه لم يعين احدا لرئاســـة المسـلمين من بعده ، وقد كان فكران يعهد الى ابى بكر ، فقد روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت : قال رسول الله ﷺ فى مرضه (ادعى لى ابا بكر اباك واخاك حتى اكتب كتابا فانى اخاف ان يتمنى متمن ويقـول قائل انا اولى ويأبى الله والمؤمنون الا ابا بكر) (٩٤) ومـــع كل ذلك فان رأى الرسول استقر على ان لا يعهد لأبى بكر ولا لغـــيره بالخلافة ، فما هو السبب فى موقفه هذا ؟

احتج البعض ان مرضــه ﷺ كان شـــديدا لدرجة أنـه لم يكن يستطيع التفكير فى تعيين خلفه . ويرد على هـــذا القول بأن مرض

(٩٤) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٢٤٨ كتاب الفضائل ط الشعب .

الرسول فى الأيام الأولى لم يكن شديدا لهذه الدرجة ثم ان هـــذا المرض لم يمنعه من أن يمارس بعض الأعمال كأمره ابا بكر الصديق الصلاة بالمسلمين وتفكيره بتعينه خليفة كما ذكرنا .

وقال بعض المستشرقين : ان الرسول كان يشعر بأن النظـــام القبلى لا يتقبل التوارث ومن هنا رفض الرسول تعيين خلفه . ويــرد على ذلك بأن الرسول لم يكن له ولد ذكر حتى يعهد اليه بالامر من بعده فيكون الحكم وراثيا وهكذا فلو اختار فانه سيختاره من الصحابة وكان يمكن ان يقدم له نصيحة بأن يكون احدهم من بعــده الا انه اكتفى بالاشارة فقط كقوله رواية عن عبد الله بن مسعود : (لو كنت متخذا من أمتى احدا خليلا لاتخذت أبا بكر) (٩٥) وقوله (أرحم أمتى بأمتى أبو بكر) (٩٦) الا انه عليه السلام لم يعتد الاشـــارة الى التصريح .

والذى نراه ان الرسول كان يخشى ان يظن المسلمون لوعين . ان هذا الخليفة تم تعيينه بأمر الله فيظن هذا ان سلطانه ممتد من الله ، وأن لاحق لمسـلم بمراجعتـه فى امر أو ممارســة للرقابة على أعماله ، فينقلب الحكم الى نوع من التحكم والدكتاتورية ، وقــد يظن البعض ان الحاكم بمرتبة النبى او غير ذلك لذا فان الرســول تــرك للمسلمين حريتهم فى اختيار أمرهم ولكنه كان يشعر ان ابا بكر هو الأولى بالخلافة ، وكذلك كان يشعر المسلمون ، لأن كان رفيق الرسول فى الغار والذى صدقه حين كذبه الناس والذى كا نيتخذه الرســول خليلا له لو كان احدا من امته خليل .

طريقة اختيار أبى بكر رضى الله عنه :

لقد كان أول عمل مارسه المسلمون بعد وفاة الرسول عليـــه الصلاة والسلام هو اختيار خليفة للرسول ﷺ حتى انهم قدموا ذلك على تجهيزه عليه الصلاة والسلام ، لأن هذا يمكن أن يتأخر قليـــلا ولا يضر شيئا ، أما ان تترك الدولة الناشئة الوليدة دون مســـئول

(٩٥) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٢٤٥ كتاب الفضائل ط الشعب .
(٩٦) أخرجه الترمذى فى باب المناقب حديث رقم : ٣٧٩٣ ، ٩٤ .

او رئيس فان ذلك يؤثر على اوضاعها وخاصة ان معظم قبائل الجزيرة العربية كانت تفكر فى الانقضاض على الدين الجديد ٠

كما ان الروم والفرس بدأوا يتخوفون من الدولة الاسلامية الجديدة واخذوا يجمعون الجيوش للقضاء عليها ٠

ولقد شعر المسلمون جميعا بالحاجة الى اختيار خليفة للرسول، فكر فى ذلك الانصار والذين تلقوا الاسلام فآووه ونصروه ، وفكر فيه بنو هاشم والمهاجرون عامة ٠

وعندما علم عمر ان الأنصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ذهب الى ابى بكر وكان مشغولا بتجهيز الرسول للدفن فأخبره الخبر وخرجا يقصدان اجتماع الأنصار ، وفى الطريق التقيا بأبى عبيدة بن الجراح فاصطحباه معهما ٠

وقبل ان نتحدث عن اجتماع السقيفة لابد ان نشير الى محاولة بعض المستشرقين الدس على التاريخ الاسلامى ، وتصويره لقاء الصحابة ، الثلاثة — ابى بكر وعمر وأبى عبيدة — على أنه مؤامرة لاستيلائهم على الحكم واحد بعد الآخر ، وانهم كانوا يفكرون فى هذا الموضوع منذ مدة طويلة يرجعه بعضهم الى غزوة احد ، بعد ان شاع مقتل الرسول فيها ٠

ولاشك ان هذا احد تخريفات المستشرقين واثر من آثار من حقدهم على الاسلام والمسلمين ٠ والحق ان مثل هذا مستبعد ومستحيل ولا يستحق المناقشة لولا ان البعض نقل هذا عنهم ٠ فالمستشرقون ينظرون فى هذا الأمر نظرتهم الى السياسيين ومؤامراتهم والاعيبهم ولا يدركون سمو العلاقة التى تربط الصحابة والرسول ، ثم من يضمن بقاء الثلاثة واحدا بعد الآخر حتى يتقاسموها بينهم على التوالى ؟ ثم قد ثبت ان عمر قد اخذته الرهبة حين سمع الناعى بوفاة الرسول وانكر ذلك وهدد من يقول به بالقتل فقد روى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سمع بموت رسول الله ﷺ اصابه ما يشبه الذهول فحمل سيفه واخذ يصول ويجول فى الصحابة الذين الم بهم الحزن واستولى عليهم البكاء لفراق الرسول الكريم واخذ اقول : من قال ان محمدا

قد مات ضربته بسيفى هذا — وفى رواية اخرى قال : ان محمدا لم يمت وانما ذهب الى ربه كمـا ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن ايدى رجال وارجلهم زعمو ان رسول الله مات .

وكان ابو بكر فى مكان آنذاك فى اعالى المدينة يسمى (السنح) فلما علم بنبأ موت الرسول الكريم جاء على عجل . وما ان وصـل الى بيت الرسول حتى وجد عمر يقول هـذا الكلام فتركه ودخـل الى الرسول فى بيت عائشة وكان صلوات الله وسلامه عليه مسجى ببردته فكشف عن وجهه الشريف وقبله وقال : بأبى انت وامى اما الموته التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة ابدا . ثم غطى وجهه الشريف وخرج فوجد عمر ما يزال يجول فى وسط الصحابة ويردد : ان محمدا لم يمت . فاصطحبه الى المسجد والصحابة من خلفهما ، ثم صعد المنبر ووقف فيهم خطيبا وقال قولته الشهيرة فى هـذا الوقت العصيب : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت . ثم تلى قول الله تعالى : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) (٩٧) .

وهنا قال عمر : وقـد اعاده كلام ابو بكر الى رشـده — والله لكأنى لم اسمع هذه الآية الا حينما قالها ابو بكر وقد كنت اقرؤهـا كثيرا من قبـل (٩٨) .

والمهم أن اجتماع السقيفة تم وحضره الانصار ، ثم حضـره بعض المهاجرين وعلى راسهم الصحابة الثلاثة المذكورين رضوان الله عليهم . وسنقف قليلا عند هذا الاجتمـاع التاريخى الذى نعلمه من اعظم الاجتماعات السياسية ، ونعتبر ما دار فيه وثيقة سياسية خالدة فى تاريخ الفكر السياسى كله وليس فقط فى تاريخ السياسة الاسلامية.

---

(٩٧) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٩٨) انظر فى هذا سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٦٣ ، ص ٢٦٤ كتـاب التحرير ، وانظر تاريخ ابن جرير ج ٣ ص ٢٠٠ ط دار المعارف .

فقد اجتمع المقدمون بين المسلمين ، أو اهل الحل والعقد منهـــم على اختلاف آرائهم واجتهاداتهم ، وابدى كل واحد منهم وكل فــريق من الفرقاء آراءهم بكل حرية وناقشوا آراء الآخرين بكل وضوح ، ولم يخشوا ان يغضب رأيهم الفريق لآخر لأن قصـــد الجميع كان تحقيق مصلحة المسلمين والسعى لخيرهم ، وقد وقف ممثلو المهاجرين يدلون برأيهم • ثم اتفق الجميع على اختيار ابى بكر رضى الله عنه ، وعند ذلك بايعه الذين كانوا مخالفين له قبل الذين رشحوه •

ونظرا لأهمية هذه الجلسة التاريخية رأينا ان نثبت ما جاء فيها مختصرا عن تاريخ الطبرى (٩٩) منبهين الى ضرورة اختيار المصدر الموثوق ، لأن هنالك درسا كبيرا فيما كتب عن تاريخ المسلمين •

ذكر هذا المؤرخ الكبير فى حديث طويل له رواه بسنده : (انه لما قبض ﷺ اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وقالوا نولى هـذا الأمر بعد محمد عليه السلام سعد بن عبادة واخرجوه اليهم وهـــو مريض واخـــذوا يتداولون فيمـــا بينهم هذا الأمر وفيمـــا يقولونه للمهاجرين واتى عمر الخبر ، فاقبل الى منزل النبى ﷺ فارســـل الى ابى بكر وكان فى الدار هو وعلى بن ابى طالب فى شغل بجهاز الرسول – ان اخرج فقد احدث امر لابد لك من حضوره ، فخــــرج اليه ، فقال له عمر اما علمت ان الأنصـــار قـد اجتمعت بسقيفة بنى ساعدة يريدون ان يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، واحسنهم مقـــالة من يقول : منا امير ومن قريش امير •

فخرج اليهم • ولقيا ابا عبيدة بن الجراح فى الطريق فصــــحبهما الى اجتما عالأنصار واراد عمر ان يتكلم كلاما كان قد اعده من قبل فقال له ابو بكر رويدا حتى اتكلم فبدأ ابو بكر فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ان الله بعث محمدا رسولا الى خلقه وشـــهيدا على امتــه ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلة شتى ويزعمون انهـــا لهم عنده شافعة وانما هى من حجر منحوت وخشب منجور ، ثـــم

(٩٩) انظر تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ وما بعدهما ط دار المعـــارف •

قرا (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤها عند الله) (وقالوا : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) .

فعظم على العرب ان يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم وانتم الوزراء لا تفتاتون فى مشورة ولا تقضى على شدة اذى قومهم لهم وتكذيبهم اياهم وكل الناس لهم مخالف فكانوا اول من عبـد الله فى الأرض وآمن بالله وبالرسـول ، وهـم اولياؤه واحق النـاس بهـذا الأمر من بعده ، ولا ينـازعهم فى ذلك الا ظالم ، وانتم يا معشر الأنصـار من لا ينكر فضـلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الاسلام ، رضيكم الله انصارا لدينه ورسوله وجعل اليكم شجرته وفيكم جلة ازواجه واصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم وانتم الوزراء لا تفتاتون فى مشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

ثم قام الحباب بن المنذر الأنصارى ، فتكلم طالبا من الأنصـار ان يملكـوا عليهم امرهم فانـه لن يجترى احـد على خـلافهم وان الناس لن يصدروا الا عن رايهم لانهم اهل العزة والقوة واولوا العدد والمنعة وذوو النجدة ثم قال : فان ابى هؤلاء الا ما سمعتم فمنا امير ومنهم امير .

فما كان من عمر الا ان رد عليه : هيهات لا يجتمع اثنـان فى قرن – الحبل يشـده البعيران – والله لا ترضى العـرب ان يؤمروكم ولكن العـرب لا تمتنع ان تولى امرها من كانت النبـوة فيهم وولى امورهم بينهم ولنا بذلك على من ابى من العرب الحجة الظـاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن اولياؤه وعشيرته الا مدل بباطل او متجانف لاثم او متورط فى تهلكه .

وبعد ان رد الحباب على مقالة عمر ردا شـديدا ذكره الطبرى بنصـه ، قال ابو عبيدة : يا معشر الأنصـار انكم اول من نصر وآزر فلا تكونوا اول من بدل وغير ، ثم قام بشير بن سعد من الأنصـار فقال يا معشر الأنصار : انا والله اولوا فضـيلة فى جهـاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما اردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح

لأنفسنا ، فما ينبغى لنا ان نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبغى به من الله عوضا ، فان الله ولى المنة علينا بذلك الا ان محمدا ﷺ من قريش وقومه احق به واولى . وايم الله لا يرانى انازعهم هـذا الأمـر ابدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال ابو بكر – هذا عمر وهذا ابو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فانك افضل المهاجرين وثانى اثنين اذهما فى الغار ، وخليفة رسول الله عليه الصـلاة والسـلام افضل المسلمين ، فمن ذا ينبغى له ان يتقدمك او يلى هذا الأمر عليك ؟ ابسط يديك نبايعك .

فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما اليه بشير بن سعد ، ثم قام اليه الأوس جميعا ، ثم نتابع باقى المسلمين على بيعته .

ومن تحليل هذا الاجتماع الرائع والمناقشات العالية التى جرت فيه يمكن ان نقول : ان اختيار ابى بكر رضى الله عنه كان بترشـيح عمر له وموافقة اهل الحل والعقد ومبايعة كل المسلمين جميعا .

طريقة اختيار عمر رضى الله عنه :

كان اختيار عمر للخلافة بطريقة أخرى غير تلك التى تم بهـا اختيار ابى بكر ، **فقد حصل العهد من ابى بكر فى حياته ووافـق** اهل الحل والعقد من المسلمين على اختياره . وتوفى ابو بكر والمسلمون يعلمون من هو أميرهم من بعده .

وتفصيل ذلك ان ابا بكر وقف بين المسلمين واحلهم من بيعتـه وطلب اليهم ان يختاروا لهم خليفة ، الا ان المسلمين تركوا ذلك له .

فبدأ ابو بكر باجراء استشارته لاختيـار الخليفـة ، ويظهر ان سبب رغبة ابى بكر فى ان يرى المسلمين قد اتفقوا على خليفة ما كان يخشاه على الدولة الاسلامية التى تبدأ حربا ضروسا مع اعظم دولتين فى ذلك الحين فارس والروم ، فما كان الأمر يحتمل جدلا أو تمهـلا فى اختيار الرئيس الأعلى الذى يجب أن يباشر اعماله وصلاحيـاته فور وفاته – وفاة ابى بكر .

وهكذا بدأ ابو بكر يتصل بكبار رجال الصحابة ويدعو اليه اهل الحل والعقد وتحسس رغبة المسلمين فاستدعى عبد الرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد ، واسيد بن الحضير وقد اتفق الجميع على فضل عمر وأحقيته بالخلافة ، وأولويته فى حكم المسلمين ٠ الا ان البعض مع اعترافه بفضل عمر ابدى تخوفا من قسوته ٠ فبين لهم أبو بكر ان عمر انما يقسو للينه ، وانه لو تولى لكان موقفه منهم اقرب الى اللين والرحمة ، والحق ان عمر كان اصلح المسلمين للخلافة حينذاك لما كانت تمر به الدولة الاسلامية من ظروف صعبة ، وحروب طاحنة كانت تتطلب وجود الرجل الحازم ، ذى العزيمة والبأس ٠

وهكذا وبعد ان انهى ابو بكر مشاوراته ، ورأى اجماعا من الناس على اختيار عمر ، اشرف على المسلمين واخبرهم انه اختار عمر للخلافة فرضى المسلمون بذلك ٠ فاختيار عمر اذن كان بترشيح من ابى بكر وموافقة المسلمين ٠ وكل ذلك حصل فى حياته رضى الله عنه ، وكانت الشورى واضحة فى تعيينه ، كما كانت واضحة ومحققة فى تعيين ابى بكر ٠

طريقة اختيار عثمان رضى الله عنه :

رفض عمر رضى الله عنه بعد ان طعنه ابو لؤلؤة ، وطلب اليه المسلمون أن يعهد لابنه او لأحد غيره بالخلافة بعد ان بين لهم انه لو استخلف فقد استخلف أبو بكر ولو ترك الأمر فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ ولكن عمر عمد الى طريقة جديدة ، فترك الأمر شورى لستة من كبار رجال الصحابة ممن توفى الرسول وهو عنهم راض : وهم عثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله وسعد بن ابى وقاص ٠ وطلب اليهم ان يختاروا احدهم للخلافة وحدد لهم ثلاثة ايام كموعد اقصى يجب خلالها أن يتم اختيار الرئيس الأول ، وطلب اليهم ان يحضروا معهم فى مشاوراتهم ابنه عبد الله على ان لا يكون له حق تولى الخلافة ٠ وليبين لهم انه فى حالة انقسام الستة الى ثلاثة تؤيد واحدا وثلاثة اخرى تؤيد آخر ان يطلبوا الفريق الذى فيه عبد الرحمن ابن عوف ٠ وطلب اليهم ان يقتلوا المخالف والممتنع عن بيعة من تختاره الأكثرية ٠

وحين اجتمع رجال الشورى أخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من حق تولى الخلافة . فطلب اليه الباقون أن يقوم عنهم بالاستشارات اللازمة وترشيح من تتفق عليه رغبة المسلمين .

وقد استشار عبد الرحمن الناس ، وكان يواصل الليل والنهار فى اتصالاته ، حتى وجد ان الناس يجمعون على احد اثنين على ابن ابى طالب او عثمان بن عفان .

والملاحظ أن اكثرية المسلمين كانت راغبة فى عثمان ، لما يعرفون من لينه ورحمته . وقد شعر المسلمون ان الدولة باتت مستقرة الى حد كبير ، وان من حقهم ان يتمتعوا بشىء من اليسر والوفاء .

وحين وصول عبد الرحمن بن عوف الى هذا الحد من المشاورات ، كان عليه أن يرشح للمسلمين أحد الاثنين : فجمع المسلمين فى مسجد رسول الله ونادى عليا وسأله ان كان يحكم بكتاب الله وسنة رسوله والخليفتين من بعده ؟ فأجاب بانه يعمل فى ذلك قدر استطاعته. ثم طلب عثمان وسأله نفس السؤال فأجاب : ان نعم دون أن يعنى ذلك بشىء ، وعندئذ بايعه عبد الرحمن وبايعه المسلمون بما فيهم على بن ابى طالب . وهكذا فقد استشار عبد الرحمن ورشح ، ثم اقر اهل الحل والعقد والمسلمون بالبيعة العامة من اختاره للخلافة .

طريقة اختيار على رضى الله عنه :

اختلفت طريقة اختيار على للخلافة كثيرا عن طريقة السابقين عليه . لأن ظروف المسلمين كانت مختلفة ، فقد انفتح باب الشر والفتنة وانقسم المسلمون على انفسهم ، وقتل امير المؤمنين عثمان ، وكان الناس فى روع شديد ، والمدينة تغص بالأخبار من مختلف الأقطار وكأنها فى حالة حرب والناس لا يعرفون بعد مصرع الخليفة الذى جاء صدمة للناس ، لمكانة الخليفة المقتول ولحداثة الدولة الاسلامية ولفداحة ما حصل ، وعظم الجريمة التى ارتكبت .

وحين قدم رؤساء الأجناد على على يطلبون اليه أن يتولى أمر

المسلمين رفض ذلك وراى انهم لا يملكون الحق فى اختيار الخليفة فقد شعر على انه لو تولى الخلافة ببيعتهم دون اهل الحل والعقد فانها ستكون سابقة خطيرة ، وسيكون عملا من نوع الاكراه والضغط ولذلك طلب ان يتولى كبار الصحابة واهل الحل والعقد العمل على اختيار الخليفة ، كما حصل مع الخلفاء السابقين .

وعندما حضر كبار رجال الصحابة الى على يعرضون عليه الخلافة حاول ان يردها عنه ، ولكنهم اصروا عليه والحوا . وعند ذلك طلب ان تكون البيعة عامة فى المسجد . وقد حصل ذلك فاجتمع اهل الحل والعقد والمسلمون اجتماعا عاما فى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وبايعوا عليا ، وكان من بايعه كبار رجال الصاحبة ومنهم طلحة والزبير .

الا أن الاجماع الذى حصل فى بيعة ابى بكر وعمر وعثمان لم يحصل فى بيعة على فقد قال طلحة والزبير رضى الله عنهما انهما بايعا مكرهين ، وخرجا مع عائشة بدم عثمان ورفض معاوية وأهل الشام مبايعته للسبب نفسه ، وطلبوا الى على ان يسلمهم قتلة عثمان ، وحصل ما حصل من حرب المسلمين الأولى مع بعضهم فى معركة الجمل ، ثم فى حرب صفين .

وعلى كل : فان الذى اقر بيعة على هم أهل المدينة بطلب من أهالى الأنصار ثم بايعه باقى الأمصار الا اهل الشام وتوالت الأحداث المحزنة التى سجلها التاريخ فتولى الحسن بن على بعد مقتل أبيه .

ثم تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما لمعاوية وبايعه المسلمون بالخلافة . وانقلبت الخلافة الى حكم وراثى ، لأن معاوية عهد بالأمر لابنه يزيد وعهد مروان لابنه عبد الملك وعهد هذا لابنه الوليد ثم لسليمان .. وهكذا الا ان بنى امية حافظوا على البيعة فقد كان كل منهم يحرص على أن يأخذ البيعة لابنه او لمن يعهد له فى حياته . ثم يبايعه المسلمون بيعة ثانية حين توليه الأمر ، ويلتمس البعض لمعاوية العذر فى ايجاد هذا النظام الوراثى بان الانقسام الذى حصل بين المسلمين وضرورة استمرار الفتوح وقيام دولة قوية فى وجه خصوم الاسلام المتربصين به ، كان يتطلب وجود حكم

قوى يعتمد على عصبية قوية ، وكانت عصبية بنى امية آنذاك قادرة على ان تتحمل عبء العمـــل الاســـلامى وترســـيخ اركان الدولة الاسلامية فعمد معاوية الى تلك الطريقـــة فى الحكم وفى توليـــه الأمـــر لابنـــه ٠

بعد أن ألمنا بشكل موجز وسريع بالســـوابق التـــاريخية التى جربها المسلمون فى اختيارهم الخليفة ، نعرض لبعض آراء المسلمين حول هذا الموضوع ونبين الطريقة التى يتم بها اختيار الخليفة وهل هى النص ام الاختيار ، ام العهد له ممن سبقه ، ام الوراثة ٠

لقد انتهينا من استعراض السوابق التاريخية فى اختيار الحاكم الأعلى ٠ ونعود الآن الى تحليلها لنضع ايدينا على الوسائل التى اتبعها المسلمون فى تعيين الخليفة أو الامام ، علما بأن الكثير من هـــذه السوابق لا يقيدنا باتباعه او التزامه وانما ندرسه لمجرد الاستئناس بـــه فهو ليس أمرا منزلا من السماء ملزمون بالتقيد به ، وانما للمســـلمين أن يختاروا الطريقة التى تتناسب مع ظروفهم وبيئاتهم وأزمانهم ٠

ومن تحليل هذه السوابق يمكن ان نلاحظ ان الوســـائل التى اتبعها المسلمون فى اختيار الخليفة لا تخرج عما يلى :

١ ــ اختياره م ناهل الحل والعقد ٠
٢ ــ اختياره بالعهد له ممن سبقه ٠
٣ ــ دعوة مستحق الخلافة لنفسه مبايعة المسلمين له ٠
٤ ــ تعيين الخليفة السابق طريقة اختيار خليفته ٠
٥ ــ الوراثـــة ٠
٦ ــ القهر والغلبـــة ٠

ان الطريقة المثلى والأسلوب الذى يشكل قاسما مشتركا لأكثر من طريقة فى اختيار الخليفة هى طريقة اختياره من اهل الحل والعقد ٠ واهل الحل والعقد ــ الذين سندرسهم تفصيلا ــ هم اصحاب الـــرأى والكلمة فى الدولة الاسلامية ٠ ويرى معظم علماء السياسة وفقهـــاء المسلمين أن أهل الحل والعقد هم الذين يختارون الخليفة لمكانتهم

فى الدولة ، ولتحقيق معنى الشورى تماما اذا ما اختاروا او اشرفوا على اختيار حاكم المسلمين الاول .

وقد اختلفت آراء العلماء فيمن يشترك من أهل الحل والعقد فى الاختيار وذهبوا الى رايين :

احدهما : يقول بالاكتفاء بمن هو موجود منهم فى حاضر الدولة الاسلامية وعاصمتها . وحجتهم فى ذلك : ان الخلفاء الراشدين الأربعة اختيروا من اهل الحل والعقد فى مدينة الرسول التى كانت عاصمة الدولة آنذاك ، بالاضافة الى الحرج الشديد الذى يترتب على استدعاء جميع اهل الرأى فى الدولة خاصة اذا كانت ظروف الانتقال صعبة غير ميسورة فذلك يؤخر اختيار الحاكم الأعلى اهم منصب فى الدولة . ومن اصحاب هذا الراى الماوردى صاحب الأحكام السلطانية .

وثانيهما : يقول بوجوب اشتراك اهل الحل والعقد جميعا . ويرى أن الرأى الأول لا سند له من كتاب أو سنة كما هاجمه بن حزم فى كتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل .

اما تعيين الخليفة بالعهد له من الخليفة السابق قد فعله ابو بكر رضى الله ، عنه حين عهد الى عمر بالخلافة لكننا ذكرنا ان ابا بكر لم ينفرد برأيه فى تولية عمر ، فقد استشار الصحابة وتعرف على آراء معظم رجال أهل الحل والعقد والتقت آراء الجميع على ان عمر أفضل المسلمين للخلافة الا ما تخوف منه البعض من شدته رضى الله عنه ، وهكذا أمر أبو بكر بكتابة العهد له ، بعد أن اطمأن المتخوفون بأن شدة عمر انما هى للين أبى بكر رضى الله عنه .

ويرى اب ن حزم أن هذه الطريقة فى اختيار الحاكم الأعلى هى أفضل الطرق وذلك لما تؤمنه من استقرار الدولة واستشارة اهل الرأى فيها .

واذا حصل أن أهل الحل والعقد لم يختاروا أحدا للخلافة وأن الخليفة السابق لم يعهد الى احد من بعده فاننا يمكن أن نتصور طريقة هى أن يقوم أحد الذين تتوفر فيهم شروط الخلافة فيدعو لنفسه فاذا

وافقه اكثرية اهل الحل والعقد من المسلمين وبايعوه اصبح حاكما على الدولة ٠

ولابد من الاشارة هنا الى ان معظم الزيدية - وهم طائفة من الشيعة المعتدلة فى اليمن يميلون الى هذه الطريقة لأن من رأيهم ان الامامة كانت بالنص بالنسبة لعلى والحسن والحسين رضى الله عنهما وهى بالدعوة من مستحق الأمامة بعد ذلك ٠

وقد يعين الخليفة السابق طريقة اختيار خلفه دون ان يعين شخصه ، وذلك كما حصل حين عين عمر بن الخطاب رجال الشورى وترك لهم ان يختاروا واحدا منهم بعد استشارة المسلمين وقد راينا كيف استشار عبد الرحمن بن عوف - الذى اخرج نفسه من الخلافة - المسلمين على مختلف اتجاهاتهم ، وحين وجد معظمهم يميل الى اثنين عثمان أو على رضى الله عنهما ، أراد أن يستوثق لنفسه فطلب الى كليهما أن يعملا بالكتاب والسنة وسيرة الخليفتين وافق عثمان بلا تردد وتحفظ على ، فبايع عثمان وتابعه المسلمون بما فيهم على ، وكانت مبايعة ابن عوف رضى الله عنه بمثابة ترشيح منه ٠ وببيعة المسلمين استكمل الاختيار شروطه فتم تعيين الخليفة ٠

وفى رأينا أن هذه الطرق جميعا تعتمد على موافقة أهل الحل والعقد ٠ وقد اقر بعض علماء المسلمين الوراثة كطريقة لاختيار الخليفة وبموجب هذه الطريقة ينتقل الحكم الى الابن أو الاخ أو الى غيرهما حسبما يوجبه نظام الوراثة المعمول به فى زمن أو بلد ما وعلى رأس من أقر هذه الطريقة من المسلمين العلامة ابن خلدون ٠

وفى راى هؤلاء ان هذه الطريقة تشبه طريقة العهد السابق للخلف ، وانها ادعى لاستقرار الدولة وامنها ، الا اننا لابد ان نلاحظ بان خلفاء بنى امية كانوا يحرصون - مع اقرارهم نظام الوراثة - على ان يأخذوا البيعة لمن يعينونه من بعدهم ، ثم تكون بيعة ثانية حين يتولى الحاكم الجديد الحكم وفى ذلك اقرار بحق الشعب بالبيعة العامة كأمر لازم لاقرار تعيين الخليفة ٠

واخيرا فقد قالت بعض طوائف الشيعة بأن النص هو الوسيلة

الأولى لاختيار الامام فمن رأى الامامية (الجعفرية) مثلا ان القرآن والحديث قد نصا على امامة على بعد الرسول - بحسب زعمهم - وأن عليا نص على الحسن ، والحسين نص على من بعده وهكذا ، وقد اعتمدوا على آيات وأحاديث أولوها بتكلف شديد لا تحتمله ولا تطيقه اللغة العربية ، ولا الواقع التاريخى ، ومن ذلك قوله تعالى : (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (١٠٠) .

فقد تأول الشيعة ان المقصود بالذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . على بن ابى طالب ، ولعلك تلاحظ ان هذا التأويل شطط كبير وبعد عن اللغة العربية والحقيقة . ومنها قوله تعالى : (وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) (١٠١) .

فأول الشيعة صالح المؤمنين بأنه على رضى الله عنه وهكذا مما نجده من الضعف بدرجة لا يستحق الرد عليه .

واذا كانت موافقة اهل الحل والعقد ضرورية لاقرار اختيار الحاكم ، فما هو العدد الذى يشترط كحد أدنى ؟

قال بعض المسلمين : أن موافقة خمسة يكفى ، فقد كان اختيار ابى بكر من خمسة من الصحابة هم عمر وأبو عبيده ، واسيد ابن الحضير وبشير بن سعد وسالم مولى حذيفة رضى الله عنهم اجمعين ونحن نرى أن بيعة الخمسة انما كانت بمثابة الترشيح الذى وافق عليه سائر اهل الحل والعقد وسائر المسلمين بعد ذلك وعبروا عن موافقتهم بالبيعة ، فلو لم يوافق هؤلاء لما تم اقرار انتخاب ذلك الخليفة .

وذكر بعض العلماء انه يكفى لاتمام اختيار الخليفة موافقة ثلاثة من اهل الحل والعقد قائلين : ان عقد الامامة بمثابة العقد العادى او عقد الزواج ، ولما كان عقد الزواج يصح بالولى والشاهدين فان عقد الامامة يتم بمثل ذلك ، ونحن مع اعترافنا بأن عقد الزواج

---

(١٠٠) سورة المائدة : ٥٥ .

(١٠١) سورة التحريم : ٤ .

عقد هام لما يرتبه من اثار فى النسب والنفقة وغيرها ، الا اننا لا نرى أى مناسبة للمقارنة بين عقد الزواج وبين عقد البيعة للخلافة خاصة وان هذا العقد يرتب آثارا على المسلمين واقطار الدولة الاسلامية والحدود والقصاص والقتال وغير ذلك من شئون الدولة ، وبعضهم يقول بالاكتفاء بواحد - مستدلين فى ذلك بقول العباس لعلى رضى الله عنهما امدد يدك أبايك ، ثم يتابعنا الناس ، ومن الواضح ان هذه البيعة لم تتم حتى تتخذ حجة او سابقة تاريخية يستأنس بها .

ثم أن ذلك لو تم فان بيعة العباس تكون بمثابة ترشيح . للمسلمين أن يقروه أو يرفضوه ، وقد انتبه العباس الى ذلك اذ شرط بيعته بمتابعة المسلمين .

واذا كان لنا أن نكيف وضع الحاكم الأول قانونيا فاننا نقول : انه بمثابة وكيل عن الأمة ويستمد سلطته منها ممثلة بأهل الحل والعقد وعليه أن لا يخالف شروط الوكالة وموضوعها ، وبالتالى : أن لا يخرج على مبادىء التشريع الاسلامى ، وكأى عقد وكالة لابد من وجود الايجاب والقبول بين الطرفين : طرف الأمة الاسلامية وطرف الحاكم أو الأمير وكما ان على الوكيل ان يقوم بما يطلب منه الموكل فكذلك على الخليفة ان يعمل برأى الأمة ولا يخرج على مشورتها .

وما دام الأمر كذلك . فان الخليفة أو الحاكم لا يستطيع ان يعين أحدا مقامه الا برضاء الأمة موكلته ، فلا يكفى مجرد العهد من الخليفة السابق ، بل لابد من ان يقره أهل الحل والعقد ، وأن ترضى به الأمة بالبيعة العامة ، ومن هنا نجد ضرورة البيعة العامة فى اختيار الخليفة .

وليس من الضرورى أن يجتمع أهل الحل والعقد جميعا لاختيار الخليفة اذا كانت الظروف غير مواتية بل يكتفى فى الأحوال الاضطرارية بموافقة أهل الرأى فى عاصمة الدولة ولكن العدد القليل خمسة أو ثلاثة وواحد لا يكفى ، بل لابد من موافقة اكثرية أهل الحل والعقد على الخليفة الجديد ، كما أن الاجماع ليس واجبا ، اذ من الصعب أن يجمع الناس على شخص الخليفة بل ان يجمعوا على أقل من هذه القضية الخطيرة الهامة ، وعدم وجود الاجماع - اذا تأمنت الأكثرية - لا يؤثر فى صحة البيعة ولا يقلل من مكانة الحاكم .

أسس الحكم فى الاسلام

ان كل نوع من انواع الحكم والانظمة السياسية او الاجتماعية أو الاقتصادية يقوم على اسس معينة ، من هذه الاسس ما يشكل القاعدة الفكرية أو الفلسفة لهذا النظام . ومنه ما يكون القواعد العلمية التى تتحقق الأسس النظرية او الفكرية الا اذا طبقت احسن تطبيق .

فاذا طبقنا هذا الكلام على نظام الحكم فى الاسلام فان علينا ان نتلمس هذين النوعين : أى الأسس الفكرية والأسس العلمية والتطبيقية .

الأسس الفكرية :

أن جميع الأنظمة السياسية التى تعيش فى عالمنا ، تعتمد على فلسفة معينة ونظرة واضحة الى الكون والانسان والحياة ، ولا بأس من استعراض موجز لبعض هذه الأنظمة وفلسفاتها النظرية التى تقوم عليها ، ومقارنتها بعد ذلك بالفلسفة التى يعتمد عليها النظام السياسى الاسلامى .

فالماركسية : مثلا تقوم على نظرة مادية بحته للوجود . كما تعتمد على فلسفة معينة ونظرة واضحة الى الكون والانسان والحياة انها تقوم على التطور المادى أساسا لكل تغيير فى الحياة ولو كان تغيرا فكريا ، وتقرر افضلية المجتمع على الفرد ونستطيع ان نفصل هذه النظرية بعض التفصيل ، فتقول ان الماركسية تقوم على المبادىء التالية :

١ - المنطق الجدلى (الديالكتيك) الذى يتحكم فى الكون والانسان والمجتمع وينتهى الى انكار الله وانكار كل فرد أو وجود سابق على وجود الطبيعة والانسان .

٢ - التحليل المادى للتاريخ . وبموجبهذا المبدأ يكونالتطور المادى فى مجتمع ما هو وحده الذى يفرض نظام هذا المجتمع وليس الفكر أو التربية لأن أشكال الأنظمة الاجتماعية انما هى نتيجة تطور وسائل الانتاج فى المجتمعات المختلفة .

٣ - انكار كيان الفرد فى المجتمع ، ومحاربة الحوافز الفردية فيه ، والدعوة الى وجود تغيير نظام للمجتمع القائم على هذا الأساس ٠

٤ - حتمية الصراع الطبقى من اجل تغيير المجتمع والغاء الملكية الفردية لجميع وسائل الانتاج فيه ٠

٥ - الغاء الدولة عندما تعم الاشتراكية فيصبح الناس جميعا اشتراكيين ٠

والديمقراطية الغربية تقوم أيضا على عدة مبادىء :

والمبدأ الأساسى لهذه الديمقراطية هو الفرد ٠ لأن هذا النظام ظهر فى أوربا محطما لنظام سابق هو النظام الاقطاعى ٠ لذا كان من الواجب ان يتبنى المساواة فى الحقوق والواجبات والحرية لأفراد المجتمع جميعا ٠ وقد ترتب على هذه المبادىء التى نادت بها الثورة الفرنسية ان تقررت حرية الأفراد (ولو نظريا) فى ممارسة السياسة والاقتصاد ٠ ومن هنا نشأ مبدأ الحرية الاقتصادية الذى يتمثل فى قولهم : حرية المرور والعمل ٠ وكان من نتيجة اقرار الحافز الشخصى فى الربح ان ارتبطت الديمقراطية الغربية بالنظام الراسمالى ٠

ولسنا الآن فى مجال مناقشة هذين النظامين ، وانما ذكرنا ما ذكرنا عن مبادىء النظريتين لنقارن بينهما وبين مبادىء النظام السياسى الاسلامى ، ونستطيع أن نحكم عليهما بعبارة موجزة هى أن كلا من المذهبين : المذهب الحر الراسمالى والمذهب الماركسى ابتداء فى نظره الى الحياة نظرة مادية بحتة على الرغم من الاختلاف فى موقفهما من الايمان بالله حيث لم يحفل به الأول وان لم ينكره ، بينما عنى به الثانى وانكره ومن هنا يبدأ الاسلام ٠ ان النظام الاسلامى : يقوم على اساس الايمان بالله رب العالمين أولا ، ويستمد نظرته الى الكون والحياة والانسان من هذا الايمان ٠

ان الله خالق كل شىء ، والخالق له الحق فى أن يتصرف فى شئون خلقه ٠ والانسان من خلقه تعالى ، لذا فان عليه أن يمتثل لأمر خالقه فى كل ما يريد ٠

ويترتب على ذلك ان الله عليم بكل شىء ، لا يعذب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، لأنه خالق الاشياء كلها بما فيها الانسان ، وهو بالتالى اعلم بما يصلح لعباده فى شئون دينهم ودنياهم ، فاذا انزل عليهم نظاما كان من الطبيعى ان يكون افضل الأنظمة واكثرها مسايرة لمصالح الناس افرادا وجماعات .

واذا كان الله معبودا ، وكانت العبودية تعنى الخضوع التام مع المحبة الكاملة ، واذا كان الانسان يخضع قسرا للقوانين الطبيعية التى بثها الله فى الكون ، واقام النظام الكونى عليها ، فانه ليس على الانسان الا أن يتم عبوديته بالخضوع لقوانين الشريعة الالهية التى ينزلها الله على الرسل لتكون نورا وهداية للناس الى ما فيه خيرهم وصلاحهم فى الدنيا والآخرة .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان الانسان مستخلف فى هذه الدنيا من قبل الله تعالى وصدق الله القائل : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) (١٠٢) وقد أوكل الله اليه عمارة الأرض وكل مستخلف عليه أن يعمل حسب وكالة المستخلف فلا يصح له أن يخرج عليها أو يتنكر لها .

والانسان مهما بلغ من العلم والمعرفة فانه قاصر عن ان يحيط بطبائع الأشياء ومقتضيات التشريع على الصورة التى تتأمن فيها مصلحة الانسانية فى شتى أحوالها وظروفها . هذا الى انه يتأثر بعواطفه وشهواته وبالبيئة التى يعيش فيها والطبقة التى ينتمى اليها . وهذا كله يسلبه القدرة على وضع التشريع الكامل للبشر جميعا .

والنظرة الاسلامية فى هذا المجال تعتمد ايضا على ان المنهاج الأخير الذى ارتضاه الله للناس هو الاسلام الذى انزله على محمد ﷺ ، فجمع فيه كل ما تحتاج اليه الانسانية من مبادىء ونظم روعى فيها امكانية التطور والتجديد بحيث تصلح لجميع المجتمعات فى شتى الأزمان والأحوال .

---

(١٠٢) سورة الأنعام : ١٦٥ .

وهكذا فاذا كانت النظريتان الماركسية والديمقراطية الرأسمالية تقومان على أساس مادى ، فان الاسلام يقوم على أساس روحى من الايمان بالله وبرعايته للانسان وتكريمه له واستخلافه فى الأرض ويحتم أن يكون النظام السياسى ضمانا لهذا كله ، فلا يصح أن يقوم حكم على نقض أساس الايمان أو منع الانسان من أن يتمتع بكرامته الكاملة وحريته الصحيحة وانسانيته الحقة ٠

الأسس العلمية :

اما الأسس العملية أو دعائم الحكم الاسلامى فان اهمها ثلاثة وهى :

١ — الشورى ٠

٢ — العدل ٠

٣ — الطاعة ٠

وسنتكلم عن كل دعامة من هذه الدعائم بايجاز فى الصفحات التالية : —

الشورى

لقد عنى الاسلام عناية خاصة بمبدأ الشورى ، وصرحت نصوصه بأن أى حكم صحيح لا يمكن أن يتحقق فى غيبة هذا المبدأ ، وقد امر الله تعالى الرسول صراحة بمشاورة المسلمين فقال : (وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله) (١٠٣) وجعل الشورى صفة لازمة للمؤمنين المصدقين المستجيبين لله فقال : (والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) (١٠٤) وبلغ من اهتمام القرآن بالشورى أن اطلق هذا الاسم على احدى سوره (سورة الشورى) ٠

---

(١٠٣) سورة آل عمران : ١٥٩ ٠

(١٠٤) سورة الشورى : ٣٨ ٠

وقد سبق الاسلام فى تقرير هذه القاعدة جميع الأنظمة والمذاهب الأخرى ، وكان سبقه الزمنى كبيرا جدا لأن معظم المجتمعات الحديثة اقتبست هذه القاعدة من مبادىء الثورة الفرنسية وهكذا يزيد سبق الاسلام الزمنى فى تقرير هذا المبدأ اكثر من احد عشر قرنا .

ويزداد اعجابنا بسمو الاسلام فى تقريره للشورى اذا علمنا ان اعلانه لها لم يكن نتيجة لمطالبة من الناس ، او ثمرة لتطورهم ولرقى الوعى السياسى والاجتماعى آنذاك ، فالمجتمعات فى ذلك التاريخ كانت أبعد ما تكون عن التفكير فى مبدا الشورى او المطالبة به ، ولو القينا نظرة على الدول المعاصرة لبزوغ الاسلام لوجدنا ان الناس كانوا يعتبرون حكامهم آلهة وأنصاف آلهة او على الأقل ينظرون الى اعمالهم على أنها مقدسة لا يجوز نقدها أو الخروج عليها وهكذا فلم يكن من حق الشعوب أن تشارك بالرأى أو بالنقد فى حكم نفسها ، هذا بالاضافة الى نظرة الاحتقار التى كان الحكام ينظرون بها الى شعوبهم . وفيما يتعلق بالاسلام كان الوضع العادى ان يحكم الرسول ومن بعده من الخلفاء بطريقة مماثلة ولم يكن ذلك ليلقى اى استغراب أو استنكار لأنه هو الأسلوب المتبع فى الحكم . هذا بالاضافة الى محبة المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الحب الذى كان يدفع المسلم الى التضحية بنفسه لأدنى اشارة يشيرها الرسول الكريم والذى كان يدفعه بالتالى الى تقبل أى نوع من الحكم يراه .

ولكن الشرعية الكاملة الخالدة المنزلة من الله تأبى الا ان تقرر هذا المبدأ ، عاملة بذلك على رفع مستوى الجماعة وجعلها على مستوى النظر فى المسائل العامة والمصالح الضرورية والاشتراك فى الحكم ومراقبة الحكام .

وكان هذا الموقف طبيعيا من الاسلام الذى كرم الانسان وجعله خليفة لله على هذه الأرض يعمرها بما يعود على الناس بالخير فى دنياهم وأخراهم ، هذا هو الاسلام الذى يقرر مبادىء المساواة بين الناس والحرية الصحيحة والعدالة المطلقة .

نماذج تطبيقية لمبدأ الشـــورى :

ولم يكن النص على الشورى أمرا نظريا فحسب ، فقد طبــق الرسول هذا المبدأ على نفسه وطبقه الخلفاء الراشــدون من بعـــده أوسع تطبيق ، فالمتبع لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام يلاحظ انه كان يستشير المسلمين فى معظم الأمــور ، الا تلك التى ينزل فيها وحى من الله أو ينص عليها القرآن .

ولا بأس من الاشارة هنا الى بعض المواقف بايجاز :

١ - فى غزوة بدر : لمــا بلغ الرسول خــروج قريش لحمــاية قافلتهم ، وعلم انه قد تقوم الحرب بينــه وبينها ، استشـــار اصحابه (انظر سيرة ابن هشام) فقام ابو بكر الصديق وأحسن . ثم قام عمر ابن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : (يارسول الله أمضى لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنــو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا وانا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد (موضع باليمن) لجـــالدنا معـــك من دونه حتى نبلغه . فقال له الرسول خيرا ودعا له . ثم قال : اشيروا على أيها الناس (وانما يريد الأنصار ، وذلك لأنهم حين بايعــوه بيعة العقبة اخذوا العهد على انفسهم ان يحموه فى مدينتهم ومن كل من يحاول العدوان ، والمعركة هنا ستكون خارج المدينة ولذلك كان الرسول حريصا على أن يعرف رأيهم بوجه خاص) وقد قام على اثر ذلك سعد بن معاذ الانصارى سيد الخزرج فقال : والله لكانك تريدنا يارسول الله ؟ قال اجل : فقال : لقد آمنا بك وصدقناك وشـــهدنا ان ما جئت به هو الحق ، فامض يارسول الله لما اردت فنحن معـــك فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره ان تلقى بنـــا عـــدونا غـــدا انا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله .

وهكذا اعلن ممثل الأنصار موافقتهم ، وعند ذلك قال الرســـول

(سيروا وابشروا فان الله تعالى قد وعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى انظر الى مصارع القوم) .

واذن فان الرسول لم يخرج الى بدر الا بعد أن وثق بأن آراء المسلمين كلها تتفق مع رأيه فى هذا الخصوص .

٢ - وحصل قبل بدء معركة بدر أن امر الرسول المسلمين أن ينزلوا فى اقرب ماء من وادى بدر فتقدم اليه الحباب بن المنذر فقال : يارسول الله ارأيت هذا المنزل امنزلا انزله الله ، ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال الحباب أن هذا ليس بمنزل ، فانهض حتى نأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نخور ما وراءه ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فاستجاب الرسول لهذه المشورة الصائبة وقال : لقد اشرت بالرأى .

٣ - هناك مثال آخر لاستشارة الرسول لأصحابه وكان ذلك فى غزوة أحد : فقد سمع أن المشركين قد جمعوا جموعهم للانتقام مما أصابهم يوم (بدر) فلما سمع بنزولهم احدا جمع الناس واستشارهم فيما يعمل ، وقال : اشيروا على ما اصنع وقد اشار عليه الانصار وبعض كبار الصحابة بالبقاء فى المدينة والاستعداد لمنازلة المشركين خارجها ، وكان الرسول يميل الى هذا الرأى ، الا ان عددا كبيرا من المسلمين رأو الخروج الى احد ومقابلة المشركين فيها وكان معظم هؤلاء من الشباب الذين سمعوا ببدر ولم يحضروها فارادوا أن تكون لهم بدر اخرى ، وقال قائلهم (النعمان بن مالك الانصارى) لا تحرمنى الجنة فو الذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة فقال له (بم ؟) قال بأنى أشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله وانى لا افر من الزحف) وعندما وجد الرسول أن معظم المسلمين يريدون الخروج من المدينة ومقاتلة المشركين فى احد دعا بدرعه فلبسها ، وقد حدث أن الذين اشاروا بهذا الرأى ندموا على موقفهم وظنوا انهم اضطروا الرسول على الاخذ برأيهم وقالوا بئس ما صنعنا نشير على الرسول والوحى يأتيه ، فقالوا واعتذروا اليه وقالوا : اصنع ما رأيت ، الا أن الرسول أراد ان يضرب المثل للمسلمين وحكامهم فاعلن رفضه للرجوع عما اعتزم عليه بعد أن - استقر رأى المسلمين

على الخروج ، وقال لا ينبغى لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل .

وهناك امثلة كثيرة اخرى الا ان الوقت لا يسمح لتفصيلها - لذلك نكتفى بأن نشير الى ان الرسول وهو قدوة للمسلمين واسوتهم فى اعمالهم لا يتصرف الا لحكمة وعبرة ، وقد أراد ان يعلم المسلمين شعوبا وحكاما وجوب اقامة دولتهم على المشورة والمشاركة بين الحاكم والشعب دائما وأبدا .

واذا استعرضنا تاريخ الخلفاء الراشدين فاننا نجد انهم ساروا فى حكمهم على هذا المبدأ ايضا ، ذلك المبدأ الذى امر به القرآن وجرى عليه الرسول ، ويكفى ان نشير الى ما كان من استشارة ابى بكر للناس فى أمر المرتدين ، ثم فى العهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والى صنيع عمر وكيف ترك الأمر شورى لاختيار الخليفة الذى يليه ، والى اجتهاد عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فى استشارة وجوه المسلمين وأصحاب الرأى فيهم حتى وقع الاختيار على سيدنا عثمان بن عفان ، وقبل هذا وذاك فقد ترك الرسول الأمر بعده الى المسلمين ولم يعهد لأحد بالخلافة فاختار المسلمون أبا بكر بعد المشاورة والمناقشة والتى وصلت الى درجة كبيرة من الحدة لكن رأى المسلمين حين استقر على بيعة ابى بكر التف حوله المعارضون قبل المؤيدين ، وهكذا كان اختيار أول حاكم مسلم بالمشاورة الكاملة ولا شك ان ذلك لم يكن ليدور فى خلد الشعوب المعاصرة لتلك الحقبة من تاريخ الاسلام (١٠٥) .

ومن دراسة مبدأ الشورى وتطبيقاته فى الحياة الاسلامية يمكن أن نلاحظ عدة أمور :

١ - ان النص على الشورى كان من المرونة بحيث لم يقيد

---

(١٠٥) كان لكل خليفة من الخلفاء الراشدين مجلس شورى مصغر بالاضافة الى الشورى العامة وكانت مشورة أبى بكر تتألف من عمر وعثمان وعلى وابن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت . أما مشورة عمر فكانت من على وعثمان والزبير وطلحة وابن عوف وكانوا يجلسون عادة بين القبر والمنبر فاذا أتى عمر خبر أخبرهم بذلك واستشارهم فيه .

المسلمين بصورة معينة ولا بكيفية خاصة للشورى يلتزم بهـا النـــاس فلا يخرجوا عليها فقد ترك لأولياء الأمور والشعوب عامة ان يختــاروا الطريقة المناسبة على أن يكون تطبيق الشورى تطبيقا حقيقيا وصحيحا ولاشك أن هذا معتمد على ما كنا قد أشرنا اليه سابقا من أن الاســـلام دين الانسانية ونظامها فى جميع عصورها وعهودها ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن لا تقيد الشريعة النـــاس بالتفصـــيلات والجزئيات بل تكتفى ، بارساء القواعد العامة واقامة الأسس التى لابد منها .

وهكذا فان الشورى حقيقة لابد منها ليتصف النظام الســياسى بالصفة الاسلامية ولكن طريقة تطبيقها قد تختلف فاذا كان الرســول يستشير كبار الصحابة واذا كان الخلفاء الراشدون يستشيرون الصحابة وأهل السابقة فى الاســـلام وكان هؤلاء من المجمع على صــــدارتهم وافضليتهم فان هذا لا يمنع أن يعمد مجتمع آخر الى تنظيم الشورى واختيار اهل الحل والعقد بطريقة اخرى ، كالانتخاب مثلا .

٢ – ان استشارة المسلمين واجبة فى جميع المسائل والمصـــالح ولا تقيد الا بقيدين :

أولهما : ان الشورى لا تكون فيما ورد فيه نص الا ان تكون فى حدود التنفيذ والتنظيم لما بينه القرآن والسنة .

ثانيهما : انه لا يصح ان تنتهى الشورى الى ما يخالف نصـــا أو ما يخرج على روح الشريعة ومثل هذين القيدين لا يغيران شـيئا من حقيقة الشورى لأن النصوص الواردة لا يمكن ان تقف امام تجديد سليم أو تطور صـحيح .

٣ – اختلف علماء المسلمين ومفكروهم فى هل تكون الشـــورى ملزمة للحاكم ام اختيارية ؟ وبعبارة اخرى :

هل على الامام أو الرئيس اذ استشار ان يعمل بما اســتقر عليه رأى المسلمين ام ان له الخيار ان شاء اخذ برايهم وان شاء عمل برأيه .

وفى الجواب نقول : لقد كان من رأى بعض العلماء ان الشورى

الاختيارية واحتجوا لذلك بقوله تعالى بعد الأمر بالمشورة (فاذا عزمت فتوكل على الله) قالوا فالعزم من الحـاكم قد يكون على رايه ورأى المسلمين ، كما أوردوا بعض السوابق التاريخية من اهمها : ان ابا بكر رضى الله عنه حين استشار المسلمين بمحاربة المرتدين كان من راى اغلبيتهم ومنهم عمر رضى الله عنه قبول الصلاة منهم وتأخير المطالبة بالزكاة الا ان ابا بكر الذى يعلم ان الصلاة والزكاة لا تفترقان لأن احدهما حـق الله والأخرى حـــق العباد ابى ان يقبل الصلاة دون الزكاة وقال كلمته المعروفة (والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه) واصر على رايه بوجوب حرب المرتدين ، قال اصحاب هذا الرأى فقد عمل ابو بكر برايه الخاص لا برأى غالبيـــة المسلمين ، وهذا يدل على ان الشورى تكون اختيارية ٠

وعلى هـذا الراى الطبرى والقرطبى فى تفسيريهمـــا ، امـا البعض الآخر من علماء المسلمين وفقائهم فان من رايهم ان الحاكم ملتزم لرأى الأغلبية ، فاذا استقر راى المسلمين او اهل الحل والعقد منهم على امر كان من الواجب ان يعمـــل به ٠ غير مختـــار فيه ٠ ويحتجون على ذلك بأن الأمر الوارد بالشورى معدوم القيمة اذا لم يكن الحاكم ملزما بنتيجة المشورة ٠ ويوردون مجموعـــة من الســـوابق التطبيقية لهذا المبدا من سيرة الرسول ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين ولاحظ اصحاب هذا الرأى ان معظم المواقف التى استشار الرســـول المسلمين فيها اخذ برايهم ومن اهم هذه المواقف مشـــورته فى أحد ، ونزوله على راى اغلبية المسلمين ٠

اما ما احتج به الفريق الأول من استشارة ابى بكر فى حـــرب المرتدين فان الفريق الثانى يوردون الحادثة على صورة اخـــرى ، تؤيد وجهة نظرهم فيـــذكرون ان ابا بكر ما فتىء يوضـــح رايه للمسلمين حتى شرح الله صدورهم له على حد تعبير عمر رضى الله عنه وهكذا فان معظم الصحابة بما فيهم عمر وافقوا ابا بكر على رايه اخيرا فلم يكن بذلك خارجا على مشورتهم ٠

٤ ـ ان الشورى فى الاسلام ذات فرعين :

١ ـ الشورى فى اختيار الحاكم ٠

٢ - الشورى فى ادارة الحكم ومراقبة الحكام .

وتتحقق الشورى بالمعنى الأول بأن يتم اختيار الحاكم من قبل المسلمين او أهل الحل والعقد او مجلس الشورى ، فيختار الأصلح ممن توفر فيهم شروط معينة .

أما المعنى الثانى فيتحقق فى مشاركة الأمة عن طريق ممثليها من أهل الحل والعقد فى النصح للحاكم ، وتقديم المشورة الصالحة ومراقبة العمل الحكومى حتى لا ينحرف الحكم عن اهدافه وغاياته .

والاسلام لم يحدد للشورى شكلا معينا كما سبق ان ذكرنا الا انه لا يجوز أن يشارك فيها الا من كان اهلا لها وكفئا ، ونحن نتصور أنه لابد من نظام لايجاد مجلس للشورى يكون أعضاؤه من اهل الدين والفقه والاختصاص يتولى التشريع فيما ليس فيه نص ، ويكون من مهمته مراقبة شئون الحكم .

أما الطرق التى يتم بواسطتها اختيار هذا المجلس او الهيئة فانها متعددة :

(أ) ان البعض لا يرى مانعا من أن يقوم الحاكم بنفسه باختيارهم على أساس انه نال ثقة الشعب ورضاه .

(ب) بينما يقترح آخرون أن يكون اعضاء هذا المجلس بحسب وظائفهم أى أن تحدد وظائف معينة فى الدولة يكون شاغلوها مهما كانت أشخاصهم اعضاء فى مجلس الشورى ، على أساس أن هذه الوظائف الهامة لا يصل اليها الا من كان اهلا للمشورة وصاحب رأى افضل .

(ج) كما يرى آخرون ان يكون اختيار هؤلاء بالانتخاب على أساس أنها الطريقة التى تتمثل فيها الشورى اكثر من الطرق الأخرى .

ومع تلك الملاحظة فان الاسلام لا يحدد طريقة واحدة ينبثق عنها مجلس الشورى بحيث ندعى أنها الطريقة الاسلامية دون غيرها . وبناء

على هذا المبدأ نعتبر الانتخاب وسيلة صالحة لاختيار مجلس الشورى ، وأما أن الانتخاب يعتمد على ترشيح الانسان نفسه وان ذلك يتعارض مع توجيه الرسول بأنه لا يصـــح أن يتولى المناسب من يطلبهـا أو يحر ص عليها فاننا لا نجد فيه ما ينطبق على الترشيح لعضوية مجلس الشورى اذا خلت الانتخابات من الوسائل السخيفة التى تتم بها فى كثير من المجتمعات المعاصرة بحيث يكون الترشيح بمثابة الاعلان عن الأفراد الذين تتوفر فيهم شروط هــذه العضـــوية • ونحن نعتبر أن تجربة عمر رضى الله عنه فى موضوع الشورى حين عين الستة الذين أوكل اليهم امر انتخاب خلفه كانت تجربة رائدة لو اتيح للمســلمين ان يكملوها ويتابعوا العمل على منوالها •

٥ – ان ميزة النظام الاسلامى بالشورى رائعة ومثيرة اذا قورنت بأنظمة أخرى حديثة أو معاصرة ديمقراطية كانت أم دكتاتورية صحيح أن الديمقراطية تقوم على أساس الشورى والتعاون الا انها تنتهى بسوء التطبيق واذا كانت الدكتاتورية تقوم على السمع والطاعة فانها تنتهى الى انعدام الثقة وتسلط الحاكمين •

وأخيرا فان النظام الاسلامى فى هذا المجال يقوم على الشورى والتعاون فى مرحلة الاستشارة ، والسمع والطاعة والثقة فى مرحلة التنفيذ ، ولا تسمح قواعده اذا طبقت تطبيقا سليما بتســلط فريق على آخــر •

العـــــدل

ان العدل أو العدالة من المثل الأساسية التى جاء الاسلام ليقررها بين بنى الانسان ، وقد كان هذا طبيعيا من الاسلام الذى يحرص على كرامة الانسان ووصول حقه اليه ، فالعدالة ضرورية لاقامة الحـــق ، وضمان العدل يشيع الطمأنينة وينشر الأمن ويشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والاخاء • ومن هنا نجد آيات القرآن الكريم وأحاديث الرســول مليئــة بالدعوة للعدالة واحقاق الحق محذرة من الظلم والبغى ومحرمة له تحريما قاطعا ومتوعدة عليه بالعقاب الغليظ •

ولقد اعلن القرآن الكريم ان الله تعالى يقول (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) (١٠٦) .

ان الله الذى من اسمائه العدل ما ارسل رسله ولا انزل كتبه ولا كلف الناس بالشرائع الا لاقامة العدل والحق (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) (١٠٧) والسموات والأرض انما قامتا بالعدل (والسماء رفعها ووضع الميزان، الا تطغوا فى الميزان واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) (١٠٨) واقامة العدل احدى وظائف الرسول ﷺ (وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم) (١٠٩) .

أما الظلم فانه أمر حرمه الله تعالى على نفسه وحرمه على عباده يقول تعالى (وما الله يريد ظلما للعباد) (١١٠) .

وفى الحديث القدسى (يـ اعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) (١١١) وقد نهى الرسول ﷺ عن الظلم وجعله ظلمات يوم القيامة فقال (اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة) (١١٢) .

والعدل الذى ينادى به الاسلام عدل مطلق يساوى بين الناس (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) ولا تعتبر العداوة التى بين الناس مبررا لقيام الظلم او ترك العدل (يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على

---

(١٠٦) سورة النحل : ٩٠ .
(١٠٧) سورة الحديد : ٢٥ .
(١٠٨) سورة الرحمن : ٧ ، ٨ ، ٩ .
(١٠٩) سورة الشورى : ١٥ .
(١١٠) سورة غافر : ٣١ .
(١١١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٥ كتاب البر والصلة ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ط الشعب .
(١١٢) المرجع السابق ، ص ٤٤١ .

الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) (١١٣) ٠

حتى القول ينزه الله عباده الا يعدلوا فيه فيقول (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) (١١٤) ٠

والعدل يوصف به الفرد كما يوصف به المجتمع ، فالعدل فى الافراد هو اعطاء كل ذى حق حقه ومن آفاته التحيز والمجتمع العادل هو المجتمع الذى له من نظمه وقوانينه ما يسهل لكل فرد أن يصل الى حقه ، وان يرقى على قدر استعداده ، والتجديد الدقيق لعلاقة الفرد بالمجتمع عدل أيضا واساس العدل التجرد عن الهوى وعدم التأثر بأى شىء الا الحق ٠

هذا وللعدل مجالات كثيرة سنرى تفصيلها لكننا قبل البدء بالتفصيل يجب ان نشير الى أن الاسلام ليس دين أقوال ومبادىء فحسب ، ولكنه ايضا دين عمل وتطبيق للمبادىء التى وضعها ٠ لذلك كان العدل من اسس الحكم ودعاماته القوية ، يقول أبو بكر رضى الله عنه فى خطبته الأولى بعد ان ولى الخلافة ، تلك الخطبة التى جعلها دستور حكمه (الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه ان شاء الله) وكان عمر لحرصه على أن يحكم عماله وولاته بالعدل يخرج مع من يستعمله يشيعه ويذكر لهم انه لم يستعملهم على الناس لينالوا من ابشارهم واموالهم واعراضهم وانما ليعلموهم كتاب الله وسنة رسوله وليقضوا بينهم بالحق ويقسموا بينهم بالعدل ، وكان يقول للناس : من ظلمه عامله بظلامة فليرفعها حتى اقصه منه ٠ وحين سأله عمرو بن العاص قائلا :

يا امير المؤمنين ارايت ان ادب الأمير رجلا من رعيته اتقصه

(١١٣) سورة المائدة : ٨ ٠

(١١٤) سورة الأنعام : ١٥٢ ٠

منه .؟ فقال عمر : مالى لا اقصه منه وقد رايت رسول الله ﷺ يقص من نفسه .

والعدل الذى يتطلبه الاسلام عدل فى الحكم (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) (١١٥) .

والامام العادل احد سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله .

وهو عدل فى الضعفاء وتسوية بين المتخاصمين مهما اختلفت منزلتهم او تباينت طبقتهم كما أنه عدل فى توزيع الحقوق والواجبات وعدل فى اقامة الحدود والقصاص وعدل بين الزوجات ان كن اكثر من واحدة وعدل فى القول والشهادة والكتابة وعدل بين طوائف المسلمين اذا تخاصمت (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين) (١١٦) .

ان العدل فى الاسلام عدل كامل مطلق حتى مع الخصوم والأعداء كما ذكرنا . وبالتالى : فهو أحرى ان يكون عدلا مع الذميين والمعاهدين وقد قال الرسول ﷺ : (من اذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة) وقال : (الا من ظلم معاهدا او تنقصه حقه او كلفه فوق طاقته واخذ منه شيئا بغير طيب نفس فانا خصمه يوم القيامة) . ذلك لأن غير المسلمين متى اقاموا بديار الاسلام صار لهم ذمة الله وذمة رسوله ومن حقوقهم رعاية العدل معهم فى كل حال .

العدل فى الحكم :

ان شواهد العدل فى الحكم من الرآن والحديث كثيرة سبق ان ذكرنا بعضها ، والله تعالى امر كل حاكم ان يحكم بين الناس ولا يتبع

---

(١١٥) سورة النساء : ٥٨ .

(١١٦) سورة الحجرات : ٩ .

الهوى فيضل عن السبيل القويم ، لقد بين الرسول ﷺ إن العـدالة تمكن للحاكم أمره ، فاذا ما ترك العدل بين الناس اختل نظـام الحكم وزالت الدولة « ان هذا الأمر فى قريش اذا استرحموا رحموا واذا حكموا عدلوا واذا قسموا اقسطوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليـه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين) .

ولا يتحقق العدل فى الحكم الا بايصال كل ذى حق حقـه ، والحكم بمقتضى ما شرع الله من احكام ولعلنا اذا أردنا ان نتعـرف على صورة للمثل الأعلى للحاكم ان نجدها فى هذه الرسالة العظيمة التى بعث بها الحسن البصرى الى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قال : « اعلم يا امير المؤمنين ان الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ومصدر كل حائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كـل مظلوم ومفزع كل ملهوف .

والامام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحفى على ولده ، يسعى لهم ويعلمهم كبارا يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته .

والامام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقه البرة الرحيمـة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلا تسهر لسهره وتسـكن بسكونه ، ترضـعه تارة وتفطمـه تارة ، وتفرح بعافيتـه وتغتم بشـكايته .

والامام العادل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوانح تصـلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده ، والامام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملك الله كعدد ائتمنه سـيدة واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهلـه وفـرق مالـه .

واعلم يا أمير المؤمنين ان الله أنزل الحدود ليزجر بهـا عن الخبائث والفواحش فكيف اذا أتاها من يليها ؟ ان الله جعل القصـاص لعباده ، فكيف اذا قتلهم من يقتص لهم واذكر يا أمير المؤمنين الموت

يوما بعده ، وقلة اشياعك عنده ، وانصارك عليه فتزود له ولما بعـده من الفـزع الأكبر .

وأعلم يا أمير المؤمنين ان لك منزلا غير منزلك الذى انت فيـه يطول فيه رقادك ويفارقك أحباؤك يسلمونك فى قعره فريدا وحيـدا فتزود له ما يصحبك ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصـاحبته وبنيـــه (١١٧) .

واذكر يا امير المؤمنين وانت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمـــل .

لا تحكم يا امير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلية ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة فتبوء بأوزارك وأوزار مـــع أوزارك وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيـه بؤسك ويأكلون الطيبات باذهاب طيباتك فى آخرتك .

ولا تنظر الى قدرتك اليوم ولكن انظر الى قدرتك غدا وانت مأسور فى حبائل الموت وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحى القيـوم . انى يا أمـير المؤمنين وان لم ابلغ بعظتى ما بلغـه اولو النهى من قبلك فلم آلك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابى عليك كمداوى محبة يسقيه الأدوية الكريهة لمـا يرجو له فى ذلك من العافية والصحة . والسـلام عليـك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وقد أثبتنا هذا الكتاب مع طوله لأنه يعطينا صورة واضـــحة عما يتطلبه الناس فى الحاكم العـادل ، واظننا فى غنى عن ذكـــر امثلة عن التطبيق العملى للعدالة فى الحكم فان التـاريخ الاســلامى وخاصة تاريخ الخلفاء الراشدين زاخر بالغرائب التى تكاد لا تصدق عن تحرى العدل واقامته بين الناس (١١٨) .

---

(١١٧) سورة عبس : ٣٤ — ٣٦ .

(١١٨) عن اياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب فى السوق =

العــدل فى القضـــاء :

القضاء مؤسسة هامة فى الدولة عليهـــا يعتمــد المواطنون فى الوصول الى حقوقهم والانتصاف من بعضهم وعن طريقها تقـــام الحدود وتتحقق ، العدالة .

ولقد حرص الاسلام على أن يعطى هذه المؤسسة الاســـتقلال والصلاحية الكافيين لضمان احقاق الحق وتأمين العدل ، وقد نقـل الامام الرازى عن الامام الشافعى مما يجب على القاضى فى موقفه تجاه الخصمين قوله : ينبغى للقاضى أن يسوى بين الخصمين :

١ ـ فى الدخول عليــه .
٢ ـ والجلوس بين يديه .
٣ ـ والاقبال عليهمــا .
٤ ـ والاستماع لهمــا .
٥ ـ والحكم عليهمــا .

وفى رسالة بعث بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى يضع الفاروق عمر اسس القضـــاء النزيه العـــادل وسنثبتها فى هذا المقام لأهميتها فى الدلالة على ما نريد بيانه من وجوب تحقيق العدل فى القضاء الاسلامى ، فقد جمع فيهــا جمــل الأحكام واختصرها بأجود كلام وجعل الناس بعده يتخذونهــا اماما ولايجد محقق عنها معدلا ولا ظالم عن صدورها محيصا قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس (يعنى أبا موسى الأشعرى) ســلام عليــك اما بعــد :

فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فانه اذا ادلى اليــك

=

ومعه الدرة ، فخفقنى بها خفقة فاصاب طرف ثوبى ، فقال أمط عن الطريق فلما كان فى العام المقبل لقينى فأخذ بيدى فانطلق بى الى منزله فأعطانى ستمائة درهم وقال : استعن بها على حاجتك ، واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك . فقلت : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها . قال : وأنا ما نسيتها .

فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا احل حراما أو حرم حلالا .

لا يمنعك قضاء قضية اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيـــه لرشدك أن ترجع الى الحق ، فان الحق قديم ومراجعة الحق خـير من التمادى فى الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد الى اقربهــا الى الله وأشبهها بالحق واجعل لمن أدعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى اليه ، فان أحضر بينة أخذت له بحقه والا استحصلت عليه القضـية فانه انفى للشكواجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء او نسب ، فان الله تعالى تولى منكم السرائر ودرا باليقينات والايمان واياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فان الحق فى مواطن الحـــق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر .

فمن صحت نيته واقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين النـاس ومن تخلق الناس بما يعلم الله أنه ليس من نفســه شناه الله ، فمـا ظنك بثواب الله عزل وجل ورزقه وخزائن رحمته والسلام .

هذا : والعدل فى القضاء يقتضى العـــدل فى التنفيـذ واقامة الحدود . فالأحكام اذا صدرت ولم يتهيأ لها ان تنفذ كانت ادعى الى اجتراء الناس على الحق وخروجهم على جادة الصــواب والحـــدود تقصد الى حفظ الدين والعرض والمال والنفس والعقل .

لذا كان من الطبيعى أن يشير الرسول الى ضرورة التســوية بين الناس فى تنفيذ أحكام القضاء والحدود عليهم ، فيقول (انمـا أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الضعيف قطعوه واذا

سرق الشريف تركوه ، والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) .

العدالة فى تقرير الحقوق والواجبات وفى اقامة العدالة الاجتماعية :

ان الاسلام ينظر الى الناس بنظرة العدل والتساوى لأنهم من أصل واحد ، فليس لأحد حق مكتسب منذ الولادة والفرص متكافئة أمام الجميع دون تمييز لأحد على احد بسبب جنسه أو لونه ، ومن صور هذا العدل العام فى تقرير الحقوق والمحافظة عليها ، حق التعليم لجميع المواطنين وحق الحياة لأن الدم البشرى محرم فى كل حال ولا يجوز سفكه الا بالحق وحق التملك مادام يتم بطريق مشروع وحق حرية التصرف فى حـــدود المشروع ، وحق حرية الفـــكر والتعبير فيما لا يخالف أسس الدين .

أما الطاعة كأساس من أسس الحكم الاسلامى ، فاننا ســـنفصل الحديث عنها اثناء كلامنا عن واجبات كل من الحاكم والمحكوم .

مصدر السلطة والسيادة فى الدولة

ان الحاكم (أو الحكومة بصورة عامة) يمارس سلطة وسيادة على المواطنين ضمن نطاق الدولة وهذه السيادة شرط لابد منه لقيام الدولة التى تتألف عناصرها من شعب واقليم ونظـــام تنبثق عنـــه حكومة تمارس السلطة .

وهذه السلطة تصل الى حـــد تقييـــد الحريات وفرض الضرائب والحكم بالاحكام المختلفة ولابد من أن يمارس الحاكم نوعا من السلطة حتى يقوم النظام وتستقر الدولة وتتأمن حقوق المواطنين وتنعـــدم الفوضـــى .

فمن أين يستمد الحاكم السلطة ؟ وهل يستمدها الصفته الشخصية أم انه يستمدها بصفته حاكما او خليفة ؟

لقد تعددت النظريات التى تبرر ممارسة الحاكم للسلطة ويمكن أن نحصر هذه النظريات فى اتجاهين كبيرين .

١ – احدهما يرى أن الحاكم يمارس سلطته بموجب حق أو تفويض ألهى ، لأن الحاكم فى زعمهم وكيل عن الله وخليفته على الأرض لذلك فانه لا يستمد سلطانه الا منه ، وقد سادت هذه النظرية فى العصور القديمة واستمرت حتى نهاية القرون الوسطى فيما يسمونه بالحكم الثيوقراطى ، وكان ينظر الى الحاكم آنذاك على أنه اله أو من سلالة الآلهة ، أو على الأقل أنه يتميز عرقا ودما وشرفا عن سائر المواطنين ٠

وكان من نتيجة هذه النظرية ان وجد نوع من الحكام يحكمون بشكل مستبد وبصورة مطلقة دون أن يكون لأحد من الناس الحق فى مراجعتهم أو نقدهم محتجين بأنهم لا يقدمون حسابا على أعمالهم الا لله تعالى الذى فوض اليهم حكم الناس وحكمهم فى رقابهم وأموالهم) ٠

واصحاب هذه النظرية يؤيدون الحكم المستبد ويضيفون ذلك الى الله تعالى وحاشا لله ان يرضى الظلم لنفسه أو لأحد غيره ٠

٢ – اما الاتجاه الثانى فانه ينظر الى الحاكم على أنه فرد من أفراد الامة لا يتميز عليهم بشىء الا بالاعباء الثقيلة التى يتحملها ٠

وبالتالى فان الأمة هى التى تمنحه السلطة والسيادة وهى التى ترفعه الى سدة الحكم ٠

فما هو موقف النظام الاسلامى من هذين الاتجاهين ؟

نحن نقول : (أن الاسلام روحا ونصا لا يقبل بحال من الأحوال نظرية التفويض الالهى بل يرى فيها مجرد وسيلة للوصول الى السلطة والاستبداد بالحكم واما ما يدعيه اصحابها من أن الحاكم خليفة الله فى الأرض فان الاسلام يعتبر الناس جميعا خلفاء له فى هذه الدنيا يعمرونها مكرمين متميزين عن مخلوقات الله الأخرى بالعقل وتقبل الهداية فليس لأحد من الناس أن يدعى له خلافه خاصة دون الأخرى ، وأما القول بان الله بارادته قد أوصل الى الحاكم مكان السلطة انما هذه كلمة حق أريد بها باطل لأننا نؤمن ان كل شىء فى العالم انما

يتم بارادته تعالى وقدرته وليس فقط وجود الحاكم فى سدة الحكم ، لكن ذلك لا يسمح لأحد كان ان يدعى انه يتلقى سلطة مطلقة من الله أو الأنبياء ٠

ولقد وجد بين علماء المسلمين من يقول بما يقرب من هـــذه النظرية محتجين بقول عثمان رضى الله عنه : « كيف أخلع لباسا البسنيه الله تعالى » ٠

لكننا نرد على هذا الرأى بأن من الواجب ان يوضع قول عثمان رضى الله عنه فى اطار الحادثة التى ورد فيها حتى نحكم عليه حكما صحيحا ، فالمعلوم ان الفتنة بين المسلمين ذر قرنها فى اواخر خلافة عثمان ، حين استطاع بعض المشاغبين ، والمتآمرين أن يستغلوا بعض البسطاء فيثيروا فتنة دامية كان قومها متآمرين على الاسلام ، ومن ورائهم عبد الله بن سبأ وعامة وبسطاء انخدعـــوا بمعســـول الكلام فصدقوا أكاذيب روجها الحاقدون وضخموها من اقطار الاسلام : مصر والعراق واليمن فحاصروا المدينة وخيروا عثمان بين ان يعتزل أو يقتلوه ٠

وكان من الطبيعى ان يقف عثمان موقفا شديدا من هؤلاء وأن يأبى اقالة نفسه من الخلافة لأنه لم ير بينهم كبار رجال الصحابة واصـحاب الرأى والمشورة من المسلمين ، ولو ان كل حاكم شرعى استجاب لضغط المتآمرين الخارجين الشاقين لعصا الطاعة المفرقين بين المسلمين لمـــا استقر الحكم على حال ولما تحققت الحكمة من وجـود النظـــام فى الدولة ٠ وفى رأينا أن عثمان لو وجد بين هؤلاء الصحابة وأهل الشورى لكان له موقف آخر ، ولما تردد فى النزول راضيا عند رأيهم لأنه يعلم انهم هم اصحاب السلطة الحقيقية ، والمشورة الصالحة ٠

يؤيدنا فى موقفنا من ان الحاكم يستمد ســـلطته من الأمة وانه لا يستمدها لشخصه وانه لا يصح له ان يستبد فيها أو يدعى لنفســـه سلطانا فوق سلطانهم دلالات ومواقف متعددة للرسول عليه الصـــلاة والسلام والخلفاء الراشدين ٠ وقد حدث لرجل ان أخذته الرهبة من النبى فتعثر لسانه فى الكلام فقال له : (لا تخف فلست ملكا ولا جبارا) ٠

أما عمر رضى الله عنه فقد كان يقول للناس وقد احسوا منه شيئا من الغلظة والشدة فى الحق (والله ما أنا بملك وما انا الا احدكم ، منزلتى كمنزلة ولى اليتيم منه ومن ماله) فهو أذن يقرر انه كأحد المسلمين وأنه يرعى شئونهم كما يرعى ولى اليتيم مصلحة اليتيم بالحسنى والمعروف .و قد خاطب عمر أحد ولاته قائلا : (يا أبا موسى أنا وأنت واحد من الناس غير أن الله جعلك أثقلهم حملا) وقد مدحه احد الشعراء بمدح يشير ألى هذا المعنى وتقبله منه ولو انه يرى ، شيئا آخر لعارضه فيه ونبهه اليه :

انت الامام الذى من بعد صاحبه ... القى اليك مقاليد النهى البشر

واذن فالامة وحدها هى مصدر السيادة ، لأن الحاكم كما سبق ان ذكرنا وكيل عنها فى أمور الدين وفى ادارة شئونها حسب شريعة الله ورسوله ، ولها حق نصحه وتوجيهه وتقويمه ان اساء بل وحق عزله من المنصب الذى وليه عنها باختيارها ان جد ما يوجب عزله ويتمثل عقد الوكالة بصورة واضحة بعقد البيعة التى يعطيها المسلمون ، للحاكم المسلم .

وعلى هذا الرأى جمهور الفقهاء ورجال الفقه السياسى من المسلمين القدامى والحديثين ويمكن أن يستدل على هذا بأن الله تعالى يتوجه الى الجماعة الاسلامية كلها فيما يتعلق بالامور العامة وليس الى فرد بالذات من ذلك قوله : (يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) (١١٩) وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود) ، (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) ... الخ .

واذن فان الأمة الاسلامية بمجموعها هى التى ترعى اقامة حدود الله وتطبيق احكامه وهى مصدر السيادة العليا لقاء ما تحمله من مسئولية كبرى ، ولها حق اختيار الرئيس الأعلى للدولة والاشراف على الحكام .

---

(١١٩) سورة النساء : ١٣٥ .

ويمكن ان يستدل على هذا الرأى ايضا بقول الرســـول ﷺ ((سألت ربى الا تجتمع امتى على ضلالة واعطانيها)) ومعنى ذلك أنه متى اجتمعت الأمة على رأى كان هو الحق وكان واجبا الاخـذ به لأنه صدر ممن له حق السيادة والرياسة .

واذا كانت السيادة للأمة فانها تمارسها بواسطة ممثليها الذين عبر عنهم القرآن (أولى الأمر) وقد تعددت آراء الفقهـاء والعلمـاء فى تحديد صفات هؤلاء واشخاصهم والجمهور على ان صفاتهم هى نفس ما يجب ان يتوفر فى الحاكم المسلم الأول الا شرط النسب لمن اشترط النسب فى الامام .

ويرى الماوردى انها ثلاث صفات هى : العدالة ، والعلم ، والرأى والحكمـــة .

أما اشخاصهم فقد رأى بعض العلماء انهم الأمراء والقواد فقط بينما وسع آخرون دائرتهم فقال بأن اهل الحل والعقد او رجـال الشورى يتألفون من الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسـائر الزعماء والرؤساء الذين يرجع اليهم الناس فى الحاجات والمصـــالح العــــامة .

وقد سبق لنا ان بينا فى بحث الشورى ما يتعلق باختيار أعضاء الشورى وحقوقهم وواجباتهم ومسئولياتهم .

واجبات رئيس الدولة وحقوقه على الأمة

ان الحاكم الأول فى الدولة بمقتضى مبادىء الاسلام فرد من افراد الأمة لا يتميز عليهم بشىء الا انه اكثرهم أعباء وأشدهم مسئولية فهو لا يحتل مركزا خاصا يحميه من النصـــح والتوجيـه ويعفيه من الواجبات وليس له صفة من صفات القداسة التى كان يدعيها الحـكام لأنفسهم وهو ممثل عن الأمة ووكيل عنها عهدت اليــه تصريف شـئون البلاد ورعاية مصالح الناس .

والرئيس الأعلى للدولة ليس خليفة الله كما يظن البعض وانما هو خليفة رسول الله ﷺ ، واما ما ذكره بعض العلماء من انه خليفة الله فليست الا تلك الخلافة العامة التى يشترك فيها الناس جميعا حين يخاطب الله سبحانه وتعالى الملائكة (انى جاعل فى الأرض خليفة) ولا يمنح الاسلام الخليفة أو الرئيس الأول صفة العصمة المطلقة لأنها من صفات الله وحده .

وهو لا يطاع الا بالمقدار الذى تتفق فيه أعماله وأحكامه مع منهج الاسلام ومبادئه الحقة فاذا انحرف عن المنهج اقاموه عليه واذا اعوج قوموه بالنصيحة فالأمة صاحبة الحق فى تقويمه ونصحه ومراقبة أعماله لأنها هى التى اقامته فى مكانه وعهدت اليه أمورها ببيعة حرة خالصة من شوائب الضغط والاكراه ، وفى حياة الرسول الكريم وصحابته الخلفاء الراشدين أمثلة رائعة عن الشعور بالمساواة الكاملة بين الحاكم والأمة وتطبيقات نادرة لهذا المبدأ الرفيع .

فقد خرج الرسول - كما روى ابن الأثير فى الكامل - فى مرضه الأخير فى منزله متكئا على الفضل بن العباس وعلى على بن أبى طالب حتى جلس على المنبر ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

(أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عر ضى فليستقد منه ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى الا وا ن أحبكم الى من اخذ منى حقا ان كان له أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس) .

وهكذا كان يفعل الخلفاء الراشدين فقد أعطى عمر رضى الله عنه القود من نفسه اكثر من مرة ولما قيل له فى ذلك قال : رأيت رسول الله يعطى القود من نفسه وأبابكريعطى القود من نفسه وأنا أعطى القود من نفسى .

وهكذا كان الحاكم المسلم يرى أن الاسلام لا يفرق بينه وبين المحكوم حتى فى العقوبة والاخذ بالقصاص ، وقد خاطب عمر عماله بقوله : أنى لم أستعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ويشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم فمن ظلمه عامله بمظلمة فليرفعها الى حتى أقصها منه .

وقد أوجب الاسلام على الحاكم الأول أن يقوم بواجبات تمثيل الأمة والوكالة عنها حق القيـــام والزمه ببعض الأمور المحددة التى سنعرض لها بعد قليل وفى مقابل ذلك أوجب على الأمة تجاهه بعض الواجبات التى هى كالحقوق له عليهم ، لأن كل واجب لابد وأنـــه يقابله حق .

واجبـــات الحـــاكم :

كانت واجبات الحاكم الأول مجالا للحديث المجمل والمفصـــل لدى علماء الفقه السياسى وقد حدد الماوردى عشرة واجبات رأى أن الامام ملزم بأدائها ورافقه على ذلك معظم العلماء الآخرين (الأحكام السلطانية للماوردى والاحكام السلطانية للقاضى أبى يعلى) وسنورد هذه الواجبات ثم نعمد الى تحليلها مستنبطين منها ما نتصـــوره من واجبات على رئيس الدولة فى أيمنا هذه قال القاضى أبو يعلى متحدثا عن هذه الواجبات :

ويلزم الامام من أمور الأمة عشرة أشياء :

احداها : حفظ الدين على الأصول التى أجمع عليها ســـلف الأمة فان زاغ ذو شبهه عنه بين له الحجة وأوضح له الصواب وأخـذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروسا من الخلل والأمة ممنوعة من الزلل .

الثانى : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم حتى تظهر النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

الثالث : حماية البيضـــة والذب عن الحوزة ليتصرف الناس فى المعايش وينتشرون فى الأسفار آمنين .

الرابـــع : اقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك .

الخامس : تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون بها محرما ويسفون فيها دما لمسـلم أو معاهـــد .

السادس : جهاد من عاند الاســـلام بعد الدعوة حتى يسلم او يدخل فى الذمة .

السابع : جباية الفىء والصدقات على ما اوجبه الشرع نصـــا واجتهادا من غير عسف .

الثامن : تقدير اعطــاء وما يستحق فى بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه ودفعه فى الوقت لا تقديم فيه ولا تاخير .

التاسع : استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض اليهم من الأعمال ويكله اليهم من الأموال لتكون الأعمـــال مضبوطة والأمـوال محفوظـــة .

العــاشر : ان يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشـــاغلا بلذة او عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح .

وقد قال الله تعالى : (يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فأحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) فلم يقصر سبحانه على التفويض دون المباشرة وقد قال النبى ﷺ : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

وختم ابو يعلى كلامه بقوله : (واذا قام الامام بحقوق الأمـة وجب له عليهم حقان هما : الطاعة والنصرة ما لم يوجد من جهته ما يخرج عن الامامة) .

واذا اردنا ان نترجم هذه الواجبات الى عبارتنا الحديثـــة فاننا يمكن ان نحدد اهم واجبات الحاكم بالأمر التالية :

١ — اقامة المجتمع المسلم الذى يحقق الحياة الاسلامية ويحكم الاسلام فى جميع اموره ومشاكله وانظمته سواء منها ما كان يتعـلق بشئون الفكر والعقيدة او المال والاقتصاد او الأخلاق والتشريع والقضـــاء .

٢ - حراسة الاسلام من كل عدوان والمحافظة على الوطن الاسلامى ومنع كل اعتداء يقع على ارضه اذ يجب على الحاكم ان يتخذ مختلف الوسائل التى تكفل صد الاعتداء ويجب على كل مسلم ان يقدم كل ما يطلبه منهم من تضحيات فى سبيل تحقيق هذا الغرض .

٣ - العمل على نشر الاسلام بتحقيق مبادئه فى نفوس الأمة وتوضيح مبادئه وفضائله للناس جميعا فى كل اقطار الدنيا لأن الأمة الاسلامية امة ذات عقيدة ورسالة .

وبهذه المناسبة قد يستغرب البعض ان نضع فى واجبات الحاكم ان يعمل على نشر الاسلام بحجة أن هذا يتعارض مع واجبات الحكومة الحديثة والحقيقة ان جميع الدول الحديثة التى تقوم على عقائد معينة فانها تعمل على نشر عقيدتها والدعوة لها بمختلف اساليب الدعاية والاعلان والنشر ، فروسيا والدول الشيوعية الأخرى تبذل الكثير من اجل بث عقيدتها وتحسينها فى اعين الناس وكذلك تفعل أمريكا والدول التى تعتمد على ما يسمى بالديمقراطية الغربية فلماذا لا تقوم الدول الاسلامية بواجب نشر عقيدتها ورسالتها .

٤ - العمل على تحقيق العدل والانتصار للمظلومين ومحاولة القضاء على الاستبداد والاستعمار ومساعدة الشعوب المستضعفة للتحرر من ذل العبودية والاحتلال فالعدل اخطر واجب على الحاكم فى نطاق بلده وعلى أمته ومواطنيه ونصرة الشعوب المظلومة من انبل الواجبات التى يؤديها الحاكم المسلم خارج نطاق بلده وأمته لان الاسلام لا يطيق أن يقع الظلم على انسان فالله بعث الرسل ليقوم العدل بين الناس جميعا وارسل محمدا عليه الصلاة والسلام ليخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام .

حقوق الحاكم (واجبات المحكوم)

اذا قام الحاكم بالواجبات المترتبة عليه وأدى أمانة الحكم ونصح للمسلمين وعدل بينهم فقد وجب له عليهم حقوق أن يؤدوها حق الأداء ، وقد لخص علماء الفقه السياسى ما يترتب على الأمة من

واجبات تجاه الحاكم فى نقطتين اساسيتين اشار اليهما الماوردى ومن تأثر به من كتاب السياسة المسلمين هاتان النقطتان هما :

١ - الطاعة له فى غير معصية .

٢ - نصرته ومؤازرته والنصح له .

١ - اما الطاعة فى غير معصية :

فان الحكم اذا اعتمد على العدل والشورى من جانب الحاكم فانه لا يستقر الا اذا حققت الأمة الطاعة لولى الأمر والائتمار بأوامره والانصياع له ، فمادام الحاكم يلتزم فى تصرفاته من حيث المبدأ ووسيلة التطبيق نصوص الشريعة - وأن طاعته تصبح فريضة دينية واجبة الأداء من قبل المواطن المسلم فمن غير المعقول ان يكون ولى الأمر قائما بما عليه لله وللأمة ثم لا يكون مسموع الكلمة ولا مطاعا .

وقد أكد القرآن الكريم على هذا المبدأ فى قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الأمر منكم) ، فرئيس الأمة الأعلى من أولى الأمر الذين أوجب الله على المسلمين طاعتهم كما أن أحاديث الرسول كثيرة فى هذا الخصوص فقد روى مسلم فى صحيحه قوله : (عليك بالسمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك واثره عليك) .. وروى عنه (من خلع يدا من طاعة لقى الله ولا حجة له ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) ومن الأحاديث المتفق عليها فى هذا الموضوع قوله عليه السلام « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ، ما لم يؤمر بمعصية فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ، او كما قال .

وهكذا فان الطاعة واجبة محتمة ولا يمنع وجوبها الا امر واحد وهو خروج ولى الأمر خروجا واضحا على نصوص الشريعة ومبادئها لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقد خطب ابو بكر رضى الله عنه اثر توليه منصب الخلافة فقال : يا ايها الناس وليت عليكم لست عليكم بخيركم فان رايتمونى على حق فاعينونى وان رايتمونى على باطل فسددونى ، اطيعونى ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم .

ولا تشق عصا الطاعة لتصرف خاطىء بسيط أو اجتهاد لم يجد

محله وذلك لان المحافظة على وحدة الأمة أعلى وأهم ٠ فقد روى عن الرسول قوله : « انه سيكون هنات وهنات فمن اراد ان يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان (١٢٠) وروى عنه قوله : « أيمـا رجـل خرج يفرق بين أمتى فاضربوا عنقـه » (١٢١) وقوله : (من اتاكم وأمركم جميعا على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم او يفرق جماعتكم فاقتلوه) (١٢٢) ٠

واذا فماذا تفعل الأمة اذا اخطأ الحاكم خطئا لا يصل الى حـد الخروج على الشريعة ؟

لقد أوجد الاسلام سبيلا الى تصحيح الخطأ وتقويم الانحـراف بأن اقام الحكم على الشورى فلا يخرج الرأى والأمر الا بعد تمحيص وتدقيق وامر بالنصيحة لولى الأمر وتبدأ حدود النصيحة من المحادثة والرسالة التى تبين الخطأ بأسلوب هادىء رصين الى الاحتجاج على الانحراف البين الى استنكار الاعوجاج الخطير بالجهر بالحق فقد ورد عن النبى ﷺ قوله : (افضل الجهاد من قال كلمة الحق عند سلطان جائر) (١٢٣) وقوله : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان) (١٢٤) ، أما ان انكار المنكر يصل الى حد شق عصا الطاعة والخروج على ولى الأمر فسنتحدث عنه فى بحث آخر ٠

---

(١٢٠) مسلم بشرح النووى ج ٤ كتـاب الامارة باب حـكم من فرق بين جماعة المسلمين : ٥١٨ ٠

(١٢١) النسائى ج ٧ كتاب تحريم الدم باب قتل من فارق الجماعة ص ٩٣ ٠

(١٢٢) مسلم بشرح النووى ج ٤ كتـاب الامارة باب حـكم من فرق بين جماعة المسلمين ص ٥١٩ ٠

(١٢٣) الترمذى أبواب الفتن باب ما جاء فى فضل الجهاد حديث رقـم ٢١٧٥ وأبو داود ج ٢ كتاب الملاحم باب الأمر والنهى ص ٤٣٨ ٠

(١٢٤) مسلم بشرح النووى ج ١ كتاب الايمان باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ٠

٢ - أما نصرته والنصح له : فاذا كان الحاكم قائما بواجباته ، عادلا بين الرعية مؤمنا حياة الشورى عاملا على تأمين حقوق الله وحقوق الناس منفذا لجميع المبادىء الاسلامية نقول اذا كان حال الحاكم على هذه الصورة فان من الواجب على الأمة ان تطيعه الطاعة وان تنصره وتؤازره وخاصة اذا خرج على الامام من شق عصا الطاعة لأنه فى هذه الحالة يمزق وحدة المسلمين ويفرق صفوفهم مما يهدد الدولة الاسلامية بالخراب والدمار. وقد اعتبر الاسلام من يشق عصا الطاعة دون وجه مخربا ومفسدا فى الأرض ومحاربا لله ولرسوله وللمؤمنين وأوجب على الحاكم ان يرده الى جادة الصواب كما الزم الأمة ان تؤازر الحاكم وتنصره فى عمله هذا.

قال الله تعالى : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) (١٢٥) ، وجاء فى الحديث الشريف : (من أتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم ، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه) .

وحتى تكتمل صورة العلاقة المتينة بين الحاكم والشعب ويكون التجاوب كاملا ويتحقق الصلاح والرشاد فى الحكم الذى يهدف الى تحقيق شريعة الله والعدل بين الناس أوجب الاسلام على الشعب ان ينصح الحاكم اذا اجتهد فأخطأ أو ظهر منه مخالفة مقصودة أو غير مقصودة لقواعد الاسلام وذلك لأن الانسان مهما كانت رتبته وقيمته ومهما كان علمه واحاطته بالأمور فانه معرض للخطأ والزلل وليس من المعيب أن يخطىء الانسان ولكن المعيب والمخرب ان يستمر على خطئه بعد نصحه وتوجيهه . وقد ضمن الاسلام حرية التعبير والتفكير والانتقاد حتى لا يتقاعس المسلمون فى اداء هذا الواجب الهام ، أوجب النصح للحكام واذا أدى المسلمون واجبهم هذا حق الأداء استقر الحكم وثبتت الدولة وأمن كل انسان على حقه وعرف واجباته .

---

(١٢٥) سورة المائدة : ٣٣ .

وقد جاء فى الحديث الشريف : (الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم (١٢٦) .

وليس معنى النصيحة أن تخرج شاهرا بالسيف على الحاكم لكل صغيرة أو حادثة ، ولكن المطلوب ان يلجأ المسلمون أولا الى الرفق والحكمة والموعظة ، فالشدة غير مطلوبة اذا كان ينفع اللين كما أن اللين ينفع حيث لا تجدى الشدة والعنف .

وفى تاريخنا الاسلامى المضىء امثلة كثيرة مليئة بالمواقف البطولية التى كان يقفها المسلمون وعلماؤهم العاملون امام الحاكم اذا رأوا منه انحرافا عن الخط السوى الذى رسمه الاسلام .

مدة ولاية الحاكم الأعلى

تنقسم نظم الحكم القديمة والحديثة من حيث مدة ولاية الرئيس الأول للدولة الى قسمين :

١ - فمنها ما يحدد مدة معينة فى نهايتها ولاية الرئيس سواء كانت المدة قصيرة أو طويلة .

٢ - ومنها ما يجعل ولاية الحاكم مستمرة طول حياته .

فاذا ما أردنا أن نعرف مكان النظام الاسلامى من هذين الاتجاهين وجدنا أنه لم يرد فى القرآن أو السنة ما ينص على اتباع احد النظامين فقد تركت النصوص حرية للمسلمين فى اتخاذ الموقف الذى يتناسب مع الزمان والمكان والبيئة والتركيب الاجتماعى والتقدم أو التخلف فى الوعى والعناية بالشئون العامة ، الا ان الذى جرى عليه المسلمون بعد وفاة الرسول ، حتى نهاية الدولة العثمانية انهم أخذوا بالاتجاه الثانى

---

(١٢٦) مسلم بشرح النووى ج ٤ كتاب الامارة باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ص ٥٠٦ .

أى بقاء الحاكم الأعلى على سدة الرئاسة حتى وفاته . ولكن هل معنى ذلك أنه ليس فى النظام الاسلامى وسيلة لتنحية الحاكم غير الكفء ؟ وهل كتب على المسلمين أن يتحملوا ظلم الحاكم اذا كان ظالما وجنونه اذا كان مجنونا ؟ وهل يلزم الحاكم الذى لا يريد البقاء فى الحاكم على أن يبقى مهما كان عزوفه عن الحكم ورغبته فى التنحى أكيدة ؟

هذا ما سنتناوله بالدراسة فى هذا البحث وسنعرض لذلك على النحو التالى :

١ - هل يجوز للرئيس أن يخلع نفسه ؟

٢ - هل يجوز للأمة ان تنحى أو تخلع الرئيس ؟

٣ - متى يجب على الأمة ان تفعل ذلك ؟

أما عن خلع الرئيس لنفسه :

فقد كان مجال بحث علماء الفقه السياسى الاسلامى لأن منهم من اجاز للرئيس ذلك ومنهم من لم يجزه . وقد اعتمد كل من الفريقين على سوابق فى التاريخ الاسلامى .

فالذين اجازوا ذلك اعتمدوا على تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما لمعاوية بن أبى سفيان عن الخلافة بعد أن استشهد على وبايع الناس ابنه الحسن بالخلافة ، الا ان الحسن نظر الى الأمر نظرة عاقلة فوجد أن من حوله من الأمراء والأجناد لا يعتد بنصرتهم لأنهم لا يطيعونه الطاعة التى يشتد بها ظهره فهم قلب مترددون قوالون لا فعالون ، ونظر الى من حول معاوية فوجد قوما يطيعونه فى السراء والضراء ، ولا يترددون فى أمر ينفذه لهم ولا يناقشون فيما يطلب ، وجد من حوله فرقا وشيعا واحزابا ومن حول معاوية صفا واحدا . وعندما عرض عليه معاوية أن يحقن دماء المسلمين ويعيد لهم وحدتهم المفقودة منذ زمن بأن يتنازل عن الخلافة ، قبل الحسن ذلك فتنازل عن الخلافة فى سنة ٤١ هجرية وسمى هذا العام عام الجماعة .

اما الذين انكروا حق الرئيس في التنازل فقد احتجوا بموقف عثمان ابن عفان رضى الله عنه حين طلب اليه الأجناد المتغلبون على المدينة ان يخلع نفسه وقد أبى عثمان ذلك فقد سبق أن عرضنا لهذه الحادثة وبينا أن عثمان وقف ذلك الموقف حتى لا يعتاد المغامرون والمتآمرون خلع السلطة الشرعية ، ولا تعتبر هذه الحادثة حجة لأصحاب هـذا الرأى •

والذى نراه ان الرئيس حر فى ان يتخذ الموقف الذى يريده كما ان كلا منا حر فى ذلك ، فاذا وجد الحاكم الأول نفسه غير قادر على الاستمرار فى تحمل اعباء الحكم فليس لنا ان نجبره على ذلك ، وليس من المصلحة أن نفعله لأن انسانا وصل الى هذا المقام لابد ان يكون وجد اسبابا حقيقية تدفعه الى اتخاذ هذا الموقف •

وقد بحث علماء المسلمين ايضا موضوع تنحية الأمة للرئيس غير الصالح وقالوا ان الرئيس يستحق العزل فى بعض الحالات • فمن المعلوم أن من يتولى منصب الرئاسة الأولى يشترط فيه ان يتمتع ببعض الصفات فلو أن الرئيس فقد هذه الشروط أو شروطا هامة منها فانه يسـتحق التنحية والعـزل •

وقد ذكر لنا الماوردى والقاضى وأبو يعلى الفراء أن الذى يخرج عن الامامة شيئان :

– الجرح فى العدالة •

– والنقص فى البدن •

أما الجرح فى العدالة او الفسق فان منه ما يتعلق بالسلوك العملى كمتابعة الشهوات وارتكاب المحظورات او الأمر بذلك • ومنه ما يتعلق بالاعتقاد كأن يتأول او يعتقد أمورا مخالفة للحق ومبادىء الاســلام ونظامــه •

واما النقص فى البدن فيقصد منه ان يجد على حواسه وأعضائه ما

يمنعه من القدرة على ممارسة السلطة ، كأن يداخله الجنون او يفقد حواسه الى غير ذلك • اما فيما يتعلق بوجوب عزل الرئيس اذا أستحق العزل فقد اختلفت فيه آراء علماء السياسة الاسلاميين اختلافا كبيرا فمنهم يجمعون على أن مستحق العزل يجب عزله اذا كان ممكنا ولكنهم ينظرون من جهة ثانية الى وجوب المحافظة على وحدة الأمة وعدم الفتنة وكون الأصل فى الاسلام اطاعة الامام •

ومن هنا اختلفوا فى هل يجب الخروج على الرئيس غير الصالح ولو أدى الأمر الى العنف واستعمال السلاح او يكتفى بالنصح له ومحاولة تقويمه بالحسنى والصبر على اساءاته •

ولعل أسباب هذا الاختلاف : الأحاديث الصحيحة الواردة عن الرسول والتى تأمر بالصبر وتنهى عن منابذة الولاة الا فى حالة الكفر الصريح والسوابق التاريخية التى خرج فيها بعض المسلمين على بعض الخلفاء الأمويين ممن عصوا وبدلوا • بينما فضل بعضهم الآخر الاعتزال والامتناع عن الخروج بالاضافة الى رعاية وحدة الأمة واحتمال اخف الضررين •

وهكذا فقد اباح بعض علماء المسلمين الخروج على الامام اذا استحق العزل بينما منع بعضهم ذلك •

فأما الذين لم يبيحوا الخروج فقد اعتمدوا على :

١ - الأحاديث الكثيرة التى تأمر بالصبر والطاعة وعدم الخروج الا فى حالة الكفر الصريح ، من هذه الأحاديث : (من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له) (١٢٧) •

---

(١٢٧) مسلم بشرح النووى ج ٤ كتاب الامارة فى باب حكم من فرق بين جماعة المسلمين ص ٥١٨ والبخارى ج ٣ كتاب الاحكام باب السمع والطاعة ما لم تكن معصية •

(من كره من أميره شيئا فليصبر فان خرج عن السلطان شبرا فمات مات ميتة الجاهلية) ٠

قال عبادة بن الصامت : دعانا النبى ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا وان لا ينازع الأمام أهله الا ان تروا كفرا بواحا (ظاهرا) عندكم من الله فيه برهان (١٢٨) ٠

٢ - وجوب المحافظة على وحدة الأمة وعدم دفع الضرر الأدنى بالضرر الأكبر ٠

٣ - ان السوابق التاريخية تدل على ان معظم حالات الخروج على الحكام أدت الى آثار سيئة أكثر سوءا من الصبر على الحاكم الظالم ويضربون على ذلك مثالا خروج الحسين بن على رضى الله عنهما على زيد بن معاوية ، وخروج عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما من بعده

وعلى هذا الرأى كثير من فضلاء علماء المسلمين ٠

اما الذين أوجبوا الخروج على الحاكم الذى أصبح مستحقا للعزل وجعلوا الصبر على الظالم اثما فانهم احتجوا بمجموعة من الآيات والأحاديث التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعو الى عدم التعاون على الاثم والعدوان ٠ فمن ذلك قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) ٠

كما استدلوا بما ورد من أحاديث من مثل قوله ﷺ : (من رأى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) ٠

(لا طاعة فى معصية) (ان من اعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) أو كما قال ٠ الى غير ذلك من الأحاديث ٠

---

(١٢٨) مسلم بشرح النووى ج ٤ كتاب الامارة باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ٠

وبعد : فقد استعرضنا هذين الاتجاهين وكل منهما قد أيد ما ذهب اليه بالقرآن والأحاديث الصحيحة التى تأمر بالصبر وتنهى عن الخروج ، واخرى تأمر بمنابذة الحاكم الظالم ٠

الا انه من الواجب قبل الخروج على الحاكم الظالم التأكد من استحالة اعادته الى طريق الصواب بوسائل النصح والموعظة والتنبيه والا يؤدى هذا الخروج الى ضرر اكبر أو فتنة اعظم ٠

ولا بد لكل حاكم مسلم من ان يعيد الى ذاكرته دائما قول الله تعالى : (ولله العزة ولرسوله والمؤمنين) وان يتذكر دائما ان الله تعالى قال فى شأن الأمة الاسلامية : (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وان الاسلام الذى يدين به يأبى أن ينشأ المسلمون على الذل او يقبلون بالظـلم ومتى كان كل الحكام المسلمين كذلك سعدت الأمة الاسلامية وعاش الناس فى ظل العقيدة الاسلامية ونظمها وتعاليمها السمحة فى سلام ووئام ٠

وفى ختام بحثنا هذا عن الحكم فى الاسلام لابد لنا من ان نؤكد ما قلناه سابقا من أن النظام السياسى فى الاســــلام ، ليس نظاما دكتاتوريا او شيوعيا او رأسماليا او فرديا بل هو نظام منفرد مسـتقل متميز يحتوى كل مقومات النظام الناجح الذى يحقق مصلحة الدولة والمواطنين ويقيم العدالة والمساواة بين الناس اجمعين ٠

العـــلاقات الدولية فى الاســــلام
وحقوق المواطنين والأجانب

بعد أن استعرضنا شكل التنظيم السياسى فى الاسلام بصورة مجملة يجدر بنا أن نعرض لموضوعين هامين نظرا لما لهما من علاقة شديدة بموضوعنا . وهذان الموضوعان هما :

١ ــ العلاقات الدولية فى الاسلام .

٢ ــ حقوق المواطنين والأجانب فى الدولة الاسلامية .

اولا : العلاقات الدولية فى الاسلام :

ينبغى أن نشير فى هذا المجال الى انه قبل الاسلام كانت معظم العلاقات بين الدول علاقات خصومة وعدوان ، وكان قانون الغابة ، قانون القوة والغلبة وسيطرة القوى على الضعف هو الذى يتحـكم فى الميدان الدولى .

فجاء الاسلام ليقرر انسانية عامة تحل محل المبادىء البـــائدة ولتقيم العلاقات بين الدول على أساس جديد .

لقد قرر الاسلام فى هذا المجال مجموعة من المبادىء لتقوم عليها علاقات بنى الانسان أفرادا وجماعات ومن أهمها :

ــ الكرامة الانسانية .
ــ العدالة والمساواة والحرية .
ــ الوفاء بالعهود .
ــ المعاملة بالمثل .
ــ التسامح والتعاون ومنع الفساد .

كما انه جعل السلم لا الحرب أساسا للصلات بين الدولة الاسلامية وغيرها .

يقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين) (١٢٩) .

ويقول : (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) (١٣٠) .

الاسلام لم ينتشر بالسيف :

ولابد بهذه المناسبة من ان ندفع فرية كبيرة وجهها خصوم الاسلام ورددها عندنا بعض الذين لا يعقلون وهى : أن الاسلام انتشر بالسيف وانه لا يعرف الا العدوان والحرب سببا للعلاقات الدولية .

والواقع أن هذا محض افتراء على الاسلام والمسلمين يبطله القرآن ويدحضه تاريخ هذا الدين القويم ، ويشهد على كذب هذا الافتراء عدد غير قليل من المستشرقين ، يقول الأستاذ العقاد فى كتابه (الفلسفة القرآنية) : ان الحق الذى لا مرية فيه هو : ان الاسلام لم يستعمل السيف مطلقا فى غير موضعه ، وما كان المسلمون يلجئون اليه ابدا عندما كانوا يجدون فى غيره ما يغنى عنه من وسائل السلم والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

والمعروف لدى كل من له المام بالظروف التى نشأ فيها الاسلام ، وبالوضع الجغرافى والسياسى لجزيرة العرب ، والتى اطل منها محمد ﷺ بدينه على العالم كله ، ان الاسلام قد نشأ بين أقوام حاربوه وعارضوه يستوى فى هذا من كانوا داخل الجزيرة العربيـة أو من كانوا خارجها من الدول المحيطة . هؤلاء جميعا قد بذلوا الغالى والرخيص فى سبيل الصد عن هذا الدين الجديد ، بل وساوموا الرسول ومن آمن به وبدعوته سوء العذاب وكان الصحابة يطلبون من الرسول ان يرد على العدوان بالعدوان ولكن الرسول كان يقول لهم : لم أومر بعد بالقتال .

---

(١٢٩) سورة البقرة : ٢٠٨ .
(١٣٠) سورة النساء : ٩٠ .

وشاء الله لرسوله وللمؤمنين ان يردوا على العدوان بعد ان ظلمهم هؤلاء وأولئك من الأعداء ، فأمر الله ورسوله والمؤمنين معه بقتال من يقاتلهم ولكن فى غير شطط أو عدوان فقال تعالى : (اذن للذين تقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) وقال فى هذا الشأن ايضا : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) .

ان من ينظر الى الدول التى احاطت بجزيرة العرب فى عهـــد الدعوة الاسلامية يجدها وقد تربصت بالمسلمين الدوائر للاطاحة بهم وبدعوتهم الجديدة . ومن الطبيعى ان يكون اصحاب السلطان على راس هؤلاء دفاعا عن ملكهم وعروشهم ومنافعهم ، ومن الطبيعى ايضا ان هؤلاء الحانقين وهم يدافعون عن عروشهم ضد الاســـلام لا يمكن ان يحتكموا الى الحجة والبيان ، لأن الدعوة الاسلامية الجديدة بما لها من مزايا تهدد سلطانهم بالزوال لذلك فقد لجئوا الى السيوف والرماح والى الحرب والقتل وسفك الدماء ليوقفوا زحف هذا الدين الجديد .

ان اقواما هذا شانهم لا يمكن ان يحاربوا الا بمثل سلاحهم . لقد بذل الرسول كل ما يملك من وسائل السلم مع اعدائه سواء فى داخل الجزيرة العربية او خارجها ، لقد ارسل رسله الى الملوك والقياصـرة يحملون معهم رسائل تطلب منهم ان يدخلوا فى الاسلام فكان منهم من قتل رسول الرسول ، فهل يبقى الأمر هكذا كلما ارسل الرسول رســولا من قبله الى دولة مجاورة يفاجأ بقتله ؟ ان الأمر جد خطير ، ولابد من وقفة مع امثال هؤلاء .

انه لمن البلاهة بمكان ان يقال : انه كان على المسلمين ان يواجهوا السلاح بالجدل والبينة الحسنة ، بل العدل كل العدل والعقل كل العقل فى استعمال السلاح مع هؤلاء . لقد دعاهم الرسول بالحكمة والبينـة الحسنة فلم يستجيبوا بل ولم يبدوا اية بادرة للتفاهم مع المسلمين . ان اقواما هذا شأنهم لن تجدى معهم البينة الحسنة ولا الجدل ابدا ، بل السيف بالسيف ، فاذا تغلب المسلمون وكسروا سيف السلطان ، اصبح الرعايا احرارا فيما يختارون من دين . هم بالخيار بين ان يقول على

دينهم ودين آبائهم ، أو يدخلوا الدين الجديد . وفى هذا يقول الله تعالى : (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) (١٣١) .

وهذا معناه : أن من دخل فى الاسلام — دون اكراه ولا تهديد بالسيف فهو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن بقى على دين آبائه فعليه ضريبة يدفعها للحاكم المسلم فى مقابل ان يمنعه هذا الحاكم مما يمنع منه المسلمين ، ويحميه كما يحميهم ، ويعوله كما يعولهم ثم لا يطلب منه جهادا ولا ذيادا كما يطلب من المسلمين .

يقول الله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .

فليتامل كل عاقل فى منطق القرآن الكريم انه يقول : قاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولكنه لم يقل قاتلوهم حتى يسلموا طوعا أو كرها .

ومع ان القرآن قد أمر الرسول والمسلمين بقتال الأعـداء الذين وقفوا حجر عثرة فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية ، الا انه جعل للسلم مكانا ، فقال : (وا نجنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) (١٣٢) .

وعلى هذا : فالاسلام لم يلجا الى السيف الا ليبطل حكم السيف الذى شهره عدوه فى وجهه ، وهو كما قلت عدو لا يؤمن بالحجة ولا بالرأى .

ان علاقات الحرب بين المسلمين وبين جيرانهم ، أو بين المسلمين وبين من يعاهدونهم لهى أرفع علاقات وارقى معاملة عرفتها عصـور الحضارة الانسانية .

---

(١٣١) سور ةالبقرة : ٢٥٦ .
(١٣٢) سورة الأنفال : ٦١ .

لقد ضمن الاسلام لهؤلاء امن الطريق ، وامان المسالمين الوادعين بوفتح المسالك للارزاق ، ونظم ذلك كله بالعهود والمواثيق ، وحث المسلمين على رعاية هذه العهود ٠

لقد سبق الاسلام امم الحضارة الحديثة الى كل خير فى معاملة الاسرى والرسل والجواسيس فالأسير يفتدى ، والرسول لا يخشى على نفسه وماله ، والجاسوس يعاقب بعقابه المصطلح عليه في كل زمان ويعفى عنه اذا حسنت نيته ، واعتذر عن عمله بذر مقبول ، والادلة على ذلك من خلال تاريخ الاســـلام وسيرة الرسول كثيرة نذكر منهـــا على سبيل المثال لا الحصر :

ما روى من ان ابن الفواحة وابن آثال رسولا مسيلمة الكذاب ، جاءا الى النبى ﷺ فقال لهما النبى : اتشهدان انى رسول الله ؟ قال : نشهد ان مسيلمة رســـول الله ، فقال رســول الله ﷺ : آمنت بالله ورسوله ولو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما) ٠

هكذا وضع الرسول الكريم السنة لتامين الرسل فهل بعد هذا يقول القائلون : ان الاسلام قد انتشر بالسيف ؟

والله انه لزعم كاذب ٠

فلم ينتشر الاسلام الا بمبادئه السامية التى لا تفرق بين غنى وفقير او بين عظيم وحقير بل الكل امام مبادىء هذا الدين وأمام شعائره ســواء ٠

فها هو جبلة بن الأيهم احد ملوك آل جفنة ، كان قد اسلم فى زمن عمر بن الخطاب ولما قدم على عمر أحسن عمر استقباله ، وخرجا الى الحج ، وبينما كان جبلة بن الأيهم يطوف فى البيت الحرام بالكعبة اذا برجل من بنى فزارة يطأ ازاره وهو يطوف فانحل الازار ، فرفع جبله يده فهشم انف الفزارى ٠

وعلم عمر بن الخطاب بذلك فخير جبلة بين أن يرضى الرجل الذى هشم انفه ، او يقتص الرجل منه ، ولما لم يجد جبله مفرا ، من عدل الاسلام ومساواته بين الناس فر مع قومه الى القسطنطينية وتنصر ، وندم بعد ذلك على تنصره ندما شديدا ٠

لقد فات هؤلاء الذين يروجون لفكرة انتشار الاسلام بالسيف ان الاسلام دين عالمى ، وانه جاء بما يتلاءم مع فطر الناس جميعا ومن اجل ذلك انتشر فى اقل من قرن شرقا وغربا ، ودخل الناس فيه افواجا بلا اكراه ، بل احيانا بمجهود ضئيل من الدعوة اليه او بغير دعوة مطلقا .

ان على هؤلاء ان يقرءوا ما كتبه (توماس ارنولد) فى كتابه : (الدعوة الى الاسلام) اقتباسا مما نقله عنه الدكتور محمد رشاد سالم فى كتابه (المدخل الى الثقافة الاسلامية) وخلاصة ما كتبه فى هذا الشأن : ان الاسلام - حتى فى أيام ضعف اتباعه السياسى قد حقق بعض غزواته الروحية الرائعة ، ثم يضرب الأمثلة على ما يقول - من واقع التاريخ فيذكر حالتين تاريخيتين كبريين وطىء فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق اتباع الرسول أولئك هم الأتراك السلاحقة فى القرن الحادى عشر ، والمغول فى القرن الثالث عشر وفى كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين وانه قد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا خلوا كذلك من اى مظهر من مظاهر السلطان الزمنى عقيدتهم الى افريقيا الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية .... الخ .

ان اليسر والبساطة والعدالة وما الى ذلك من الصفات التى اتسم بها الاسلام كانت السبب فى انتشاره مما دفع بعض المبشرين والمستشرقين الى الاعتراف بذلك فى كتاباتهم - وعلى الرغم منهم غالبا - يقول توماس أرنولد فى كتابه السابق :

اننا اذا نظرنا الى التسامح الذى لقيه رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الاسلامى ظهر لنا أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق .

ثم يستشهد توماس ارنولد بكلام (ملمان) الذى يقول :

انه فى الوقت الذى فتح فيه المسلمون اقاليم خاضعة للحكم المسيحى كانت الأحزاب الدينية المسيحية متنازعة متفرقة وكان الجدل المستمر فيما بينهم سببا فى ان الآلاف من الناس وجدوا ملجأ من هذه المجادلات التى لا تنتهى عند حد ولا تعرف اللين والتسامح فى

تلك الحقيقة البسيطة الواضحة حقيقة الوحدانية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ونبوته ٠

ويأتى ارنولد فى الكتاب نفسه بدليل آخر هو كلام (كيتانى) وخلاصته : ان وجود السفسطة المذهبية بين رجال اللاهوت المسيحى أدى الى زعزعة أصول العقيدة الدينية ، ولما أهلت آخر الأمر انباء الوحى الجديد من الصحراء (لم تعد المسيحية بعد تلك الأنباء قادرة على مقاومة اغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا مادية جليلة ، الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى احضان نبى بلاد العرب) ٠

هكذا تتضح الحقيقة ناصعة أمام كل ذى عقل ، فهل بعد هذا يمكن لأحد أن يقول : أن الاسلام قد انتشر بالسيف ؟

ان الاسلام لم ينتشر بالسيف كما أوضحنا ولم يجرد سلاحه للعدوان على الآخرين ٠

أسباب الحرب المشروعة فى الاسلام :

ثم ان أسباب الحرب المشروعة فى الاسلام لا تتعدى أسبابا ثلاثة :

١ ـ دفع الاعتداء الواقع بالفعل على الدولة الاسلامية والمسلمين لقوله تعالى : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) (١٣٣) ولقوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ٠ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين) (١٣٤)٠

٢ ـ حماية الدولة من اعتداء محتمل ومتوقع ، وذلك كأن يثبت للمسلمين ان دولة أو مجموعة من الدول والشعوب تعد العدة للعدوان عليهم ، ففى هذه الحالة لا يجوز للمسلمين أن يقفوا مكتوفى الأيدى حتى تتخطفهم ايدى المعتدين ، بل يجب عليهم أن يقضوا على العدوان

---

(١٣٣) سورة البقرة : ١٩٠ ٠

(١٣٤) سورة البقرة : ١٩٣ ، ١٩٤ ٠

فى محله (وما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا) وهذا ما تفعله اية امة اخرى تترقب اعتداء عليها . والمقصود من هذين السببين حماية المسلمين والدولة الاسلامية من الغزو والاستعمار .

٣ — دفع اعتداء الحكومات غير الاسلامية على عقيدة المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهما ورفع الحجر الذى قد تضعه هذه الحكومات على نشر الاسلام فالدولة الاسلامية تسمح لغير المسلمين من رعاياها ان يمارسوا عباداتهم ويحتفظوا بعقائدهم وأن يبنوا البيوت اللازمة لممارسة شعائر دينهم ، ولم يعلم عن المسلمين انهم منعوا غيرهم من اصحاب الديانات الأخرى من اداء هذا كله ، لأن المجتمع الاسلامى يقوم على حرية الاعتقاد والتدين . لذلك فان على الدول الأخرى ان تعامل المسلمين بالمثل فلا تقف أمام حريتهم فى الاعتقاد والتدين .

والدعوة للاسلام فاذا حصل ان فعلت ذلك بعض تلك الحكومات فانها تكون قد نقضت العهود الدولية المتعارف عليها ويجب على المسلمين أن يدفعوا الاعتداء الواقع على العقيدة ولو أدى ذلك الى استعمال السلاح والمقصود من هذا تأمين الدين من أن يطمس ، والعقيدة من ان تنتهك ، فحرية الدعوة لله يجب ان تكون متوفرة أمام الداعين اليها من المسلمين وفيما عدا هذه الأسباب لا تعتبر الحرب ، حربا مشروعة .

ويؤكد الذى ذكرناه واقع المسلمون وتاريخهم فالمستعرض لغزوات الرسول وسراياه يجد الرسول فيها جميعا معتدى عليه لا معتديا فغزوة بدر لم يكن هدفها القتال ، وانما استخلاص بعض ما للمسلمين من أموال مغتصبة لدى قريش . وقد نجت القافلة التى تحمل المال وكان بامكان المشركين ان يقتنعوا بذلك الا انهم ابوا الا ان يقدموا بدرا فيشربوا ويخمروا ويتحدوا ضد المسلمين، فكانتغزوة بدرالتى دفع فيها المسلمون اعتداء وقع عليهم بالفعل ، اما غزوة احد فالمعروف انها دفع لحرب عدوانية شنها المشركون فقد قاموا على المدينة بمجموعهم يريدون القضاء على الدولة فى مهدها فى المدينة فاضطر المسلمون لرد الاعتداء ، كذلك الأمر فى غزوة الخندق اما السرايا التى بعثها الرسول الى حدود الدولة الرومانية فكانت بسبب اعتداء الغساسنة والروم على القبائل التى اسلمت فى شمال الجزيرة العربية وحين أمر الله تعالى الرسول ﷺ ان يقاتل المشركين كافة فلأنهم يقاتلون المسلمين وكافة ولأنهم فشلت معهم جميع الوسائل الأخرى كصلح الحديبية مثلا

واصروا على القضاء على الاسلام ولم يكن المسلمون مختارين فى ان يعلنوا الحرب على المشركين وكذلك الأمر فى بداية الحرب التى قامت بين المسلمين ودولة فارس والروم ٠

فالمسلمون لم يدخلوا هذه البلاد حبا للفتح ولا لينشروا الاسلام بالقوة يدل على ذلك الواقع التاريخى والحال الحاضر فهم لم يجبروا انسانا على ان يغير دينه ليدين بالاسلام ولم يهدموا معبدا لغير المسلمين يدل على ذلك العهود التى اعطاها خلفاء المسلمين وقوادهم لسكان البلاد المفتوحة (١٣٥) كما يدل عليه ان جميع البـــلاد التى دخلهـــا المسلمون ما تزال فيها أعداد كبيرة من غير المسلمين ، واذا حارب المسلمون لاعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله فانما فعلوا ذلك لايجاد البيئة التى تسمح بالدعوة الاسلامية ولا تقف فى طريقها ، وأما العقيدة فانهـــا لا تتم بالاكراه (انك لا تهـــدى من احببت ولكن الله يهدى من يشـــاء) ٠

تقسيم العالم الى دار الاسلام ودار الحرب ودار العهد :

قسم فقهاء المسلمين العالم الى دور ثلاثة ، او انواع ثلاثة من الـــدول :

١ — دار (أو دول)	الاسلام
٢ — دار (أو دول)	الحرب
٣ — دار (أو دول)	العهـد

ويلاحظ أن التقسيم لم يرد فى القرآن ولا فى السنة ، ولكن علماء المسلمين عمدوا اليه بفعل الواقع العملى الذى كان يعيشه المسلمون ٠ لذلك فانه قابل للتغيير والتبديل وهو لا يقوم على اساس تغاير الأديان

(١٣٥) من ذلك ما جاء فى عقد أمان عمرو لأهل ايلياء من أنه يعطيهم أمانا لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر أهل ملتهم أنه لا تسكن كنائسهم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ٠

وانما على اساس الأمن او الفزع الذى يلاقيه المسلم فى هذه الدولة أو تلك .

اما دار الاسلام :

فهى كل ما يدخل من البلاد فى محيط سلطان الاسلام ، ونفذت فيها أحكامه ، واقيمت حدوده ، وقد وجب على المسلمين الدفاع عنه وجوب كفاية أو عين ، واستيلاء الأجنبى على احدى دول الاسلام لا يرفع عنهم وجوب القتال لاسترداده وان طال الزمان كما هو شأن فلسطين . وتسمى دار الاسلام أيضا دار العدل ، لأن المفروض أن يكون العدل أساسها كما تسمى دار التوحيد مقابل دار الشرك .

وأما دار الحرب :

فانها الدار التى لا تطبق فيها احكام الاسلام الدينية والسياسية لوجودها خارج نطاق السيادة الاسلامية . وتشمل البلاد التى ليس فيها ولاة المسلمين ولا تسود فيها احكام الشريعة .

الا أن ذلك وحده لا يكفى لاعتبار الدولة محاربة للمسلمين . وقد وضع بعض فقهاء المسلمين شروطا ثلاثة لاعتبار الدولة دار الحرب :

١ – ما ذكرناه من اختلاف نظام الحكم والشريعة .
٢ – المتاخمة لدار الاسلام .
٣ – أن لا يأمن المسلم فيها على ماله وعرضه ونفسه ودينه .

واذا : فان اختلاف نظام الحكم وحده لا يكفى لتعتبر الدار دار حرب ، وانما يشترط ان لا يأمن المسلم على حياته أو دينه ، لأن دولة تفعل ذلك لا شك انها معادية للدولة الاسلامية ، فتعتبر دولة محاربة . وأما شرط المتاخمة (المجاورة) لدولة اسلامية فانا لا تعتبره واجبا الا لأن الاعتداء يمكن أن يحصل لو لم تكن حدود مشتركة بين دار الاسلام وهذه الدولة لتقدم وسائل الحرب والدمار .

وأخيرا دار العهد :

وهى تلك الدول التى لم يظهر عليها المسلمون ، وعقد المسلمون

مع أهلها عهدا بالصلح . وقد يكون من شروط هذا العهد ان تدفع الدولة المعاهدة مبلغا من المال تؤديه يسمى خراجا ، وقد لا يكون هذا الشرط موجودا وكثيرا ما يكون من بنود العهد ان يدافع المسلمون عن الدولة المعـــاهدة ، كما حصل فى العهـد الارمينيـة فى عهـــد معــاوية ابن أبى سفيان . ودار العهد لا تحكم بنظم الاسلام وشريعته وانما لها حريتها فى ممارسة سيادتها وسلطتها بشرط ان لا تضر بمصالح المسلمين او الدولة الاسلامية . ٤

ويمكن اعتبار جميع الدول التى لا تؤذى المسلمين او تحارب ٥
دولهم ، والتى تضمهم منظمة الأمم المتحـدة دولا معاهـــدة . وذلك لالتزامها بميثاق واحد هو ميثاق الأمم المتحدة الذى ينص على عدم الاعتداء وعلى معالجة الخلافات بالطرق السلمية .

ولابد من ان نشير الى ان فقهاء المسلمين حين قسموا العالم الى دار للحرب ودار للاسلام كانوا مضطرين بحكم الواقع الى الأخذ بهـذه القسمة ، لاجتماع العالم فى بعض العصور على حرب المسلمين كما لابد من ان نلاحظ بأن تقسيم العالم هذه القسمة لم يؤثر اطلاقا على المثل الاسلامية العليا ولا على ان المبدأ فى العلاقات الدولية هو (السلم) .

ثانيا حقوق المواطنين والأجانب فى الدولة الاسلامية :

مما تجدر الاشارة اليه هنا انه لم يكن للأجنبى قبل الاســــلام حقوق فى معظم الدول المعروفة آنذاك ، لأن الدول حينئذ كانت تعـد ٦
كل من سواها عدوا لها . وبالتالى تعتبر اى أجنبى عدوا أيضا وتعامله معاملة الأعداء .

وكما جاء الاسلام ليقرر مبادىء الانسانية والسلم فى العلاقات القائمة بين الدول فانه يقرر المبادىء نفسها فى علاقة الدولة الاسلامية بالأفراد ، سواء كانوا مواطنين او اجانب مسلمين او غير مسلمين حتى لقد بلغ الاسلام فى تسامحه انه اذا دخل دار الاسلام حربى مشرك فلا يجوز للمسلمين أن يتعرضوا له بسوء . بل ان مبادىء الاسلام توجب على ولى الأمر ان يأمر بحماية هذا الحربى المشرك حتى يبلغ مأمنه (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسـمع كلام الله ثم

ابلغه مأمنه) ولا بأس من ان نلقى نظرة سريعة على أحوال المواطنين والأجانب وما يتمتعون به داخل نطاق الدولة الاسلامية .

لقد قسم فقهاء المسلمين السياسيين فى الاسلام سكان الدولة الاسلامية الى أنواع ثلاثة :

١ - المسلمون .
٢ - الذميون .
٣ - المستأمنون .

ويشكل المسلمون والذميون رعايا او مواطنى الدولة الاسلامية لأنهم يقيمون فيها اقامة دائمة . أما المستأمنون فهم الاجانب . لأنهم يدخلون دار الاسلام لأمد محدود . وقبل ان نفصل القول فى أحوال هذه الأنواع من الناس وحقوقهم وواجباتهم لابد من الاشارة الى أن الدولة تمارس سيادتها عادة على المواطنين جميعا ، على جميع الذين يقيمون فى نطاق حدودها ، ولا يصح أن يستثنى فرد ، أو طائفة من القانون السائد والتشريع المطبق ، والا عد ذلك تمييزا بين الناس وانتقاصا من سيادة الدولة . واذا اخذت الدولة بعين الاعتبار اختلافا لأديان السكان وجنسياتهم فلا يصح أن يصبح ذلك امتيازا لهؤلاء الأفراد أو الطوائف لأنه منقصة لسيادة الدولة .

المسلمون :

المسلمون فى الدولة الاسلامية هم الذين يؤمنون بالاسلام دينا ونظاما فهم يرتبطون بالدولة ارتباط وطنية وعقيدة . والمسلم رعية اسلامية أيا كان موطنه لا يصح أن توضع امامه الحواجز والحدود بل يباح له التنقل والعمل فى جميع اقطار المسلمين ، والمسلم يرث المسلم أيا كان موطنه كما أنه يعاقب بعقاب الاسلام اذا ارتكب جريمة فى غير دار الاسلام ودار الاسلام تعتبر وطن المسلمين جميعا .

الذميون :

وهم الذين يقيمون بين المسلمين اقامة دائمة بموجب عقد الذمة ، فهم رعوية اسلامية أو مواطنون ، واذا كان ارتباط

المسلمين بالدولة ارتباط جنسية ودين فان ارتباط الذميين قاصـــر على الوطنية والجنسية . والذميون هم أولئك الذين كانوا من سكان البلاد التى فتحها المسلمون وفضلوا البقاء فيها فدخلوا فى ذمة المسلمين واذا دخل المواطن فى ذمة المسلمين فقد التزم بتكليف مالى بسـيط لقاء حماية المسلمين له والتزم أيضا بأن يطبق أحكام المعـــاملات المالية والعقوبات التى تضعها الدولة ويعفى من الخضوع للقـــانون العام فيما يتعلق بالحقوق الشخصية (الزواج والطلاق) والميراث لأنها تتعلق بأمور دينه ولا يصح أن يجبر عليها .

وقد كان وضـــع الذميين فى الدولة مجـــالا لبحوث كثيرة وافتراءات ودس على الاسلام والمسلمين واكثر ما تنصب افتراءاتهم على واجب دفع الجزية الذى يرتبه عقد الذمة على الذمى فما هى حقيقة هذه الأقوال ؟

بديا لابد من ان نشير الى أن خصوم الاسلام يتبعون القـاعدة المعروفة : الهجوم افضل وسيلة للدفاع فهم حين يتهمون باســـتعمال السيف والعدوان على الأمم فانهم يوجهون التهمة الى الاســـلام فيقولون انه دين سيف حتى يشغل المسلمون عنهم بالدفاع عن انفسهم، وحين يتهمون بانهم اساؤا الى المسـلمين الذين يعيشـــون فى كنفهم واضطهدوهم يوجهون الى المسلمين تهمة التعصب واحتقار غير المسلمين ويضربون على ذلك مثـلا بالجزية . فما هو القول الحق فى هـذا المجـال ؟

لقد قال الله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون) (١٣٦) .

والمقصود بعبـــارة (عن يـد) أى عن ســـعة فلا يكلف من لا يستطيع دفعها من الأولاد والنساء والشيوخ . اما عبارة (وهـــم صاغرون) فيقصد منها اعلان الطـاعة للدولة الاســـلامية والالتزام بقوانينهـــا .

ولقد سبق القول بأن الجزية فرضت بديل حماية المسلمين لهـم

---

(١٣٦) التوبة : ٢٩ .

والمحافظة عليهم واعفائهم من القيام بواجب الدفاع عن كيان الدولة وحماية المواطنين وكان المسلمون يردون لهم هذا المبلغ حين لا يستطيعون حمايتهم ، حدث ذلك كثيرا فى تاريخ المسلمين فقد حصل مثلا أن أمر ابو عبيد برد اموال الجزية لجميع مدن الشام حين علم ان الروم حشدوا جيوشهم على حدود الدولة الاسلامية فى الشمال وذلك لأنه خشى أن لا يستطيع الدفاع عنها وفى كتابه لأمراء الاجناد لتنفيذ هذا الأمر طلب اليهم ان يقولوا لهم : انما رددنا عليكم اموالكم لانا قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ونحن لا نقدر على ذلك وقد ردوا عليهم اموالهم بالفعل وكان من نتيجة ذلك موقف رائع يذكره التاريخ فقد قال لهم اهل هذه المدن من الذميين ردكم الله علينا ونصركم عليهم (الروم وهم على دينهم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا واخذوا كل شىء بقى لنا . كما حصل أن رد صلاح الدين الجزية الى نصارى الشام حين اضطر الى الانسان منها وتكرر نفس الفرح الذى ظهر لدى الذميين أيام أبى عبيدة حين انتصر صلاح الدين وعلق توماس ارنولد على ذلك فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) بقوله : (لقد سكنوا الى الحكم الاسلامى وادعين مستبشرين كما استمر الحكام على عادتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى) واذا فان الجزية ثمن الحماية وهى لا تعادل الا مقدارا بسيطا مما كان يدفعه المسلم من تكاليف مالية كالزكاة والعشور وغير ذلك واخيرا فان الجزية ليست من مبدعات الاسلام وانما هى نوع من المعاملة بالمثل فقد كانت موجودة لدى الأمم السابقة كاليونان والرومان والفرس وحين طبقها الاسلام طبقها على صورة لم يعهدها مجتمع من السماحة والعدل ومراعاة الظروف والأحوال .

وقد حفظ الاسلام للذميين حريتهم فى ممارسة عباداتهم وعقائدهم وسمح لهم بأن يتمتعوا بكل ما يتمتع به المسلمون من حقوق التجارة والكسب والعمل والتنقل (١٣٧) حتى أنهم ليتمتعون بكثير مما

---

(١٣٧) جاء فى عهد الأمان لمصر على لسان عمرو بن العاص انه اعطاهم الامان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ ما منه أو يخرج من سلطاننا ومن بقى فلا يمنع من تجارة صادرة أو واردة .الخ.

لا يحق للمسلم ان يتمتع به فهناك عدد من الفقهاء يبيحون للنصارى ما هو غير محرم عليهم فى دينهم من المأكل والمشرب مما لا يبـــاح للمسلم ان يتعاطاه ٠

واوجب الاســـلام حماية الذمى فدمه وماله مصـــونان وحريته وكرامته محترمتان وقد اكد الرسول على هذا فى احاديث عدة منهـا (من أذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة) ٠

كما كان الخليفة عمر يسأل عماله اول ما يسألهم عن احـــوال اهـل الذمـة ٠

ولعلنا نذكر جميعا كيف امر بضرب ابن والى مصر عمرو بن العاص لأنه أساء الى ذمى ، ثم قال قولته الخالدة (متى اســـتعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) ٠

وبلغ من رعاية الدولة الاسلامية بأهل الذمة انها كانت تفـرض لهم من بيت مال المسـلمين اذا كانوا فى حالة لا يكتسبون بها وكان هذا يدخل فى عهد الذمة احيانا ، فقد جاء فى عهد خالد لأهل الحيرة : وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل او اصابته آفة من الآفات او كان غنيا فافتقر و صار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيـل من بيت مال المسلمين هو وعياله واقاموا بدار الاسلام ٠

وأحسب اننا نكتفى بما ذكرناه حول هـــذا الموضوع لأننـــا لا نستطيع الاحاطة به فى هذه العجالة وهو صفحة مشرقة من صفحات الاسلام الوضاءة المشرقة ٠

اما المستامنون (الأجانب) :

وهم الأشخاص الذين يدخلون الديار الاسلامية لمدة محـــــدودة وليس بنية الواحد منهم الا قامة الدائمة فاذا دامت اقامته عومل معاملة اهل الذمة والاسلام أول من يعترف بحقوق الأجانب (المستأمنين) ولم تصل الانسانية الى اقرار هذه الحقوق فى ظل القوانين الوضعية حتى فى القرن العشرين لأن هذه لم تصل فى رقيهـا وتطبيقهـــا الى ما وصل اليه الاســـلام فللأجنبى حق الاقامة والانتقـــال فى الدولة

الاسلامية وله ان يمارس التجارة والعمل وأن يتمتع بالمرافق العــامة الضرورية كل ذلك ضمن حدود نظام الدولة وقوانينها وهــو لا يلتزم الا بالخضوع للأحكام المتعلقة بالأمن والنظام واحترام عقائد المسلمين وتقاليدهم والامتناع عن كل ما يشعر باهانة المسلمين .

وقد رتب الفقهاء على تقرير المستأمنين عدة أمور منها :

- ان ملكية المستامن الذى اكتسبه فى دار الاسلام لا تزول ولو عاد الى دار الحرب بل ولو حمل السلاح على المسلمين .

- وأن ماله يرسل الى ورثته اذا مات فى دار الاسلام كما ان ملكيته لماله تنتقل الى ورثته اذا مات فى دار الحرب او اثناء اشــتراكه فى حرب المسلمين مع جيش دولته .

ولا تزول ملكيته لماله الا فى حالة اشتراكه فى حرب المســلمين وأسره واسترقاقه من قبلهم .

- اما العقوبات فان ما يتعلق بحقوق العباد فانه يطبق عليه ، اما ما يتعلق بالاعتداء على حقوق الله تعــالى فان الجمهور على عقابه وخالف فى ذلك ابو حنيفة .

واللــه اعلــم ،،،

النظام الاقتصادى فى الاسلام

ذكرنا أن الاسلام نظام شامل للحياة وتاكيدا لهذا المعنى فقـــد عرضنا لنظام الاسرة ولنظام الحكم فى الاسلام والعلاقات الدوليـــة وحقـــوق المواطنين والأجانب ، ونحن هنــــا نشـــــير الى بعض المبادىء التى يقوم عليها الاسلام من الناحية الاقتصــــادية والنظرة العامة التى ينظر بها حقيقة نشاط الانسان فى سعيه لضمان حاجاته المــادية .

ونعنى بالتنظيم الاقتصادى شكل النشاط الانسانى فى الحصول على حاجاته الضرورية والكمالية وعناصر الانتاج والتداول والتوزيــع وحقوق الأفراد الاقتصادية وحدود مصلحتهم تجاه مصلحة الجماعة .

ولابد من أن نلاحظ فى هذا الخصوص مالاحظناه فى بدايـة حديثنا عن التنظيم السياسى الاسلامى من أن اسس هذا النظـــــام الاقتصادى تختلف عن سائر النظم الاقتصادية الأخرى ان هذا النظام مستقل ومتميز ، ولئن التقى مع هذا النظام أو ذاك فى بعض مبادئه فليس معنى هذا أنه اخذ من هذا النظام أو ذاك أو انه يتطابق مـــع هــذه الأنظمة تطابقا كاملا .

واذا كانت الأنظمة الاقتصادية المعاصرة تتجه وجهتين رئيسيتين احداهما : وجهة الاقتصاد الحر والأخرى وجهة الاقتصاد الاشـــتراكى واذا كان الاقتصاد الحر يعتمد أساسا على المصلحة الشخصية والحرية الفردية فى التملك وتنمية الملكية متحاشــــيا تدخل الدولة واذا كان الاقتصاد الاشتراكى يعتمد بالعكس من ذلك على تغليب مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد ويجعل الدولة مالكة كل شىء وموجهة للاقتصاد كله فان النظام الاسلامى يقوم على تحقيق المصلحتين معا ، مصلحة الفــرد ومصلحة الجماعة ، فهو يحد من حرية الأفراد الاقتصادية بالمقدار الذى يؤمن مصلحة الجماعة فهو نظام وسط فى تحقيق التوازن بين الطبقات والأفــــراد .

هدف الاقتصاد الاسلامى ووسائله :

واذا كان النظام السياسى فى الاسلام يهدف الى تحقيق العدالة بين الناس وتأمين المساواة فى الحقوق والواجبات فان النظـــام الاقتصادى يهدف الى تحقيق العدالة الاجتماعية اى تأمين حد مادى ادنى لكل انسان يتناسب مع كرامته وينسجم مع الوثبة العالية التى ارادها الله له ، ويحقق تكافؤ الفرص على صورة يحصـل فيهـــا كل امرىء على حاجاته دون ان يبذل شيئا من كرامته وانسانيته .

ويحرص الاسلام لتحقيق هذا الهدف على ان يوفر الجو الصالح الذى تعمل فيه طاقات الانسان كلها كما تحقق الفطرة البشرية السليمة آمالها ، ولا ينسى وهو يعالج مشكلات الانسان الجزئية العمل من اجل الغايات البعيدة للحياة .

وهو يعتمد من اجل ذلك كله على وسيلتين اساسيتين هما : التشريع والتوجيـــه ، والملاحظ ان معظم الانظمة الاقتصـــادية والاجتماعية لا تقر الا التشريع وسيلة لاهدافها ، اما الاسلام فانه فى الوقت الذى يهتم فيه بتقنين الاهداف العملية التى تحقق مجتمعـــا كاملا فانه لا ينسى التوجيه الذى يتسامى الانسان بواســطته على الضرورات المادية ويتطلع الى حياة ارفع .

ولعلنا ناخذ مثالا على ذلك وهو تشريع نظام الزكاة الذى يعتبر اساسا للتضامن الاجتماعى فقد دعا الاسلام الى تطبيقه والحـــرب دونه وفى الوقت نفسه فانه حرض المسلمين على التصـــدق بالمـــال كأمر اضافى يحقق فيه الانســـان تســـاميه وعلوه على الحـــرص على المـــال .

وكما ان الاسلام بمبادئه عامة كان تغييرا شاملا لحياة الجاهلية فان نظامه الاقتصادى كان انقلابا على الاوضاع الاقتصادية الباليـــة وقد كان من نتيجة هذا التغيير ان اصبح الفقير هو المستفيد من المال والغنى هو الذى يدفع وكان الشـــعب سابقا يتعرض لشـــتى انواع السخرة ويقوم بمعظم الواجبات ، كما اصبحت الحكومة فى جانب التكافل والعدالة الاجتمـاعية وكانت ضد الشعب ومـع الطبقـــات المستفيدة غالبا ، ولعل فى حروب الردة اول حروب يخوضـــــها المسلمون بعد وفاة الرسول ابلغ دليل على ما نقول لانها كانت حربـا

من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية وتأمين نصابها ، وأخيرا فقد انفك التلازم الذى كان قائما بين الحكم والغنى فقد اصبح الحاكم هو الذى يكون اكثر حرصا على مصلحة الناس واقامة الحق وكان سابقا الأكثر قوة ومالا .

هذا : ولما كنا لا نستطيع ان نلم بمختلف أجزاء التنظيم الاقتصادى فى هذه العجالة فانا سنكتفى بأن نعرض لبعض موضوعاته الرئيسية وهى :

١ ـ موقف الاسلام من الملكية .

٢ ـ القيود الموضوعة على الملكية ووسائل تنميتها .

٣ ـ الفائدة .

٤ ـ البنوك .

٥ ـ التكافل الاجتماعى والزكاة .

١ ـ موقف الاسلام من الملكية :

تختلف الأنظمة الاقتصادية من حيث نظرتها الى الملكية فبعضها يسمح بالملكية بشتى انواعها الفردية والجمعية والعامة والخاصة وبعضها لا يسمح الا بملكية الجماعة وخاصة ملكية الانتاج .

أما الاسلام فانه يقر حق التملك الفردى على ان يبقى منسجما مع مصلحة الجماعة محققا لأهدافها متفقا مع نظرة الاسلام الاقتصادية التى تقوم على تحقيق مصلحة الفرد والمجموع .

وهكذا نستطيع ان نقول بأن الملكية الخاصة فى الاسلام تؤدى وظيفة اجتماعية .

وقد ورد فى القرآن الكريم آيات تنسب المال الى الله كما ورد فيه آيات تنسبه الى الانسان ، من هذه الآيات قوله تعالى : « وأتوهم من مال الله الذى آتاكم » (١٣٨) وقوله : (وانفقوا مما جعلكم

---

(١٣٨) سورة النور : ٣٣ .

مستخلفين فيه) (١٣٩) وقوله : (انما أموالكم اولادكم فتنة) (١٤٠)، وقوله : (والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار) (١٤١) .

ولا شك أن القصد من نسبة المال الى الله هو اتاحة الحق للجماعة أو ممثليها فى أن يشرفوا على تنظيم الانتفاع بالمال فلا يكون هناك اساءة استعمال أو سوء تصرف تضيع معه مصلحة الجماعة الاسلامية .

لقد جاء تقرير الاسلام لحق الملكية الفردية متمشيا مع طبيعة الانسان وفطرته ، لأن الانسان لا يعمل الا اذا وجد الحافز على العمل ، ولا شك أن تملك الانسان ثمرة عمله يعد من أهم حوافز النشاط البشرى ، ونحن نلاحظ أن الدول التى لا تسمح الا بالملكية للدولة تبحث مجهدة عن الحوافز الفردية لتشجيع الانتاج حتى سمحت أخيراً بما لم تسمح به من قبل من أن أنواع الملكية الفردية ، وقد عبر القرآن عن الطبيعة الانسانية فى حب المال والتملك بقوله : (وانه لحب الخير لشديد) (وتحبون المال حبا جما) (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) .

أما دلائل اثبات الملكية الفردية فاننا نجدها فى الآيات القرآنية التى نسبت المال الى الانسان كما نجدها فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وما جرى عليه العمل لدى المسلمين هذه القرون الطويلة) (١٤٢) .

---

(١٣٩) سورة الحديد : ٧ .

(١٤٠) سورة التغابن : ١٥ .

(١٤١) سورة البقرة : ٢٧٤ .

(١٤٢) من هذه الأحاديث قوله عليه السلام « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ومنها وصية الرسول لمعاذ بن جبل حين أرسله الى اليمن « فان هم أطاعوا لك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم أموالهم » .

بل ان الاســـلام لا يرى مانعـا من التفـــاوت فى الملكية مادام صاحب المال يؤدى حقه وعلى أن لا يؤدؤى ذلك الى وجود دولة بين الأغنياء ، والدليل على ذلك قوله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) (١٤٣) (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) (١٤٤) (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فـوق بعض درجات) (١٤٥) .

والواقع ان هناك اسبابا كثيرة للتفـــاوت بين النـــاس منهـــا ما يرجع الى خلقة الفرد وذكائه وطاقاته وعمله ، فمن غير المعقـول أن يتساوى الذكى العالم بالغبى الجاهل او الكسول العاطل بالمجـد العامل ، لذا فاننا لا نجد مجتمعا يخلو من اقرار نوع من التفـــاوت بين أفراده .

الا انه ليس معنى اقرار الاسلام للملكية الفردية وللتفاوت فيهـا انه يسمح بوجود فقر مدقع وغنى متخم ، وانما نعنى أن الاســـلام لا يسمح للدولة بالتدخل فى الملكية الفردية الا اذا تعارضت مع الصالح العام ويكون التدخل حينئذ بالتوفيق بينها وبين المصلحة العامة التى تعد من أسس التشريع الاسلامى وفى الحدود اللازمة لتنظيم ممارسة هذه الملكية ولابد من أن نشير الى ان الذى يؤدى الى الظلم الاجتماعى ليس مجرد اقرار الملكية الفردية وانما هو سوء استعمالها .

واذا كان الاسلام يقر الملكية الفردية فانه يقر جميع الحقـوق ، التابعة لها على أن لا يؤدى ذلك الى الاضرار بالآخرين ، وهكذا فان للمالك ان يتصرف بملكه بيعا أو هبة أو ايجارا مادام تصرفه مشروعا ، كما ان له أن يوصى بما يريد منه ضمن الحدود القانونية المشروعـة واذا مات فانه ينتقل الى ورثته من بعده وهكذا .

القيود على الملكية ووسائل تنميتها :

ان المال فى النظرية الاقتصادية الاسلامية مال الله فى الاساس

---

(١٤٣) سورة النحل : ٧١ .
(١٤٤) سورة الرعـد : ٢٦ .
(١٤٥) سورة الزخرف : ٣٢ .

والانسان مستخلف فيه أو وكيل عليه وان على الوكيل ان يؤدى شروط الوكالة فلا يخرج عليهـــا ومعنى ذلك ان تصرفه يجب ان يكـون فى الحدود التى وضعها الاسلام .

وقد وضع الاسلام على حق التملك ذاته قيودا مختلفة كما وضع قيودا على وسائل تنمية الملكية ، واقر فى المال الفردى حقا للجماعة الاسلامية فيــه .

ومن القيود على التملك :

١ - أن يكون التملك بوسائل مشروعة .

٢ - أن لا يكنز المال لأن الكنز تعطيل للمال عن اداء وظيفتــه فى خدمة الفرد والجماعة .

٣ - ان يستعمل فى الحـــدود المعقولة فلا يكون فيــه اســـراف ولا بخـــل (ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين) (والــذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .

ويمكن ان يمنع المسرف من استعمال امواله فتوضع فى يد وصى يصرف عليه باحسان وذلك لما يسببه الاسراف من أمراض خبيثة فى المجتمع الاسلامى المتعاون .

٤ - لا يصح أن يبقى المال محبوســـا فى ايــدى فئة قليلة من الناس تتداوله فيما بينها وذلك لقوله تعالى : (ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) .

وسبب نزول هذه الآية أن الرسول عندما افاء الله عليه اموال يهود بنى النضير لم يقسمهـــا على المسلمين جميعا بل وزعهـــا على المهاجرين فقط ولم يعط منها الا انصاريين فقيرين وذلك لأن احوال الأنصار المادية كانت مستقرة ورائجة على عكس احوال المهــاجرين الذين تركوا اموالهم فى مكة ، وكان توزيعه ﷺ لهذه الأموال بتوجيه قــرآنى كريم .

٥ - هذا بالاضافة الى أن الملكيات التى تتعلق بهـــا مصـــالح

جمهرة المسلمين جعلها الاسلام ملكيات جماعية او تشرف عليها الدولة على الأقل وذلك كالماء والكلأ والنار التى يشملها حديث الرسول ﷺ والذى يمكن ان يقاس عليه بملكيات اخرى .

اما عن وسائل تنمية الملكية فان الاسلام يعطى الحـــرية فى تنمية المال فى الحدود المشروعة ، والوسائل النظيفة عادة لا تضـخم رؤوس الأموال تضخما فاحشا .

ومن الوسائل المحرمة فى الاسلام :

١ ـ الغش : وذلك لما فيه من غبن وخروج على معنى التعـاون والأخوة الاسلامية يقول الرسول عليه السلام : (من غشنا فليس منا) ويقول : (انه لا يربو لحم ينبت من سحت الا كانت النار اولى به) .

٢ ـ احتكار ضروريات الناس : لما يؤدى اليـه من اســتغلال لحاجتهم وربح خاص على حسابهم يقول الرسول : (من احتكــر طعاما اربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه) .

٣ ـ الربا : وذلك لأنه بلا جهد ولأنه يقضى على روح التعاون ويؤدى الى تضخم الثروات وزيادة الفـروق بين الطبقـــات وكثيرا ما كان اقتراض الدول وسيلة للاستعمار وفقدان الاستقلال الوطنى .

واخيرا ، فان الملكية الفردية هى لمنفعة الفرد مباشرة ولمنفعـة الجماعة بصورة غير مباشرة ، فاذا عطل المالك الانتفاع بملكيته جاز للدولة ان تلزمه بذلك وقد وردت أحاديث متعددة فى انه لا يجـوز ان تتعطل الأرض عن الانتاج اكثر من ثلاث سنوات .

الفـائدة والبنـوك :

واحب ان اشير الى اننا قد افردنا موضوع الفائدة وما يتبعهـا من دراسة اوضـــاع المؤسسات المصرفية ببحث خاص لأهمية هـــذه الدراسة فى حياتنا المعاصرة ولكثرة ما يتردد من اقوال حول الفائدة : تحليلها وتحريمها ، والبنوك ، والبديل الاسلامى عنها اذا كانت مرفوضة فى ظل النظام الاسلامى ما بقيت على اساسها الربوى .

ان الربا هو الربح للمال المقرض للغير وهو ربح بلا جهد لأن

المرابى يقرض المال ويأخذ عليه نسبة معينة وهكذا يربو المال ويزيد دون أى جهد يبذله المقرض لانه يأخذ ربحا باستمرار ولا يشارك فى المخاطرة والخسائر التى يتعرض لها المال المقرض .

وقد ذكر بعض المفكرين فى بلاد اسلامية مختلفة ان الربا المحرم فى الاسلام هو الربا المضاعف والمركب دون البسيط ، والاستهلاكى دون الانتاجى ، وقبل ان نحدد ما نرى انه موقف الاسلام الصحيح يحسن بنا ان نعطى فكرة عن أنواع الربا المختلفة .

أنواع الربا المختلفة :

ان الربا الاستهلاكى : هو الربح الذى يؤخذ عن المال الذى يقترض لاشباع حاجة استهكية كأن يستدين امرؤ ما مبلغا من المال لانفاقه على ولده المريض او لدفع اقساط ابنائه فى المدرسة .

اما الربا الانتاجى : فانه الربح الذى يتناوله المرابى عن ماله الذى يقرضه فى عمليات انتاجية كأن يقرضه لصاحب مصنع ليوسع مصنعه أو لصاحب أرض زراعية ليزيد فى قدرتها الانتاجية او لمؤسسة تجارية لتنمى من اعمالها .

والربا البسيط : قد يقصد به الربا القليل بأن تكون نسبته غير فاحشة كما يراد به الفائدة التى تؤخذ على اصل المال فقط .

أما الربا المضاعف : فقد نعنى به الربح الفاحش الذى يتضاعف فيه المال فى مدة بسيطة كما نعنى به الربا الذى يؤخذ على المال مع ربحه وهذا ما يطلق عليه اسم الفائدة المركبة .

وقد زعم بعض الكتاب ان ما حرمه الاسلام من انواع الربا هو الاستهلاكى والمضاعف كما سبق ان ذكرنا لان الاستغلال فيهما واضح فهو عمل لا اخلاقى لانه يستغل حاجة الناس الى المصالح الضرورية التى لا غنى عنها بالاضافة الى ما ينتجه الربا المضاعف من آثار اقتصادية واجتماعية سيئة ، وحجة هؤلاء ، ان الربا الاستهلاكى هو الذى كان معروفا أيام بعثة الرسول عليه السلام ونزول القرآن وان الربا الانتاجى لم يعرف الا مؤخرا لذا فان التحريم لم يقع الا على الأول ، أما عن تحريم الربا الفاحش أو المضاعف فقط دون البسيط

فانهم يحتجون له بأن القرآن حرم هذا النوع مخصصا له بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة) ٠

ويرد على هؤلاء من عدة وجوه :

١ — من حيث النصوص : حين نستعرض النصوص التى بين أيدينا حول الربا نجد ان الآيات القرآنية والاحاديث تتضافر على تحريم الربا بأنواعه جميعا دون أن تخص نوعا دون آخر ٠

فالله تعالى يقول : (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا) (١٤٦) ٠

ويقول أيضا : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) (١٤٧) ٠

كما يقول : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) (١٤٨) ٠

والرسول الكريم يقول : (كل قرض جر نفعا فهو ربا) وواضح من هذه النصوص ان التحريم يقع على الربا كله مهما كان نوعه وان تخصيص الربا المضاعف فى احدى الآيات ليس الا للتأكيد عليه لما فيه من استغلال فاضح ولا أخلاقى ٠

٢ — اما من الناحية التاريخية التى يحتج بها البعض فالذى كان هو عكس ما يقولونه ، فنحن ندعى ان معظم القروض الربوية التى كانت سائدة عند العرب فى الجاهلية هى من النوع الانتاجى ، فالمعروف عن العرب فى مكة قبل الاسلام انهم كانوا يقومون بالأعمال

---

(١٤٦) سورة البقرة : ٢٧٥ ٠

(١٤٧) سورة البقرة : ٢٧٦ ٠

(١٤٨) سورة آل عمران : ١٣٠ ٠

التجارية ويسهلون نقل البضائع من والى الشام والحجاز واليمن وفارس . والأعمال التجارية تحتاج الى أموال كثيرة فكان التجـــار يعملون بأموالهم وأموال غيرهم ، وغالبا ما كانوا يعطون من يقرضهم نسبة ثابتة من الربح ، ثم أن أهل الطائف كانوا يعملون فى الزراعة وكانوا يقترضون لذلك من أصحاب الأموال فى مكة ومن الجـــالية اليهودية التى تسكن الطائف آنذاك ، وكانوا يردون هذه الأموال بعد جنى محاصيلهم مع نسبة من الربح ، وهكذا فقد كانت القروض الانتاجيـــة معروفة ومنتشرة لدى العرب ، ثم اننا نتساءل هل كان العربى فى الجاهلية يحتاج الى قروض استهلاكية اى قروض ينفقها على طعامه وطعام عياله ، ان الاقتراض من اجل الاستهلاك لا يعقل اطلاقا فى بيئة قبيلة ذات مطالب بسيطة ومحـــدودة ، واذن فالربا الذى كان منتشرا آنذاك هو الانتاجى اكثر من الاستهلاكى وقد ورد التحريم عليهمـــا معـــا .

٣ - يضاف الى ذلك أن النظام الاقتصادى الاسلامى جاء نظاما فريدا متميزا ومن جملة ما يتميز به انه لم يقر التعاملات الربوية سواء فى دائرة الانتاج او فى مجال الاستهلاك .

واذا حاولنا التعرف على حكمة تحريم الربا فى الاســـلام فان هذه الحكمة تبدو واضحة فى منع الربا الاســـتهلاكى لأنـــه استغلال لا انسانى لحاجة الانسان الى أسباب معاشـــه الضرورية وهـــو يهدر كثيرا من المعانى الأخلاقية كما يقضى على كثير من مقومات المجتمع المتماسك المتعـــاون .

اما حكمة تحريم الربا على القروض الانتاجية فعلنا لم نستطع أن نكشفهـــا كلها الا انه يمـــكن ان نعرض لبعض ما تثبته الوقائع والمشاهدات من الآثار السيئة التى تخلفت عنه .

هذه الآثار يمكن ملاحظتها بالنسبة للمرابى ، وبالنسبة لكل من المنتج والمستهلك . لقد ترتب على ظهور القروض الربوية الانتاجية فى القرون الثلاثة الأخيرة أن ظهرت المؤسسات المصرفية (البنوك) واتسعت ، والملاحظة ان هذه المؤسسات لا تعمل بمال أصـــحابها فقط وانما تعمل بأموال المودعين ايضا وكثيرا ما يكون رأســـمال هـــذه البنوك صغيرا جدا فى بدء تأسيسها ولكنها سرعان ما تمتلىء بأموال المودعين ، وربح البنك من هذه الأموال كبير فهو يعطى المودعين

من الربح نسبة تقل كثيرا عن النسبة التى يقرض بها هذه الأموال وهكذا يتضاعف ربح البنك وماله على حساب أموال المودعين ، نضيف الى هذا ملاحظة هامة وهى أن البنوك فى العالم تميل الى التمركز وهكذا وجدت بنوك قليلة استطاعت بامكانياتها أن تسيطر على الأسواق المصرفية فى العالم عن طريق هذه السيطرة أمكن لهـا أن توجد السياسة والاقتصاد وأن تتدخل فى كثير من الأمور ، وقد يكون معظم رجال هذه البنوك الضخمة من اليهود .

أما بالنسبة الى المنتج فانه حين يقترض بفائدة فانه لابد أن يضيفها على مجموع تكاليف السلعة ليرفع سعرها وهكذا فانه اذا استدان بفائدة قدرها ١٠٪ فانه سيرفع سعر البضاعة بمقدار الفائدة على الأقل وسيدفع المستهلك هذه الفائدة .

واذا حدث أن زاد الانتاج نتيجة لسهولة القروض الانتاجية عن حاجة السوق فسيكون هناك فائض فى البضاعة أى سيحصل كساد تتولد من نتيجته أزمة اقتصادية مما يدفع المنتج الى ايقاف التوسع فى الانتاج والتقليل من مصاريفه ، وعند ذلك يعمد الى تسريح العمال فتحصل البطالة ، أو الى تخفيض الأجور ، وفى كلتا الحالتين فان الذى يتحمل آثار هذه الأزمة هى الطبقة العاملة والمتوسطة فتخفض القوة الشرائية وتزداد الأزمة الاقتصادية تحكما .

وقد يعمد المنتج الى تخفيض أسعار المواد الأولية ، وغالبـا ما ترد هذه المواد من البلاد النامية التى تبدأ تطورها الاقتصادى من أوله والتى تعتمد على مواردها من هذه المواد لبناء كيانها الاقتصادى .

وهكذا تشير الوقائع كلها الى كثير من الآثار السيئة التى تترتب على القروض الربوية الانتاجية .

وهنا قد يسأل سائل ، اذا كان الاسلام قد حرم الربا بكل أنواعه تحريما قاطعا فهل اوجد بديلا من النظام الربوى ، وما هو هذا البديل سواء فى الأمور الاستهلاكية أو ميدان الانتاج ؟ وهذا ما سنعرض له بعد أن نقدم له بالقاء نظرة سريعة وموجزة عن البنوك ووظائفها وأعمالها .

يعرف البنك بأنه جهاز يتولى تقديم الائتمان لعملائه ويتلقى

الودائع النقدية منهم وتلعب البنوك فى حياتنا المعاصرة دورا هاما لأنها تقوم بعدة وظائف اهمها :

- تيسير التبادل .
- تيسير الانتاج .
- تعزيز طاقة رأس المال .

لذا فقد اصبحت عند معظم رجال الاقتصاد مؤسسات لابد منها وخاصة فى الدول التى يقوم كيانها على الاقتصاد الحر لأن معظم العمليات الانتاجية فى هذه الدول تعتمد على الأفراد والمؤسسات الخاصة على عكس النظم الشيوعية والاشتراكية التى تقوم فيها الدولة بجميع أعمال الانتاج .

والأمر الهام الذى تقوم به البنوك فى مجال تيسير التبادل انها تفسح المجال لاختصار تبادل النقود عن طريق وعد بدفع الثمن للسلعة أو الخدمة ، والوعد بالدفع يتخذ صورا متعددة هى :

١ - الشيك : الذى يصدره العميل الى مصرفه يأمره فيه بدفع مبلغ من المال الى شخص معين أو لحامله .

٢ - فتح الاعتماد من البنك الى احد عملائه فيتعهد البنك بجعل مبلغ معين تحت تصرف عميل لمدة معينة يسحب تباعا ، وهذه صورة من صور الاقراض تفرض على البنوك فائدة ربوية .

٣ - خطاب الاعتماد الذى يوجهه مصرف العميل الى فرعه فى دولة اخرى او مصرف آخر بدفع المبلغ المطلوب الى العميل والمصرف يتقاضى عن هذا العمل عادة عمولة بسيطة ولا يأخذ فائدة ربوية على هذه الخدمة .

٤ - السند الاذنى وهو التزام يتعهد فيه شخص معين (المحرر) بدفع مبلغ معين فى تاريخ معين لشخص آخر او لاذنه (المستفيد) ويستطيع ان يصرف قيمة السند من البنك فورا قبل حلول تاريخ السند مقابل فائدة ربوية يخصمها البنك أجر انتظاره حتى حلول الأجل .

٥ - الكمبيالة : وهى أمر مكتوب يتوجه به شخص يسمى الساحب

الى شخص آخر يسمى المسحوب عليه يأمره فيه بدفع مبلغ معين لاذن شخص آخر (المستفيد) ويستطيع المستفيد بعد أن تظهر الكمبيالة من المسحوب عليه أن يصرفها من البنك بعد خصم فائدة ربوية مقابل الانتظار حتى حلول الأجل .

والملاحظ أن الربا غير موجود فى عمليتى الشيك وخطاب الاعتماد بينما هو واضح فى سائر العمليات الأخرى .

أما عملية تيسير الانتاج فان البنك لا يقوم بها الا بقروض ربوية ولا شك أن الخدمات التى تقدمها البنوك فى هذا الميدان لها أثرها فى تنشيط الانتاج ولكنها قد تؤدى الى نتائج معاكسة اذا فتح باب القروض على مصراعيه .

ويلحق بهذه الوظيفة مساهمة البنوك فى تعزيز طاقة رأس المال المستعمل فى الانتاج والمساعدة على تخصصه وتركيز بعض انواع الانتاج مما يساهم فى تقليل التكاليف فى الانتاج وتقليل التكاليف على المنتج .

وقبل ان نبدأ تفصيلنا للبديل الاسلامى للبنوك لابد من الاشـارة الى بعض المساوىء التى تحدثها هذه المؤسسات الربوية فى الاقتصاد .

ان البنك يقرض من ودائعه غالبا لأن رأس المال الذى ساهم بـه المؤسسون ضئيل بالنسبة لمجموع الودائع ، فالبنك يستفيد من هذه الودائع كما ذكرنا دون أن يتحمل المخاطر لأنه يأخذ نسبة من الربح لابد أن تدفع له سواء خسر المشروع أم ربح ، وقد أدى تعود الناس على ايداع فائض اموالهم فى البنوك واصدار البنوك للقروض الربويـة باضعاف ما لديها الى خلق قوة شرائية وهمية أو نقود مصطنعة لأن أوراقها المالية تستعمل كما تستعمل النقود تماما فكأننا أعطينا البنوك الحق فى اصدار العملة الى جانب الدولة .

ان مثل هذه الوظيفة على ما لها من اثر فى تيسير الانتاج الا انها تؤدى الى أضرار محققة من أهمها :

ما تصيبه البنوك من اغتناء غير مشروع بسبب حصولها المحتوم على فوائدها المقررة من المقترضين واجتنابها المساهمة فى مخاطر مشروعاتهم ، وميلها فى أوقات الركود الى التضييق فى الاقراض أو الكف عنه ، فهذا البسط والقبض الذى لا تتحكم فيه الا ارادة القائمين

على البنوك من أهم عوامل اضطراب الكيان الاقتصـــادى وحدوث الأزمات ٠

ويمكن ان نقدم أساسا اسلاميا للبنوك بتجنب المعاملات الربوية ويؤدى ما تؤديه البنوك أحيانا من تيسير الحركة الاقتصادية والمساهمة فى بناء كيان الدولة الاقتصادى ٠

اذ لاحظنا أن البنوك تتوزع فى نوعين رئيسيين : بنوك الودائع وبنوك الانتاج الطويل الأمد كالانتــاج الصناعى فاننا يمكن ان نقيم بنوك الودائع على عقد المضاربة ، بينما نؤسس بنوك صناعية على عقد شركة الأموال وكلا العقدين تجيزه الشريعة الاسلامية وتنظمــه تنظيما يهيىء لنا بلوغ هدفنا من المؤسسات المصرية ٠

أما عقد المضاربة فان أهم أحكامه :

١ ــ انه عقد يقوم بين طرفين احدهما يدفع المال والآخر يقوم بالعمل ويسمى المضارب ٠

٢ ــ ان المتعاقدين يقتسمان الربح بالنسبة التى يتفقان عليها بشرط أن تكون حصة كل منهما فى الربح جزءا شائعا كالنصف أو الربع ... الخ ٠

٣ ــ اذا اشترط لأحد الطرفين مقدار معين من الربح فســدت المضاربة لاحتمال أن الربح للاثنين لا يأتى زائدا على هذا المقدار ٠

٤ ــ لا نصيب للمضارب الا من الربح فلا يصح أن يشترط له شيء من راس المال كما أن اشتراط الخسارة على المضارب باطل ٠

٥ ــ المضارب امين على رأس المال يعد كالوديعة عنده وهو فى تصرفه وكيل عن رب المال وان ربحت مشروعاته كان شريكا فى الربح ، واذا خسرت المشاريع فلا اجر له ٠

واذا أردنا ان نكيف العـــلاقة بين المودعين والبنك وأصحاب المشروعات الذين يقترضون من البنك فانه يعتبر المودعين جملة (رب المال) كما يعتبر البنك (المضارب) الذى يستثمر المال على أن تكون له نسبة معينة من الربح ٠

فالبنك يوظف هذه الأموال فى المشاريع فيقدم القروض لأصحاب المشروعات المختلفة موجها كل عنايته لدراستها واختيار الصالح منهــا ولا شك أنه سيكون حريصا أكثر من البنك القائم على أساس ربوى لأنه شريك فى الربح بينما الآخر سيأخذ نصيبه من الربح فى جميع الأحوال ومن هنا نلاحظ المساوىء الكثيرة والأخطاء البالغة التى تقع فيهـــا البنوك الربوية ٠

ان المشروعات التى يساهم فيها البنك على الأساس الذى ذكرناه منها ما يربح ربحا جيدا ومنها ما يربح ربحا متواضعا ومنها ما يخسر وهذا قليل لأن البنك لن يساهم فى أى مشروع كان وانمـا سيتحرى المشروع الناجح ، وفى نهاية السنة أو بعد مضى ستة اشهر اذا استقر العرف على ذلك يقوم البنك بتسوية شاملة بين أرباح وخسائر جميــع المشروعات الاستثمارية التى وظف البنك فيها أموال الودائع وبعض أموال المساهمين والصافى بعد هذه التسوية يخصم البنك منه أولا مصاريفه العمومية بما فيها من اجور ، واحتياطى قد يفرضه القانون على البنوك ثم يوزع الباقى بينه وبين المودعين طبقا للاتفاق بينــه وبينهم ٠

تكييف العلاقة بين البنك وأصحاب الشركات الاستثمارية :

اذا إعتبرنا البنك بالنسبة للمودعين هو الشريك المضارب بالنسبة لأصحاب المشروعات الذين يقترضون منــــه هو رب المال وأصحاب المشروعات هم الشركاء المضاربين وهنا تسرى جميـــع القواعد التى أوردناها عن حقوق رب المال وواجباته وحقوق المضارب وواجباته ونصيب البنك من أرباح المشروع يحدد بالاتفاق مع اصحاب المشاريع واذا خسر المشروع ينظر فان لم يكن باهمال أو سوء قصد من صاحبه فلا تقع عليه خسارة أما اذا ثبت شىء من ذلك فانه يعتبر متعديا ويكون عليه الضمان ٠

اما بالنسبة للبنوك الصناعية : فان قاعدة عقد المضاربة يسرى عليها أيضا اذا كان البنك يقدم رأس المال جميعه ولا يساهم صاحب المشروع بشىء اذ يعتبر البنك رب المال وصاحب المشروع شريكا مضاربا ٠

لكن الذى يحدث فى التمويل الصــــناعى أن صاحب المشروع (الشريك المضارب) لا يقتصر على مساهمته فى العمل فحسب وانما قد يشترك بجزء من رأس المال وهنا يسرى عقد شركة الأموال ويقسم الربح على أساس النسبة بين قيمة المال الذى قدمه البنك وقيمة المال

الذى قدمه صاحب المصنع ، وقيمة العمل الذى يباشره صاحب المصنع ، وهكذا يقسم الربح على ثلاثة حصص يتفق على نسبة كل واحد منها ، وقد أجاز فريق من الفقهاء اشتمال محل شركة المال على المال والعمل .

وقد يرافق التنفيذ العملى لهذا التنظيم الجديد للبنوك ، بعض التعقيد اذ لا شك ان النظام الحالى للبنوك — الآن على الأقل — أيسر فى التنفيذ ، لكن شيئا من التعقيد لا يعدل البعد عن الربا والنجاة من التحريم ثم ان هذا التعقيد يتضاءل تدريجيا كلما درجت عملية البنوك وألفه الناس .

أما البديل الاسلامى للربا فى القروض الاستهلاكية فان هذه الوظيفة تستأثر بها مؤسسات حكومية تشرف على تنظيم جباية الزكاة وغيرها من أموال الضمان والتكافل الاجتماعى ، فأما مستحق الزكاة فانهم سيأخذون نصيبهم منها ويسدون حاجتهم الاستهلاكية وأما غير المستحقين فيمكن لصندوق الزكاة لمن يقرضهم قرضا حسنا الى آجال غير بعيدة كما يمكن للدولة ان تضيف هذه الوظيفة الى مؤسسة الضمان الاجتماعى ، هذا ويجب ان لا ننسى أن الاسلام يحض دائما على أن يتعاون المسلمون لأنهم اخوة تجمعهم فكرة واحدة وعقيدة واحـــدة ومن مظاهر التعاون القرض الحسن الذى يقدمه الموسر للمعسر لا يبغى منه الا مرضاة الله .

التكافل الاجتماعى :

ان مبدأ التكافل الاجتماعى مقرر فى الاسلام على أوسع صوره وأشكاله فهو تكافل بين الانسان ونفسه بأن يسلك بها طريق الخير ، وتكافل بين الفرد وأسرته لأن الأسرة أهم لبنة فى المجتمع ، فاذا صلحت الأسرة وتماسكت اثمرت صلاح المجتمع وتماسكه وقد فشل كل نظام أراد ان يقلل من اهمية الأسرة فى كيان الناس .

ولقد حدد الاسلام لكل فرد من افراد الأسرة حقوقا وواجبات تصلح بها كما اقام علاقات أفرادها على عواطف الرحمـــــة والمودة ومقتضيات المصلحة ، وهو أيضا تكافل بين الفرد والجماعة على اساس أن كل فرد فى المجتمع حارس على مصالح الجماعة ومسئول عن صلاحها (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

والتكافل الاجتماعى فى الاسلام لا يقتصر على النواحى المادية

وانما يتجاوزها الى الأمور النفسية والخلقية والروحية ويجمع هذه الواجبات جميعا قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) ، وقوله : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

ولما كنا لا نستطيع أن نفصل جميع حلقات التكافل الاجتماعى وأنواعه المختلفة فانا سنقتصر على التكافل الذى يقوم بين الفرد والجماعة والذى يهدف الى تحقيق العدالة الاجتماعية بالمعنى المادى والحياتى اعتمادا على حده الأدنى وهو الزكاة .

وقد فرضت الزكاة كعبادة وكحق اجتماعى فى أموال القادرين للمحرومين تجمعه الدولة الاسلامية فى حال وجودها بحكم القانون وقوة السلطان .

ومعظم النصوص القرآنية تجمع بين الصلاة والزكاة وفى ذلك دليل على أهميتها فالصلاة حق الله على عباده أما الزكاة فانها حق المجتمع فى مال الانسان ولقد بلغ من تقدير المسلمين لقيمتها ان أول حرب خاضوها بعد وفاة الرسول كانت من اجل تحصيلها وربما كان بامكان أبى بكر رضى الله عنه أن يمنع الحرب لو انه تساهل فى أمر جبايتها ولكنه رضى الله عنه رفض ان يميز بين الصلاة والزكاة واصر على حرب المرتدين او مانعى الزكاة ولو منعوه عقالا واحدا كانوا يؤدونه لرسول الله .

ويعتبر نظام الزكاة اول نظام للتأمين والضمان الاجتماعى فى العالم كله ، سبق فيه الاسلام بمئات السنين فأوربا لم تعرف نظم الضمان الاجتماعى الا فى بداية القرن العشرين .

وفى مقارنة بين الزكاة ونظم الضمان الاجتماعى نجد ان نظام الزكاة أكثر رعاية ورحمة بالمستحقين ، ففى الضمان الاجتماعى يدفع من يستحق ان يأخذ من المال اما فى نظام الزكاة فان الذى يستحق المال لا يدفع شيئا ثم ان المال المدفوع حسب نظام الزكاة من رأس المال بينما هو فى نظام الضمان على الدخل وهكذا يضمن الاسلام لفئات المجتمع كله حياة مناسبة .

ولابد من ان نشير قبل ان نختم هذا البحث الى ان نصيب الزكاة يمثل أقل ما يدفعه المسلم لتحقيق التكافل والعدالة الاجتماعية .

وهكذا فان الدولة تستطيع ان تفرض فى أموال الأغنياء ما يكفى لضمان حياة اجتماعية مقبولة لأفراد الدولة جميعا دون التقيد بنصاب الزكاة لأن فى المال حقا سوى الزكاة وبهذه الطريقة تحقق الدولة ما أراده الله للانسان من حياة كريمة يستطيع فيها أن يؤدى واجبه نحو الله ونحو نفسه ونحو مجتمعه .

والله الموفق ،،،

المؤلف

الأستاذ الدكتور

رشـدى عزيز محمـد

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
التمهيد	٥
حاجة العرب الى الاسلام	٨
حاجة المسلمين الى الاسلام	٩
حاجة الانسانية للاسلام	٩
مفهوم الثقافة والمثقف	١٤
القسم الأول	
العقيدة الاسلامية	**١٧ ـ ١٢٤**
التصور الصحيح للاسلام	١٩
العقيدة الاسلامية	٢٣
أسس العقيدة الاسلامية	**٢٤ ـ ١١٤**
الايمان بالله تعالى	٢٤
طريقة القرآن فى معرفة الله تعالى	٢٥
وحدانية الله تعالى	٤٥
التوحيد فى الاسلام	٤٧
مسألة صفات الله تعالى	٥٠
أهم النتائج التى تترتب على الايمان بالله	٥٥
الايمان بالملائكة	٥٨
أعمال الملائكة ووظيفتهم	٥٨
الايمان بالكتب الالهية	٦٢
قيمة التوراة فى القرآن	٦٣
قيمة الأناجيل فى القرآن	٦٤
الايمان بالنبوات	٦٦
وسائل الصلة بين الله والرسل	٦٦
المعجزات وأنواعها	٦٨

الموضـــــوع	الصفحة
اختلاف العلماء فى حقيقة الاعجاز فى القرآن	٧٠
أسباب تعدد الرسل والرسالات	٧٢
حكمة ارسـال الرسـل	٧٣
حكم الايمـان بالرسـل	٧٤
الايمـان باليوم الآخر	٧٧
المادية تقضي على القيم	٨٥
المادية اتجـاه باطـل	٨٦
الرد على منكرى وجود الله من جهة العقل	٨٩
الرد على منكرى وجود الله من جهة الشرع	٩٢
أدلة البعث فى القرآن الكريم	٩٤
الأدلة التى تستهدف العقل مباشرة	٩٥
الأدلة النقليـة على البعث	١٠١
قصة أهـل الكهف	١٠٤
سورة (ق) وعقيدة البعث	١٠٩
الايمـان بالقـدر	١١٠
مسـألة اختيار الانسـان	١١١
خصائص الرسالة الاسلامية	١١٥
الاسـلام دين عالمى خالد	١١٥
الاسلام دين يتصف بالشمول والتكامل	١١٧
الاسلام دين يحترم العقل ويوافقه	١١٩
الاسلام يسر لا عسر فيه	١٢١

القسم الثانى

نظام الاسـلام	١٢٦ — ٢٨٠
نظام الأسرة فى الاسلام	١٢٧ — ١٧٩
المرأة فى رحاب الاسلام	١٢٧
الزواج فى الاسـلام	١٣٧
الخطبـة	١٤٠
الكفـاءة	١٤١
المهـر	١٤١
الاسلام ومعاملة الزوجة	١٤٣
الحجـاب	١٤٥
الاسلام وتعدد الزوجات	١٤٩

الموضـــــوع	الصفحة
الزيادة على الأربع خصوصية لرسول الله	١٥٣
الطلاق فى الاســـلام (تعريف الطلاق)	١٦٢
حكم الطـــــــلاق	١٦٥
الحكمـة من الطـــلاق	١٦٥
الطلاق فى الاسـلام من حق الزوج	١٦٨
صيغ التفويض فى الطـــــلاق	١٦٩
التوكيل فى الطـــــــلاق	١٧١
هل للقاضى الحق فى الطـلاق	١٧١
التطليق للعيب	١٧٣
التطليق للضرر	١٧٤
التطليق لغيبة الزوج أو لحبســه	١٧٥
أنواع الطـــــــلاق	١٧٥
العــــــــــدة	١٧٨
النظام الادارى فى الاســلام	١٨٠
السياسة والحكم فى الاسلام	١٨١
القرآن والدولة	١٨٢
السيرة والسنة النبوية واقرار فكرة الدولة	١٨٢
اقوال بعض الباحثين المعتمدين	١٨٦
استقلال النظام السياسي الاسلامى	١٨٨
الأفكار التى يقوم عليها النظام الاسلامى	١٩١
صفات الحاكم الأعلى فى الدولة الاسلامية	١٩٢
طريقة تعيين الحاكم الاسلامى الأعلى	١٩٦
طريقة اختيار ابى بكر رضى الله عنه	١٩٨
طريقة اختيار عمـــر رضى الله عنه	٢٠٣
طريقة اختيار عثمـان رضى الله عنه	٢٠٤
طريقة اختيار على رضى الله عنــه	٢٠٥
اسس الحكم فى الاسلام	٢١٢
الأسس الفكرية	٢١٢
الأسس العلمية	٢١٥
الشـــــورى	٢١٥
العـــــدل	٢٢٣
العدل فى الحكم	٢٢٦
العدل فى القضاء	٢٢٩
العدل فى تقرير الحقوق والواجبـات	٢٣١

الموضـــوع	الصفحة
مصدر السلطة والســـيادة في الدولة	٢٣١
واجبات رئيس الدولة وحقوقه على الأمة	٢٣٥
حقوق الحاكم (واجبــات المحكوم)	٢٣٩
مدة ولايـــة الحاكم الأعلى	٢٤٣
العلاقات الدولية فى الاسلام وحقوق المواطنين والأجانب	٢٤٩
اسباب الحرب المشروعة فى الاسلام	٢٥٥
تقسيم العالم الى دار الاسلام ودار الحرب ودار العهد	٢٥٧
حقوق المواطنين والأجانب فى الدولة الاســـلامية	٢٥٩
النظام الاقتصادى فى الاســـلام	٢٦٥
هدف الاقتصاد الاسلامى ووسائله	٢٦٦
موقف الاســــــلام من الملكية	٢٦٧
القيود على الملكية ووسائل تنميتها	٢٦٩
الفائـــدة والبنـــــوك	٢٧١
أنـواع الربـــا المختلفة	٢٧٢
عقد المضاربة واهم احكامه	٢٧٨
تكييف العلاقة بين البنك واصحاب الشركات الاستثمارية	٢٧٩
التكافل الاجتماعى	٢٨٠

تنبيــــــــــــــه

حدث خطأ مطبعى فى بعض ارقام الصفحات وهى :

خـطــــأ	صـــــواب
رقم الصفحة	رقم الصفحة
٤٤٥	٢٤٥
٤٤٦	٢٤٦
٤٤٧	٢٤٧
٤٤٩	٢٤٩

لذا لزم التنويه ٠

رقم الايداع : ٢٤٠٩ لسنة ١٩٨٤

مطبعة حسان

٢٤٢ (أ) شارع الجيش ـ القاهرة

☎ : ٩٢٥٥٤٠